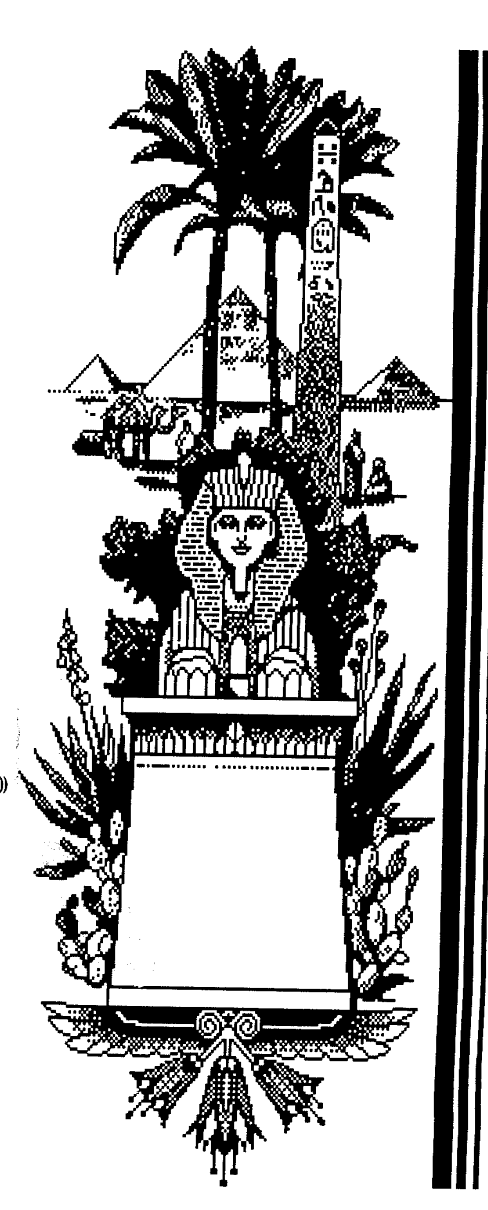
سيدنا يوسف على خزائن مصر

« فصول من الحياة المصرية »



تأليف
عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

مكتبة جزيرة الورد

الطبعة الأولى
٢٠٠٩

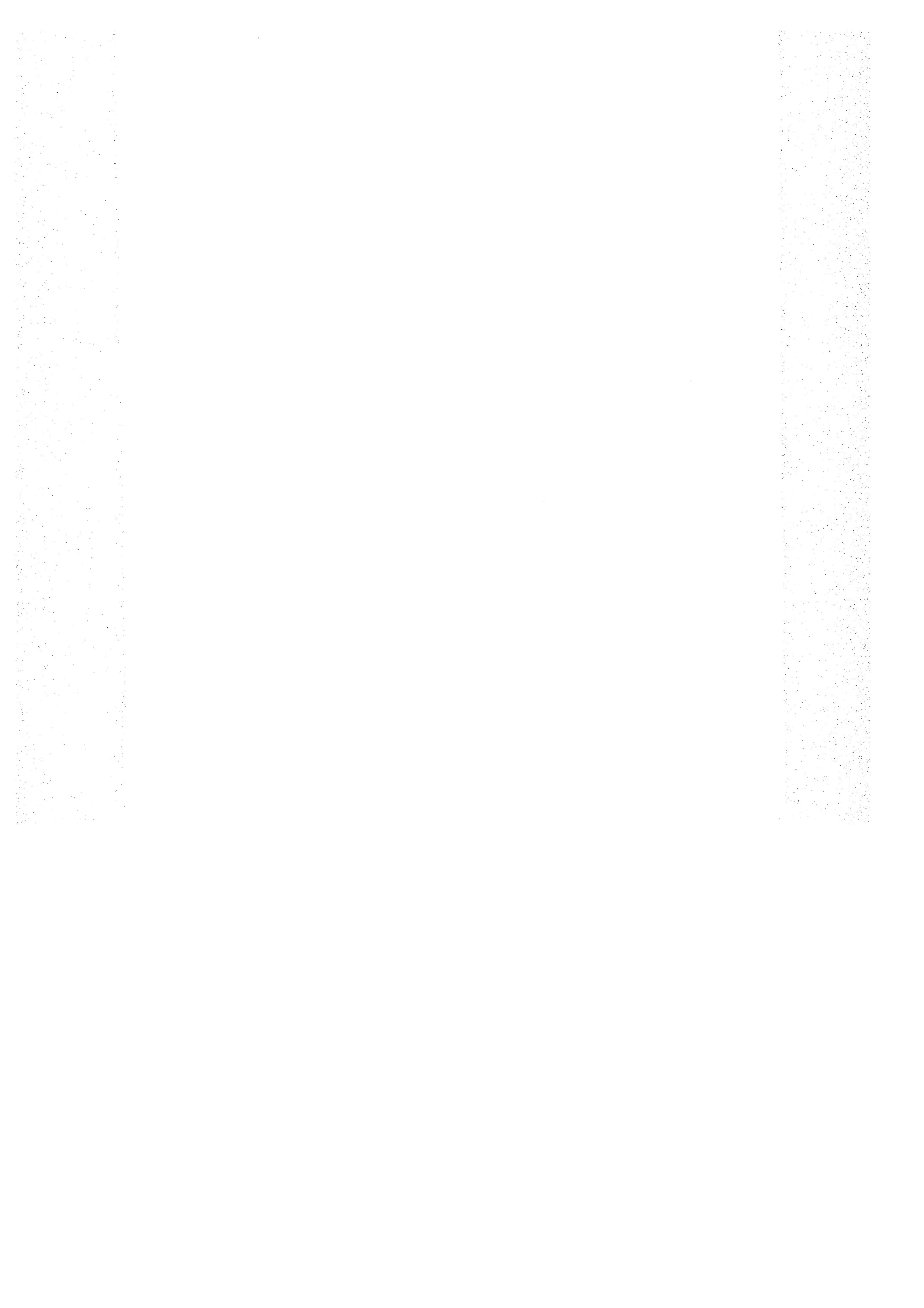
رقم الإيداع
٢٠٠٩/٤٣٨٦٩

مكتبة جزيرة الورد
ميدان حليم خلف بنك
فيصل الرئيسى شارع
٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا
☎
٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤
٠٢/ ٢٥١١٤٣٧١
٠١٠٠١٠٤١١٥
٠١٠٠٠٤٠٤٦



إخراج فنى وكمبيوتر
بانوراما قنديل للفنون
☎ ٢٢٤١٣٢٩ ـ ٠١٦٨٣٥٢١٩٩





المقدمـــة

مشكلتنا كامنة عربية / إسلامية، تكمن منذ نشأتها فى إطار قوانين التوريث، والمتابع لما يدور فى حياتنا العامة والخاصة، يقطع بأن فكرة التوريث التى ارتفع طنينها منذ حوالى خمس سنوات تقريباً ليست جديدة فى حياة المصريين فقد كان معمولاً بها فى عهود المملكة الفرعونية القديمة، وهو ما أثبته بالقطع على صفحات هذا الكتاب، مع أهمية الإشارة بأننى لم أقصد من وراء ذلك الوصول إلى جدلية تكرس لشكل من أشكال الموازنة؛ولا المقارنة بين ماض عتيد، وحاضر وليد، وإنما قصدت بسط الأمور بمالها، وما عليها، بين ما كان، وما يكون.

ولقد راعنى عندما انطويت على النظر فى واقع الحياة المصرية أن ليس هناك بوناً شاسعاً بين وقائع جرت لفلاحى عهد يوسف عليه السلام عندما باعوا أنفسهم كعبيد لجباة ضرائب الأرض الزراعية نظير حفنة من القمح، وبين فلاحى العهد الراهن الذين تُوقع عليهم قرارات الطرد من أراضيهم بسبب عجزهم عن سداد مديونياتهم.

ثم تطفو على السطح لعبة الكراسى القديمة حتى يصبح ابن الرئيس رئيساً، وإبن الخفير خفيراً كما كان معمولاً به فى عصر الأسرات القديمة منذ ما يربو على ثلاثة آلاف سنة.

لاشئ تحت شمسنا بجديد، على الرغم من تلك الثورة التى حدثت فى علمى الفيزياء والكوزمولوجيا فى القرن العشرين، وقد غيرت الكثير من ملامح وجه العالم، بينما نحن لا نزال عاكفين على إيمان بأن الميراث عقيدة

ثابتة فى واقع يتحرك بشكل مستمر، ولكن مع الأسف . أن الجميع التفوا بأردية العصر، ومضوا فى ركض بما يتناسب مع إيقاع اللحظة، ولكنه كان ركضاً إلى الوراء .

من ثم، اجتمعت على حياتنا العربية . / الإسلامية فصول من الكوميديا والتراجيديا فى آن واحد، أبطالها سماسرة وخواجات المجتمع المدنى العربى الناشطين – بتمويل أجنبى – من أجل إيجاد كيانات محلية تكون تقليداً للمؤسسات الأجنبية وامتداداً لها داخل المجتمع العربى . حتى باتت كل المجتمعات العربية والاسلامية نهباً لاحتلال المجموعات القطبية بزعامة قوة التحالف الذى تدفعه الولايات المتحدة الأمريكية بمشيئتها، لصالح أهداف الصهيونية العالمية . تحت مزاعم بما يسمى بالحرب على الإرهاب .

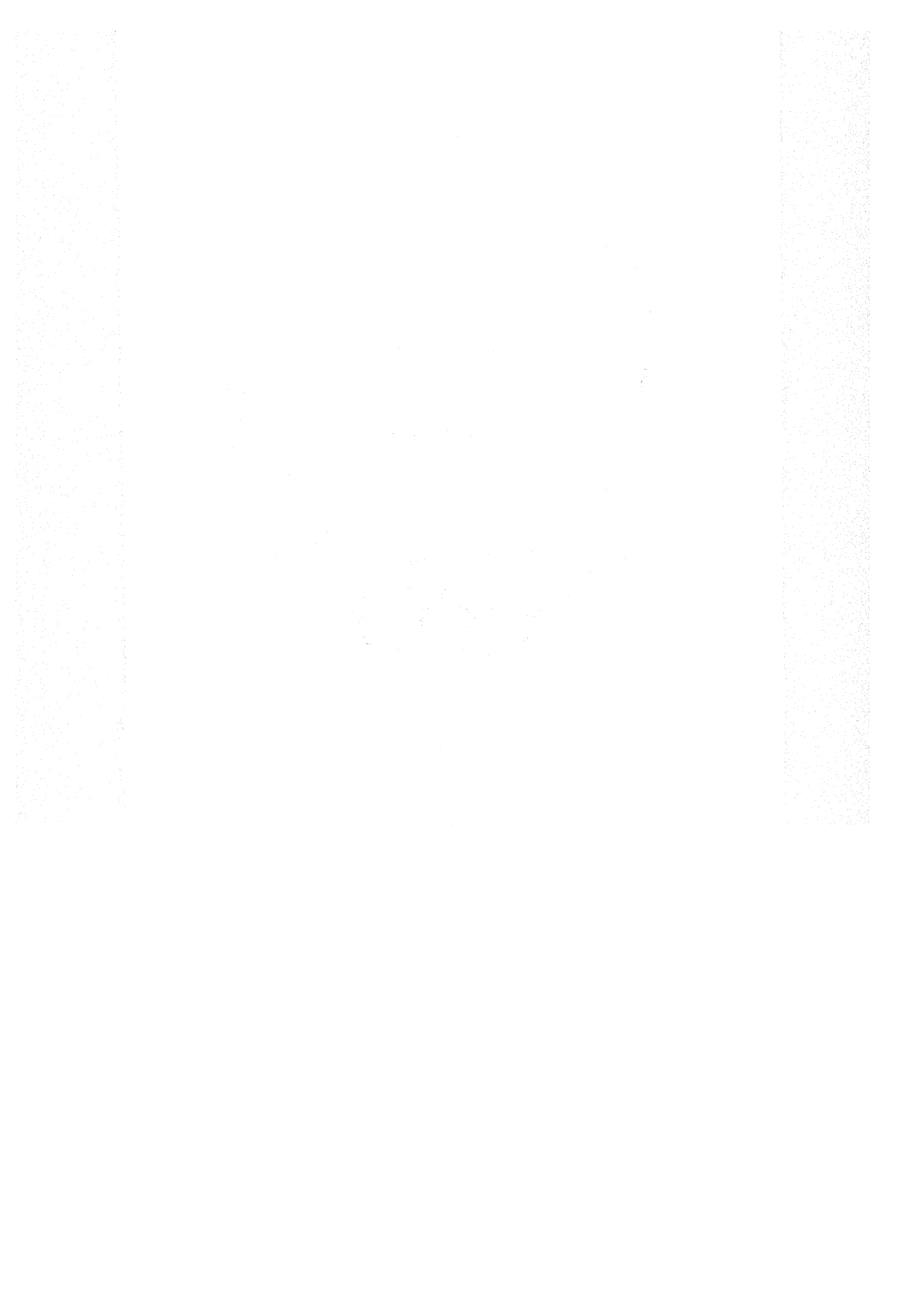
فى ذات الوقت الذى يغض فيه الحكام الطرف عن خريطة نهر النيل التى ترفعها إسرائيل على بوابة الكنيست الإسرائيلى والعلم إلى جوارها .

وليس ثمة حل لمشاكل الأمة المصرية – على مستوى الداخل والخارج – إلا أن تعود إلى جاده الطريق، قولاً وعملاً، برفع راية لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

المؤلف



فكرة تطور الآلهة



فكرة تطور الآلهة

تظهر جليا دعوة القرآن الكريم لهداية البشر، مع ابراز الجوانب المختلفة من القصص التاريخى، وسياقة الحقائق العملية قبل أن يثبت وقوعها حديثا، على الرغم من أنه ليس كتابا تاريخيا وإنما هو نهج مستقيم، وهدى للعالمين، وتشريع إجتماعى:

« وتبعا لذلك فإن منهج القرآن الكريم فى إيراد القصص التاريخى يختلف عن المنهج التاريخى للمؤرخين فالمؤرخ حين يذكر حادثة تاريخية معينة لابد أن يهبط بها على أرض الواقع بأن يذكر المكان والزمان والأبطال. (١).

أما القرآن الكريم فله شأن مختلف فالعبرة هى الأساس من ايراد القصص، وهنا لابد أن نشير بأن القصة تختلف عن الأسطورة فلقد وردت كلمة الأساطير فى القرآن الكريم تسع مرات، وكلها ترد فى سور مكية نزلت على رسول الله ﷺ قبل هجرته إلى المدنية:

فى « الأنعام » و « الأنفال » و « النحل » و « المؤمنون » و « الفرقان » و « النمل » و « الأحقاف » و « القلم » و « المطففين »، وأخطرها ما جاء فى سورة « الأنفال » .. جاء قوله تعالى فى حكاية النضر بن الحارث: ﴿ **قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾ [الأنفال: ٣١]، وفى سورة « الفرقان »: ﴿ **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ [الفرقان: ٥].

---

(١) د. أحمد صبحى منصور « مصر فى القرآن الكريم » كتاب اليوم ـ رمضان ١٤١٠ هـ ابريل ١٩٩٠ ص ٧.

لعلنا نلاحظ فى التكامل القائم بين الآيتين ما يشهد بمعرفة القائل بأن لهذه الأساطير أصلا موجودا تنقل عنه، وفى قوله: ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ يزعم أن النبى ﷺ قد تناولها عن هذا الأصل، وأنها تتلى عليه مما اكتتبه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾.

وحين نرجع إلى جذور الكلمات العربية. نكتشف: «إن معنى «أساطير» فى العربية هو «ما سُطر» أى «الكتب» وليس الخرافات، فهذه معنى حدث مُولَدٌ لا تعرفه العربية الصحيحة (٢)».

ومن صدر القرآن ذاته يأتينا اليقين: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (٣)».

وقبل نزول الوحى بالقرآن. نرى الطبيعة فى حياة القرون الأولى ــ وهى إحدى صنائع الله ــ حيث تغدق على الإنسان فى محاولة تمنحه وسيلة النطق كإعجاز يجرى على الألسنة.

ومن علوم اللسانيات تثرى الحياة منذ أن عرف القدماء كيف يتذوقوا معانى اللغويات ويطحنونها ويهصرونها تحت أسنانهم. حتى غدت اللغة تنمو فى اضطراد، ومن هذا النمو يدلل أصحاب نظرية الفطرة، وعلى رأسهم مؤسسها «نوم تشومسكى» أن اللغة تنمو على نطاق واسع عن طريق إيحاءات البيئة.

ولعلنا نرى أعمال البيئة ــ فى حياة المصريين ــ قد أخذت أشكالا متنوعة

---

(٢) نجيب محمد البهبيتى (المعلقة العربية الأولى أو عند جذور العربية) القسم الأول ــ الدار البيضاء، ص ٤٥.

(٣) يوسف: ١١١.

مما أضفى على اللغة ذاتها أثوابا قشيبة، ويظهر ذلك جليا فى أدابهم وتعاليمهم الأخلاقية حيث لا تسمح لأحد إلا بأن يربط بين الأقوال والأفعال فرفرت فى سماء مصر أجنحة حرية الإختبار، والإختيار، وحسن الأداء، والتصميم على تبوء مقاعد وآفاق الريادة، ولا يتوقع غير هذا من قوم كانوا أقدم من حاولوا البحث عن مصدر الوجود ونشأة الأكوان.

إذا تصدى لهذا الكلام من يزعم بأنه كانت هناك حضارات لأقوام آخرين فهذا يسهل الرد الصحيح عليه.

فى مجال استخدام أسلوب المقارنة. ثبت أن فلاسفة اليونان قد اعترفوا بفضل المصريين عليهم كأساتذة فى مجال الفكر والفلسفة وأن الحضارة المصرية يزخر تاريخها بفصول كبرى من المعارف، وكانت قبلة العلماء من شتى بقاع الأرض، وقام بزيارتها « طاليس » عمدة فلاسفة الإغريق. وحين عاد إلى بلاده أوصى أحد تلاميذه « بيتاجوراس » بالسفر إلى مصر ليصقل موهبته، وليطلع على المزيد من كنوز المعرفة، فى علوم الحساب، والهندسة، والفلك، والكهنوت.

وجاء « فيثاغورس » إلى جامعة أون: « عين شمس »، ثم أجريت له عدة إختبارات قبل أن يتعلم على يد كهنتها وعلمائها، وجاء إليها « أفلاطون » وطاب له العيش فيها لمدة ثلاث عشرة سنة، وهو المحبب إلى عقول مفكرى الاسلام فيما بعد.

ليس هناك من ينكر أن اليونان أخذوا من الثقافة المصرية ومن العلوم ما هيأ لهم فرص المضى قدما على طريق دعم البحوث العلمية ولا أحد من الفلاسفة والمفكرين يغفل أهمية « جامعة أون » وما كان لها من قيمة علمية

وفكرية مؤثرة :

« ولا أدل على ذلك من أن محاورة « طيماوس » قد امتلأت بأفكار تلك المدينة التى عرفت أول تفسير لنشأة الكون ووصلت إلى تصور الإله الواحد، وهذا ليس غريبا لأن من الأنبياء من عاشوا فيها وهذا احتمال لم يثبت بعد لأن بها كان يسكن الكاهن « فوطيفارع » الذى تزوج سيدنا يوسف ابنته وأنجب منها ولديه منسا وأفرايم (٤) » .

وبعيدا عن الشوفينية وحب الظهور فى استعلاء، لا ندعى، وإنما يؤكد البحاثة أن دور مصر الريادى ورفعها مشاعل الحضارة لن يسقط من ذاكرة الوجود ما بقيت الحياة، ولا تتملكنا الدهشة حين يعترف العالم بفضل الحضارة المصرية على البشرية، لأن هذا كائن بالفعل و ملموس على أرض الواقع، وما يقطع بصحة إعتقادنا :

« أن اليونانيين كانوا فى عصورهم الأولى، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة، وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص (٥) » .

لا يعنى ذلك القول بنظرى أن الأغارقة كانوا مثل الأطر الخالية من المعنى والقيمة فهذا أمر لا يصدقه أحد :

« ولكن المعنى أنهم لم ينشؤا هذه العلوم إنشاء على غير مثال سابق كما ظن بعضهم، بل وجدوا مادتها فى الشرق فاقتبسوا منها وأفادوا كثيرا (٦) » .

---

(٤) مصطفى حسين النشار (فكرة الألوهية عند أفلاطون وأثرها فى الفلسفة الإسلامية والغربية) ط ثانية، مكتبة مدبولى ص ٢٧ .

(٥) د. طه حسين (مستقبل الثقافة فى مصر) دار الكاتب اللبنانى عام ١٩٧٣ ص ٢٢ .

(٦) محمد عبد الله دراز، الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) القاهرة مطبعة السعادة ١٩٦٩ ص ٣ .

من ثم يمكن القول أن هناك اختلاف كبير بين الأغريق وقدماء المصريين في مجال الألوهية. إذ لم يكن لديهم آلهة ولم يعرفوا التأليه الصحيح بل ألهوا قوى الطبيعة.. النار.. الهواء.. الرياح.. الإنسان.. ألخ:

«إن الإغريق قد وضعوا الإنسان فى منزلة أقرب إلى الآلهة مما وضعه المصريون والبابليون فى مواطن كثيرة فالأدب الإغريقى يعدد نساء كثيرات عشقهن الآلهة وولدن منهن الأولاد، وقد أوضح البعض أن الخاطىء النموذجي فى بلاد اليونان كان ذلك الذى يحاول انتهاك حرمة أحد الآلهة، وإن الآلهية الأوليمبية رغم تجليها فى ظواهر الطبيعة لم تكن هى التى خلقت الكون وليس فى مقدورها أن تتصرف بالإنسان كأحد مخلوقاتها بنفس حق الملكية الذى رأينا آلهة الأقطار الأخرى التى تتمتع به [٧]».

ومع انصرام الزمن أخذت فكرة تطور الآلهة عند الأغريق فى التبلور، ثم أصبح الآلهة فى اعتقادهم خالدون. لكنهم لا يقدرون على شيء ولم يكن وجودهم أزليا:

«فالحضارة الإغريقية هى أول حضارة على الأرض تمثلت المذهب الإنسانى إلى حد أنها لا تتصور الآلهة إلا على صورة البشر بكل أهوائهم ونقائصهم، ولا تختلف الآلهة عن البشر إلا فى كونها خالدة ومزودة بقوة خارقة للطبيعة البشرية [٨]».

ومن سنوات الحبو ومراتع الطفولة إلى مدارج الرقى.. عاش الإنسان فى

(٧) مصطفى حسن النشار - مصدر سابق، ص ٢٧.

(٨) بتراند راسل (تاريخ الفلسفة الغربية) الكتاب الأول - ترجمة د. زكى نجيب محمود، القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ط الثانية ١٩٦٧ ص ٣٥.

وسط معقد.. طبيعى.. صخرى.. مادى، ثم بدأ تاريخه يلج من بوابة معرفة العناصر التى تلم به، ومن بين العناصر التى شاركت فى ميلاده، ومن الإستنباط وعمليات الإستقراء مع الدخول فى معترك الحياة إمتلأت الجعبة البشرية بتصورات تشير إلى نضج اجتماعى لم يكتمل فآمن الإنسان بوجود عدد كبير من الآلهة، توزعت بينهم السيطرة على قوى الطبيعة، تلك التى عبروا عن كل شيء خرج منها بكامل عبله وعدم إستوائه.

حدث ذلك جملة قبل أن يصل الإنسان إلى يقين الإيمان بالله الواحد الذى لا يشبه أحدا، ومن لا يسمح لصورة ما أن تدل عليه: ﴿ **ليس كمثله شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم** ﴾.

أصبح الإله.. الواحد.. الفرد.. الصمد موجودا لمن يؤمن به، وغير موجود لمن لا يؤمن به، وما ايمان اخناتون بقوة علوية واحدة إلا تعبير رسمى عن بداية عصر التوحيد فى التاريخ، وقد عبر عن ذلك فى قصيدة قال فيها:

أيها الاله الحى، يا مبدع الحياة

اشراقك جميل فى أفق السماء

لقد خلقت كل شيء وتسيِّر كل شيء حسب مشيئتك

إنك تربط جميع الأقطار والأمم برباط محبتك

إزاء حالة أخناتون «التوحيدية» لعل الكثيرين يتساءلون: من الذى أوعز لأخناتون أن ينحو ذلك النهج غير المطروق من قبل؟.. هل هو الإلهام العقلى؟.. أم أنه الإلهام الروحى والعقلى معا؟.

فى كل نفس بشرية توجد حزمة من شعاعات الفطرة السمحاء، قد لا يفطن المرء إلى وقوعها فى قاع النفس فيتراكم عليها من سصدأ ماديات الحياة

ما يجعلها مقبورة، أو كأنها سجينة حتى يأذن الله لها بنوال الخير فيجليها، ثم ينتفض العقل الإنساني من رقاده ليعلن أن العقيدة تلتمس كائنات تتفتق عنها الإستنارة بنور السماء، ولا يتحقق هذا إلا لمن إصطفاهم الله، وعلى أياديهم، يصبح المجال الرؤيوى متسعا فى عالمى العقائد والديانات، وأبسطها وأقواها ما تقوم على الاقناع وخلاصته أن الموجودات لابدَّ لها من موجد، لأننا نرى كل كائن منها يتوقف على غيره، ونرى غيره هذا يتوقف على موجود آخر. :

« ولا يمكن أن يُقال أن الموجودات كلها ناقصة، وأن الكمال يتحقق فى الكون كله، لأن هذا القول كالقول بأن مجموع النقص كمال، ومجموع المتناهيات شيء ليس له انتهاء، ومجموع القصور قدرة لا يعتريها القصور، فإذا كانت الموجودات غير واجبة لذاتها، فلابد لها من سبب يوجبها، ولا يتوقف وجوده على سبب سواه، ويُسمى هذا البرهان فى أسلوب من أساليبه المتعددة ببرهان المحرك الذى لا يتحرك، أو المحرك الذى أنشأ جميع الحركات على اختلاف معانيها [٩].

ولعلنا نتذكر تلك الكلمة التى أطلقها « أفلاطون » بعد عودته من مصر :« إن الخير وراء الوجود »، وتحدث عن العالم المعقول.. عالم الحياة والضياء.. مصدر الوجود والماهية:

« هذا العالم المثالى الذى يتربَّع فى قمته مثال الخير بالذات، شمس الوجود المعقول، الذى هو فى نظره العنصر الإلهى الوحيد، ولذا كان اعترافه بتدخل التدبير الإلهى فى الطبيعة يُعدّ تسليما منه بأن عالم المُثل لا يختص

---

(٩) عبد المنعم الحفنى (براهين وجود الله) القاهرة، مكتبة مدبولى، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ص ٨٢.

وحده بالصنعة الإلهية، بل إن عالم الطبيعة - كما أوضحنا من قبل - يشارك على قدر وجوده المادى فى هذه الصفة (١٠)» .

كان اللاّهوت فى مصر وما بين النهرين حلوليا (أى أن الآلهة حالة فى الطبيعة)، ولا يفهمها الإنسان إلا على هذا النحو :

« ففى الشمس يرى كل المصريين كل ما يعرفه الإنسان عن الخالق، وكذلك هى بالنسبة للبابليين، ولم يكن الله فى نظر الأنبياء وأصحاب المزامير حالا فى الطبيعة بل كان يتعداها (١١) .

هذه نتف من جذور العقائد التى تبلور بعضها فى قالب دينى، يتضمن الأخلاق، وتنظيم المعاملات، ولكن ليس ذلك فقط ما يحدثه الدين :

« بل إن للدين فى العقل الإنسانى جذرين آخرين هما الحزن والفرح. إذ هناك حالات من العذاب النفسى نحار فيها ونعجز عن احتمالها فتدفعنا التى لا سلطان للتعليم عليها إلى ملجأ وراء الجماعة الإنسانية. بل وراء الأكوان الطبيعية. نبغى ذلك فى ملاذ فوق هذا الكون قد يكون هنالك أو لا يكون، وربما كانت طبيعتنا عابثة منا فى هذه الحالة عبثا قاسيا، ولكننا هكذا نحن فى طبيعتنا، وهكذا يكون فينا باعث آخر من بواعث التدين والعبادة .

أما الفرح فمن أنواعه ودرجاته ما يرتفع بنا صعدا ولا يقف بنا عند المتعة به وحسب، بل يرفع العقل كله علوا إلى طباق أعلى بكثير من موضوع الفرح نفسه.. ذلك شعور طبيعى، هو كما لا يخفى على أحد الأجنحة التى تعلو بالعقل إلى ما فوق الطبيعة، فإن كان وهما فإنه لوهم سعيد (١٢)» .

---

(١٠) محمد أبو ريان (تاريخ الفكر الفلسفى) الجزء الأول، ص ٢٠٦ .

(١١) د.جـ.هـ. أ، خاتمة كتاب «ما قبل الفلسفة» ص ٢٦٣ .

(١٢) هنرى توماس «أعلام الفلسفة كيف نفهمهم» ترجمة مترى أمين، مراجعة زكى نجيب محمود، القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٦٤ ص ١٤ .

إذن فقد كان العالم فى مسيس الحاجة إلى أناس ربانيين على شاكلة « أخناتون » فجاء فى زمانه على أرض مصر، يدعو للإله الحى، ومن يربط جميع الأمم برباط محبته :

« وهكذا نرى أن فجر التاريخ لم يكد يبزغ حتى قدم ملك مصر الفيلسوف إلى العالم المذهب الذى هداه تفكيره وخياله إليه، أسرة إنسانية واحدة، وإله واحد هو الأب الرحيم للجميع وإله الحب (١٣) » .

ولم يذهب المصريون ـ فى باكورة حياتهم ـ ما ذهب العبرانيون إليه بأن الإله هو إله يسرائيل فقط، وإنما يؤكدون إنه : « إله واحد هو الأب الرحيم للجميع » . :

« وليس صحيحا من الوجهة التاريخية أن العبرانيين قد ابتدعوا فكرة التوحيد، بل هم قد استعاروا هذه الفكرة من المصريين (١٤) » .

أما الشأن بخصوص يوسف عليه السلام فإن دعوته للوحدانية كانت واضحة العبارة عندما أكد لصاحبى السجن :

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٥) » .

---

(١٣) هنرى توماس (مصدر سابق) ص ١٤ .

(١٤) د. ج هـ . أ. خاتمة كتاب «ما قبل الفلسفة» ص ٧ .

(١٥) راجع الإمام محمد أبو زهرة (مقارنات الأديان .. الديانات القديمة) القاهرة . دار الفكر العربى، وانظر نص الآيات ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠: سورة يوسف .

ومادمنا كمسلمين نؤمن بالإسلام وقيم الدين فمن البديهيات أن يكون المسلمون وغير المسلمين قد عرفوا أن الحضارة الإسلامية تختلف فى روحها عن الحضارات السابقة، وخاصة حضارة الإغريق:

« وحين أخذت عنها فهى لم تأخذ إلا العناصر الدخيلة على الروح اليونانية الخالصة، ونعنى بها تلك العناصر الشرقية التى مُزجت بعناصر يونانية . وهذا سر ما نلحظه من أن أفلاطون وتلاميذه من الأفلاطونية المحدثة قد انتشروا فى الفكر الإسلامى أكثر من انتشار أرسطو فالروح الإسلامية لم تستطع هضم ما قدمه أرسطو فاستعانت على هضمه بالأفلاطونية المحدثة، بل إن العلوم الشرعية قد تأثرت أعظم التأثر بهذه الأفلاطونية المحدثة لأن رجال الدين قد وجدوا فيها روحهم الإسلامية فى صورة أخرى أروع وأعظم نمو وأكثر تفصيلا [١٦] » .

وما لاشك فيه إن معاناة شيوخ الفكر الإنسانى : سقراط . . أفلاطون . . أرسطو وهم يتأملون فى عناصر نشأة الأكوان وأعمال بديع السموات والأرض كانت تقابل بالاحترام من قِبل علماء المسلمين، خاصة منها ما كان متعلقا بعالم النفوس وعالم الأجساد والمُثل، وعالم الاستدلال وما قُدم من أدلة على وجود الله:

« وهذا الدليل الأخير، على الرغم من كثرة الفلاسفة المسلمين الآخذين به كالكندى وابن سينا وابن رشد إلا أنه يُرَّد فى النهاية إلى أفلاطون [١٧] » .

(١٦) عبد الرحمن بدوى (التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية) القاهرة - دار النهضة المصرية - الطبعة الثانية ١٩٤٦ .

(١٧) محمد عاطف العراقى (الميتافيزيقا فى فلسفة ابن طفيل) ص ٣٨ وانظر : محمد عاطف العراقى (الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا) ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

وعلى وجه الإطلاق لا تزال نظرة مفكرى الإسلام إلى أفلاطون وتلاميذه مفعمة بالتقدير، وقد اعتبروهم كسبا كبيراً لدعوة الإسلام، حيث وضعوا التفكير والعلم فى ميزان العقل، وهذا بعينه الذى يعظمه الإسلام وبخاصة ما يتعلق بالألوهيات :

« وذلك ليؤكدوا أمرين وليخدموا غرضين، أولهما : إقامة شهود من غير المسلمين على صدق الدعوة الإسلامية فى وحدانية الله ممن شهد لهم الناس جميعا بكامل العقل وسلامة التفكير.

وثانيهما : قيام الحجة على أن دعوة الإسلام ليست للعرب وحدهم، وإنما للناس جميعا، إذ كانت تعاليمها واقعة فى العقل منذ أقدم العصور . وقد أدى هذا الشعور عند الفلاسفة المسلمين إلى المبالغة فى تقدير الفلسفة اليونانية واعتبارها بناء قدسيا لا يدخل أى فساد على كلياته أو جزئياته (١٨) » .

غير أن شريحة من مفكرى العرب والمسلمين اهتموا بالأبنية الفكرية الإغريقية إنحيازا « للصورة » و « المثال »، ثم خرج آخرون منهم بنتيجة توفيقية ارتبطت من بعض أطرافها بالفكر الإسلامى مع محاولة إيضاح نقاط التقاء بينهما :

« وغاب عن كثير منهم نقاط الإختلاف الجوهرية الكثيرة بين أفلاطون وأرسطو، وبين ما جاء به « القرآن الكريم » لأن فلاسفة اليونان مع كونهم يكادون يجمعون على ألوهية إله واحد، فوق الموجودات كلها، إلا أنهم مع هذا ـ كما رأينا لدى أفلاطون قمة التفكير اللاهوتى بينهم ـ يخلطون كثيرا

(١٨) عبد الكريم الخطيب (الله ذاتا وموضوعا)، القاهرة - دار الفكر العربى - الطبعة الثانية ١٩٧١ ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

بين الإله وبين الموجودات، فتارة يجعلون لمادة الوجود وجودا مناظرا لوجود الله، وأن العالم لم يخلق المادة، وإنما خلق صورا منها، وتارة يجعلون الله قد أبدع العقل الأول، أو تلك العقول المفارقة، ثم جعل إلى هذا العقل أو تلك العقول تدبير الوجود، وأن ليس لله بعد ذلك عمل فى الوجود إلى غير ذلك من التصورات التى تعزل الله عن الوجود أو تخلطه به [١٩] ».

وهذا يذكرنا بما ذهب إليه اللاهوت العبرى حيث جعل الله يبذل قصارى جهده فى خلق العالم، وأنه (ترك موجوداته تدير أمور حياتها بنفسها فى اليوم السابع) حتى يستريح ـ سبحانه ـ المنزه عن الضعف والوهن!!

أما بداية تاريخ مصر المعبر عنه عند الأفرنج بالكروتولوجية المصرية فقد كثرت فيه الآراء، وذهب بعض المؤرخين إلى أن أصل قدماء المصريين من الجنس الإفريقى، وقيل من المحتمل أنهم من سلالة البربر وقبائل الجزائر ومراكش داخلتهم عناصر من الجنس السامى كالسوريين والعرب والنوبيين.

من هؤلاء تكونت مملكتان كبيرتان، الوجه البحرى، والوجه القبلى، ثم جاء الملك « مينا » فوحد المملكتين وتجلت هذه الوحدة فى قوة الحكومة الغنية بخصوبة الأراضى ووفرة المياه واختراع الكتابة.

وبالنسبة لما أحرزه قدماء المصريين من تقدم فى مجال العلوم والطب والهندسة والآداب فقد كانوا يخاطبون الأغارقة فى شخص هيرودتس وديودر الصقلى قائلين: « ما أنتم أيها اليونان إلا أطفال ».

كانت هناك دار الكتب الكبيرة التى قال عنها « مانيتون » المؤرخ المصرى

(١٩) توفيق الطويل (قصة الصراع بين الدين والفلسفة) دار النهضة العربية – الطبعة الثالثة ١٩٧٩ ص ١١٧-١١٨.

المتوفى فى القرن الثالث ق.م: «إن عدد المؤلفات المنسوبة إلى هرمس ٣٥٥٢٥»، وفى العام الذى تمرد المصريون فيه على الامبراطور «ديوكليسان» أغضبه ذلك منهم فقام على الفور بحرق جميع المؤلفات المصرية الخاصة بعلم الكيمياء حتى لا يستطيع أحد من المصريين مقاومته بهذا العلم.

وقسم المؤرخون مصر إلى ٣١ أسرة، وأول تلك الأسرات من كان على رأسها الملك مينا، ويعتبر المؤرخون أن السمات التى تميز الدول الكبرى عن غيرها تجمع فى ثلاثة مظاهر:

١- القوة المادية، واتساع السلطة بالفتوح والاستعمار.

٢- أبهة الملك وجلاله، لا سيما فى المواسم والأعياد.

٣- العناية بالعلوم ورفع شأنها وشأن القائمين بحمل مشاعلها وتوسيع رقعتها.

فى مجال الرياضيات برع المصريون فى علوم الحساب والهندسة، وكان لديهم ٥ سجلات مليئة بالملاحظات الدقيقة عن الكواكب وحركتها، وكان المنجمون يخبرون الناس بالمستقبل، ويتنبأون بالوفرة والمجاعات والأوبئة وأمراض القطعان والزلازل والفيضان وظهور المذنبات.

وفى ذلك يقول هيرودتس:

إن من جملة ما ابتدعه المصريون نسبة كل شهر وكل يوم من الشهر لإله خاص، ثم يلاحظون يوم ولادة الشخص ويخبرونه بالحظ الذى ينتظره وما سيصير إليه وبأى ميتة يموت، ولقد استعمل الشعراء اليونان هذا العلم، ولكن المصريين برزوا فيه وأتوا بالمعجزات.

وكان من نصيب مصر الخير والبركة اللتين تلقاهما «مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح» حين طلب مصرايم إلى جده نوح عليه السلام أن يختصه بدعوة

من دعواته فوضع نوح يده على رأس مصرايم وقال: « اللهم إنه أجاب دعوتى فبارك فيه وفى ذريته وأسكنه الأرض المباركة التى هى أم الدنيا وغوث العباد التى نهرها أفضل أنهار الدنيا واجعل منها أفضل بركة وسخر له ولولده ».

ومصرايم هو الذى عمر مصر بعد الطوفان. لذلك سميت بإسمه بعد أن كان اسمها جزلة، ودرسان أى باب الجنة، وقد سكنها مع أبنائه الأربعة: مصر بن بيصر، وقوف بن بيصر، وساح وباح، وذكر ابن الحسن الشافعى: « أن مصر كان له أربع أبناء: قبط، وأشمون، وأتريب، وصا، فقسم مصر بين أولاده أرباعا ».

ويرى الجيولوجيون والأنثروبولجيون أن الإنسان بذاته لم يكن له - وحده - الفضل فى بزوغ شمس مصر وحضارتها، وإنما هى الأرض والنيل وقد ساعد كلاهما فى ازدهارها.

من أطلس العالم القديم « شعوب العالم وأقطاره » الصادر عن « ناشيونال جيوجرافيك » نطالع فصلا تحت عنوان: « أرض الفراعنة من ٨٠٠٠ ق.م حتى ٦ ميلادية » جاء فيه:

« عكف النهر على ترسيب طين غنى بالمعادن بعد كل فيضان مقتطعا من « الأرض الحمراء » أى الصحراء واديا سُمى كيميت أى « الأرض السوداء » عاش عليه حول أعوام ١٣٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ق.م، فلاحون ورعاة وصيادى سمك دلت آثارهم الحجرية عليهم، فلقد وجدت فى أماكن متفرقة سكاكين ورؤوس أسهم وقصابات بالإضافة إلى مناجل وأحجار رحى قد تكون لحصن وطحن الحبوب البرية.

مع سنة ٥٠٠٠ ق.م حدث تطور درامى للحضارة المصرية بعد أن بدأ

الفلاحون فى زراعة الحبوب واستئناس الماشية والماعز والخنازير التى قد تكون جلبت أصولها من جنوب غرب آسيا ولكن تطورها ونموها كان صناعة مصرية خالصة .

ما بين الألفية الخامسة والرابعة قبل الميلاد انتشرت فنون الزراعة لتغطى طول الوادى لتنبثق تجمعات سكنية يطلق عليها « نوم » مبنية بالطين والحطب ، ولكل تجمع إله .

فى حوالى ٣٠٠٠ ق.م بدأ حاكم مصر العليا فى توحيد تلك التجمعات السكنية حوالى (٤٠ نوم) مكونا أول حكومة موحدة لوادى النيل بمصر تحت حكم واحد غير مؤكد أسمه مينا أو نارمر أو قها » .

بل المؤكد أن مينا هو موحد الوجهين البحرى والقبلى وأنه أول من رأس هذه الحكومة الموحدة فكانت المدنية حاضرة على ضفاف النيل ، ومن الدلائل التى تشير إلى أن القطر المصرى كان من مبدأ مدنيته منقسما إلى عدة امارات صغيرة :

« التأمت (الامارات) تدريجيا حتى تكونت منها مملكتان عظيمتان إحداهما بالوجه القبلى والأخرى بالوجه البحرى ، وامتازت الأخيرة بسرعة تقدمها فى الحضارة وقد ألهمت سنة ٤٢٤١ ق.م . أن السنة الشمسية تتكون من ثلاثمائة وخمس وستون يوما وهذا التاريخ ٤٢٤١ ق.م هو أقدم تاريخ ثابت معروف للآن على ظهر البسيطة ومن ذلك الوقت لقبت مصر « بأرض القطرين » . وفى عام ٣٤٠٠ ق.م إنضم هذان الوجهان تحت سيطرة الملك مينا فكان أول من حكم أرض مصر مجتمعة (٢٠) » .

وعندما نستعيد ما أسلفنا من قول حول منابت الأرحام التى كونت

النسيج الإجتماعى المصرى منذ بداية تاريخ مصر المعروف لدى الغرب بالكروتولوجية المصرية . نجده عبارة عن أخلاط من الحامية والسامية .

غير أن المفكر جمال حمدان كانت له وجهة نظر تختلف فى جزئية منها عن ما أشيع حول العرق والنسب الذى انحدر من أصلابهما قدماء المصريين، ولم يكن مطمئنا إلى أقوال من كانوا يدعون أن المصريين هم أصل الجنس البشرى :

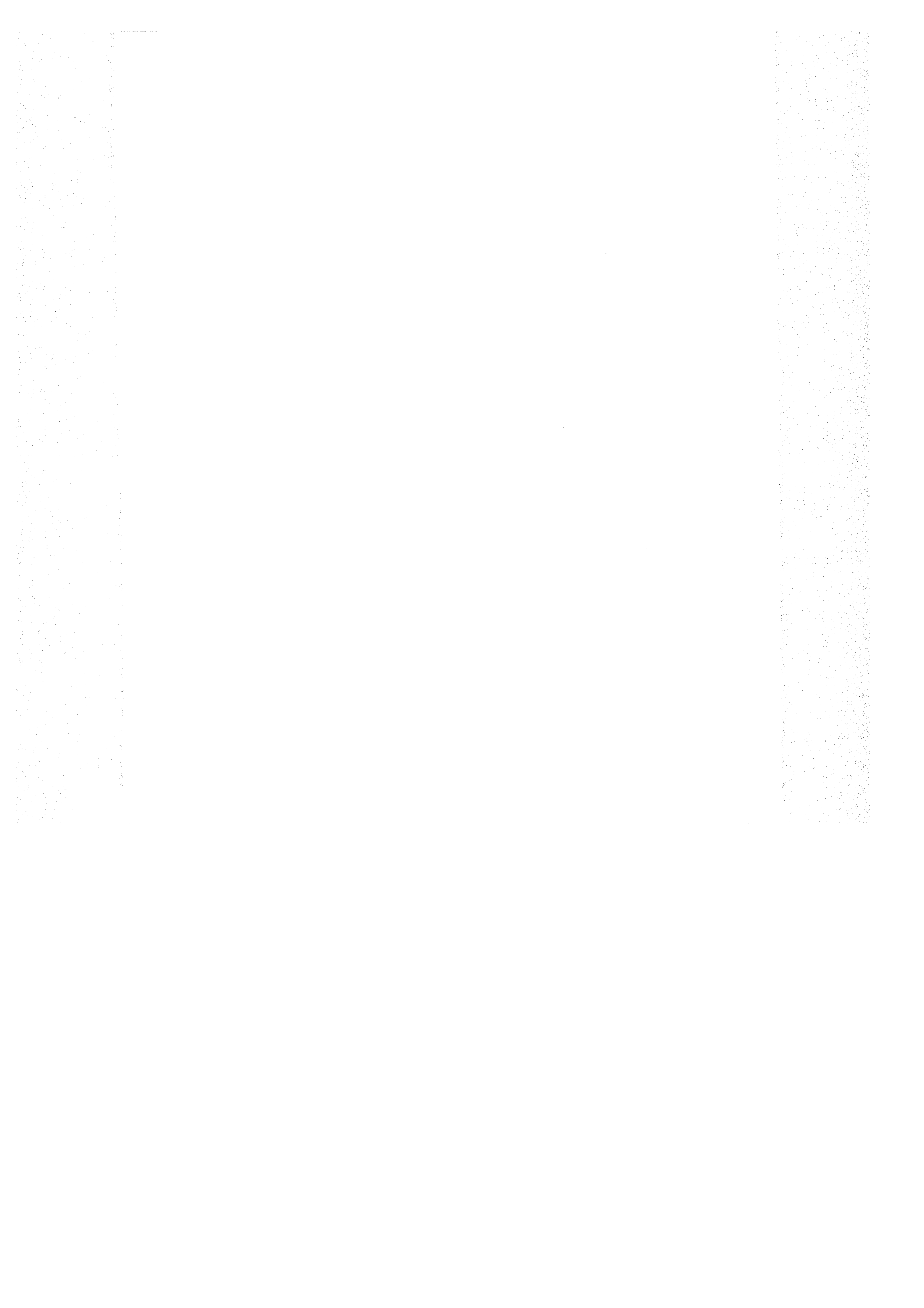
« قد لا تكون مصر مهد الجنس البشرى والموطن الأول للإنسان بل إن من المسلم به أنها ليست كذلك، ولكن الإنسان المصرى يعد بالتأكيد أقدم سلالات الأرض فمن المؤكد أن تعمير مصر بدأ مبكرا جدا منذ وقت بالغ القدم يسبق فجر التاريخ المكتوب بمراحل سحيقة على أقل تقدير . فالإنسان ظهر على مسرح الحياة فى هذا الجزء من العالم فى عصر البلايستوسين أى فى العصر المطير على الأقل، ومنذ أوائل العصر الحجرى على الأقل، ومنذ أوائل العصر الحجرى القديم بالقطع تظهر مصر وهى منطقة مغمورة مسكونة بواسطة جماعات مختلفة منتشرة فى معظم أجزاء الوادى، تدل على ذلك بقايا الأدوات الصوانية والآلات الحجرية ومخلفات السكن والمساكن التى تركتها تلك الجماعات، رغم أننا لم نجد لها بقايا جسمانية، فلسنا نعرف شيئا محددا عن شكل انسان العصر الحجرى القديم المصرى (٢١) » .

******

(٢٠) د. سليم حسن (الحضارة المصرية) .
(٢١) د. جمال حمدان (شخصية مصر) .



قداسة المعبد
فى
حياة المصريين



قداسة المعبد فى حياة المصريين

كان المعبد فى المملكة الفرعونية يأخذ شكلا محوريا . . بوابة ضخمة . . فناء مكشوف . . حجرة الأعمدة . . غرفة القرابين . . غرفة المركب . . الحرم الداخلى (المحراب) .

ومن الأمور الضرورية التى توضع من أجل تشييد المعبد أن يكون من الأحجار الخالصة، مع إحاطته بسور مرتفع من الطوب، وأن يحتوى بداخله على مجمع سكنى للكهنة، وغرفة للطعام، وغرفة تستعمل كمخزن لمختلف احتياجات المعبد والكهنة .

تكاد تجمع النظرة العارضة على أن المعابد هى عبارة عن مجموعة من الأبنية المقامة على الأحجار والأعمدة، بينما هى تعنى فى جملة ما تعنيه « وحدة الزمان » كواحدة من ظواهر العالم الطبيعى والمادى، ومن ثم ينبغى أن يكون الزمان صورة منقولة عن ما وراء الطبيعة إلى العالم المعقول، واذا كان المصريون يرون أن الزمان صورة من ظواهر كثيرة يستدل بها على قدرة الإله، إذن فلابد أن يكون تقديسه فى مكان جليل يليق بعظمته وقدرته :

« أما الدين فى تاريخ مصر القديمة فقد ربط الأعمال الصالحات فى الدنيا بنعيم الآخرة، ولم يكن يحكمه التناقض ولا المغالاة فى فناء الجسد كما كان الحال فى الأديان الأخرى، ومن أهم مخصبات وتطوير العمل الدينى فى مصر، أنه كان دائم التجدد (١) » .

---

(١) عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل (الإسلام بين الشيعة والقاديانية) مكتبة الإيمان بالمنصورة ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧م طبعة أولى، ص ٥٦، ٥٧ .

ولعلنا نلمس ذلك من خلال الأنظمة والأشكال الهندسية فى شكل المعبد الفرعونى، لكن ما لا يجب فيه الخلاف أن يكون المعبد من حيث الطول والعرض على ذات المقاييس التى يؤثر المصريون أن تكون تكعيبية وأن تقبل القسمة على عشرة:

« فبهو الأعمدة العظيم فى الكرنك مقاييسه هى ٢٠٠ X ١٠٠ ذراع، ويبلغ عرض البوابة الضخمة للمعبد فى مدينة حابو ١٣٠ ذراعا، وعرض بوابة « خنسو » الصغير فى الكرنك ٦٠ ذراعا. وفى إدفو تقرر متون المعبد نفسها مقاييس دقيقة، وتشرحها من خلال مراجع إسطورية، وكما هى الحال فى الأقصر، يسير المحور الرئيسى موازيا للنيل، مع أن المصريين كانوا يستحسنون محور شرق غرب المتعامد على النيل المتدفق شمالا، وقد حددت الشؤون الفلكية اتجاه المحور المركزى فى حالات معينة فى أبى سمبل، وفى « أحرام إخناتون ».

على سبيل المثال يوضع المحور فى خط واحد مع مسار الشمس، وفى جزيرة فيلة بأسوان يستهدى فى توجيه محور المعبد بالنجم « سوتس » (نجم الشعرى عندنا) الذى يدل صعوده الشمس على ارتفاع المد الأقصى لنهر النيل (٢) ».

ومن ثقافة الجهل والتجهيل شاع أن القصد من وراء الرسومات والزخارف المنتشرة على جدران المعابد المصرية أنها وضعت تجميلا للمكان، والحقيقة أن الثراء الفنى جاء من أعماق الحس الدينى لدى المصريين، وهو

---

(٢) أريك هونـنج (الدين والفكر عند الفراعنة .. المعبد كون) ترجمة حسن حسين شكرى - جريدة أخبار الأدب ١٤ شعبان ١٤١٨ هـ ١٤ ديسمبر ١٩٩٧ ص ١٦.

كتعبير ذاتى كان القصد من ورائه أن يشاهد فى مدونة جدارية تتضمن طرائق الطقوس الدينية وتخليداً لذكرى المعارك الكبرى فى حياة المصريين.

وما يثير الانتباه أن كثيرا من المعابد تفتح برسوماتها البوابة الأولى على نشأة الحياة فكان الإنسان المصرى أول من اهتدى إلى فكرة الألوهية، وتعد كلمة «الإله» من تلك الكلمات المقدسة التى اكتشفها منذ فجر التاريخ، وهى تعبر عن مدى عمق التفكير العقلى الذى بدأ يأخذ مكان علم الميثولوجيا فيما بعد، وإن كان التحول أو التغير - مع انصرام الزمن - ما لبث يسير فى طريقين متعارضين، طريق إلى أسفل، وطريق إلى أعلى.

غير أن رسومات تلك المعابد ظلت وستظل تكشف لنا أثر الدين فى النفوس وطرائق العبادة وعملية إقامة الشعائر، والتراتيل التى كانت تتجه إلى «نون» (الخضم الأزلى الذى انبثق منه كل شىء، وهو أبو الآلهة)، ومع امتداده من أقصى الجنوب إلى شمال الوادى تولد الزروعات لتعمق معانى الميلاد والموت.. زراعة تولد.. وزراعات تحصد وما بين الغرس والحصاد تتصاعد أدعية صلوات الشكر فى حوار يدور بين النفوس المتضرعة، ثم بين العقيدة والإله.

ولا يفوت الجداريات تعبيرا مثل هذا فتضعه أمام منظر آخر للعبادة فيه يقدم الملك القرابين للآلهة، وترشدنا إحدى المدونات على اللوحة حيث تتضمن وعد الإله للفرعون، ولمختلف الكائنات البشرية: «سأمنحك الحياة، ورغد العيش والصحة إلى الأبد».

تبدو ملامح تلك الحياة عميقة الجذور فى ارتباط الوجود والمصير بمبدع هذا الكون العظيم، وهى تعد من أعقد القضايا الميتافيزيقية وأقدمها بمراحل:

«إذ عالجها الإنسان أولا على الفطرة ثم أخذ يتعمّق فيها ويفلسفها، فأصبحت موضع بحث متصل من رجل الدين والأخلاق، إلى العالم والفيلسوف. وأساس هذه المشكلة فكرة الألوهية، وهى فكرة سامية بسمو موضوعها. وتُعدّ قطعا من أسمى الأفكار التى وصل إليها الإنسان، وقد هداه إليها مجتمعه وبيئته، أو نظره وتأمله، أو ما أنزل إليه من وحى وإلهام (٣)».

ويستوقفنا منظر آخر يجسد نوع منحة الإله أثناء تقديمه علامة الحياة تجاه أنف الملك، ثم وهو يلوح بصولجان مفتاح الحياة علامة على الوجود الأبدى، وكقاعدة ألفها المصريون فى تقديس، يظهر الآلهة والألهيات فى هدوء تام، بينما يظل الفرعون يقوم بأداء الصلاة مبتهجا ومبتهلا، وأثناء قيامه بتقديم القرابين يصل إلى غاية السرور فيرقص - فى لحظة مفعمة بالإيمان - أمام الإله.

ولم تكن العبادات بطقوسها وقفا على فئة فى المجتمع بل كانت تؤدى فى مصر من قِبَل الأغنياء والفقراء على السواء، وقد ساهم الجميع فى بذل النفقة على المعابد.. تجميلا.. تنظيفا، وكانت هناك ميزانية مخصصة لإعداد القرابين، وتخزين المؤنة. بما يفى باحتياجات الكهنة والعاملين فى خدمة المعبد بحيث تظل ساحة المكان نظيفة بما يليق بوضعها كمركز للفن والآداب والعلوم.

ولا يظنن أحد أن المعبد هو مكونات من الأحجار والأعمدة ومجموعة من الرسومات ليست معنية بذاتها، بل إنها على وعى تام بما يمكن أن تحدثه

(٣) ابراهيم مدكور (فى الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه) الجزء الثانى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢١.

من تحولات داخل النفس، وهى تحث المرء على الرجوع بالنظر إلى ما وراء الحياة التى لابد أن يكون وراء مظاهرها إله، عادل، باسط، قابض، قادر على بسط أجنحة رحمته على كل من يخشاه، وهو المعبود الذى يجعل كل من يبتعد عن طريقه يهلك.

ولقداسة المعابد الفرعونية شأن عظيم، وإذا أصيبت بالقدم والرثاثة كانت لا تهدم، وإنما تدمج الأجزاء القديمة فى أجزاء أحدث منها تعبيرا عن انتظام حلقات الحياة فى سلسلة من امتداد التاريخ الدينى والتراث الكهنوتى، والعلمى، والفنى وربطه بالحاضر المعاش.

إن أعمال «أمينوفيس» الثالث، توضح تلك الصلة القوية بين التراث والواقع، وحين أمعن التفكير فى تبجيل تلك المشاعر راح يعبر عنها بفك بيت «سنوسرت» الجميل ودمجه فى بوابته الثالثة فأنقذ بذلك التصاوير الجميلة من الإهمال والنسيان، مع الإحتفاظ بحقبة من التاريخ يمكن من خلال التعبير عنها فنيا، معرفة المستوى الثقافى، والحضارى الذى وصل إليه المصريون.

والحق أن هذا الميل لنقل، وتصدير كل شيء جميل يتمخض عن الحياة عبَّر عنه المصريون فى شفافية، فهناك فى الأصل، الإله، الصانع، البديع، ثم يأتى من يحملون نفحة ربانية ليعالجوا بعض شئوون العبادة، والحساب، والبعث ويضعونها تحت عين الآلهة فى المعابد، وكان مع الإله المقدس، يوجد فى كل حرم مجتمعا مقدسا:

«وقد تطلب هذا بدوره «أحراما» إضافية أو ساحات للعبادة، بل حتى «أحراما» مستقلة داخل أسوار مجمع المعبد الكبير، ويوجد مصلى أنوبيس، وحتحور فى معبد حتشبسوت الجنائزى، كما توجد أماكن عبادة الشمس

فى كثير من المعابد ، ويضرب بها المثل « للاحرام » التى من هذا القبيل، وقد أدت شعبية الثواليث المقدسة فى المملكة الحديثة إلى « أحرام » ثالوثية مقدسة [٤] » .

ومن خلال حركة المعابد من الداخل نلاحظ التأثير الدينى على حالة الإبداع الإنسانى، فمن الكلمة المقدسة خرجت المُثل الجميلة والمعانى رفيعة المستوى، ثم جاء الأزميل والفرشاة ليكتنزان فى حيز المساحة تلك الصور والزخارف لكى تشخصها الآلهة فكانت الغائية هنا أن يكون كل ما يصنع على درجة من السمو والكمال .

وعلى نفس الدرجة من الإبانة والوضوح كان الملك متوشحا بمجموعة من التفاعلات المحلقة فى نورانية تضيىء منكبيه حيث يقف مصليا، أو مقدما القرابين أمام آلهة المعبد المقدسة .

هناك، لابد أن يبدأ كل شيء بالملك، لأن الفرعون وحده هو الذى يستطيع أن يخاطب الإله، ويتحدث إليه، فى ذلك الزمن كانت مهمة الكاهن الواقف بجوار الملك، والمكلف بشؤون العبادة أن يفصح أمام الإله بأنه ممثل الملك : « إن الملك الذى يبعثنى لكى أرى الإله » :

« وقد كان بتاح حتب والفلاسفة المصريون هم أول من سجَّل إيمان الإنسان بالبعث، وهذا الإيمان هو الذى حفَّز المصريين على الاحتفاظ بأجساد موتاهم [٥] » .

حين كانت نشأة اللاهوت فى مصر حلولية، أى أن الآلهة حالة فى

(٤) أريك هوننج (مصدر سابق) .
(٥) هنرى توماس، أعلام الفلاسفة، ص ٨ .

الطبيعة، ولا يفهمها الإنسان إلا على هذا النحو:

« ففى الشمس يرى المصريون كل ما يعرفه الإنسان عن الخالق وكذلك هى بالنسبة للبابليين. ولم يكن الله فى نظر الأنبياء وأصحاب المزامير حالاً فى الطبيعة بل كان يتعداها (٦) ».

وبالطبع فإن الإنسان كان فى طفولته يلهو بالأحجار، وكان الله يرسل إليه أنفاسا من الطهارة تمكنه من استعمال العديد من الأدوات التى تمكنه من رسم الشعائر، بيد أن كل جميل صنعه المصريون على أرض الواقع، يدعى اليهود فى قحة وفجاجة أنهم الذين قاموا بصناعته للمصريين.

وحديثا صدر كتاب « عمانويل فلايكوفسكى » يزعم فيه أن الذى حرر المصريين من قبضة الهكسوس هو الملك الإسرائيلى « شاؤل » معلنا بذلك عن جهله أو انه يعرف ويزيف شأن العديد من الكتّاب الصهيونيين - أن القائد المصرى « أحمس » كان له شرف قيادة الشعب المصرى حتى النصر، وادعى ذلك الكاتب أن معبد الملك سليمان فى أورشليم هو الذى اتبعته الملكة « حتشبسوت » فى بناء معبدها فى الدير البحرى، ثم ادعوا أنهم قاموا ببناء الأهرامات.

وياليت الأمر توقف عند سلب بعض أفكار الشعوب، ولكن جرائم الصهيونية بدت فى عنصريتها حين خططت للإستيلاء على أوطان بأكملها، وراحت تستنفر جميع يهود العالم من أجل العودة إلى فلسطين العربية:

« فكلما زادت هجرة اليهود إلى دولتهم كلما احتجنا إلى المزيد من

(٦) د.ج.هـ (ما قبل الفلسفة) ص ٢٦٣.

الأرض (٧) » .

وبعد أن استولوا على أرض فلسطين راحوا يفجرون مشاكل المياه الإقليمية، ويطالبون بأن تكون لهم حصة فيها، وإلا سيذهبون مع « ليبرمان » ـ الصهيونى النزعة . القادم من روسيا ـ فى دعوته للاستيلاء على السد العالى وتحويل مجراه إلى اسرائيل، أو قصفه بالطائرات حتى تُغرق مياه النيل بلاد مصر كلها .

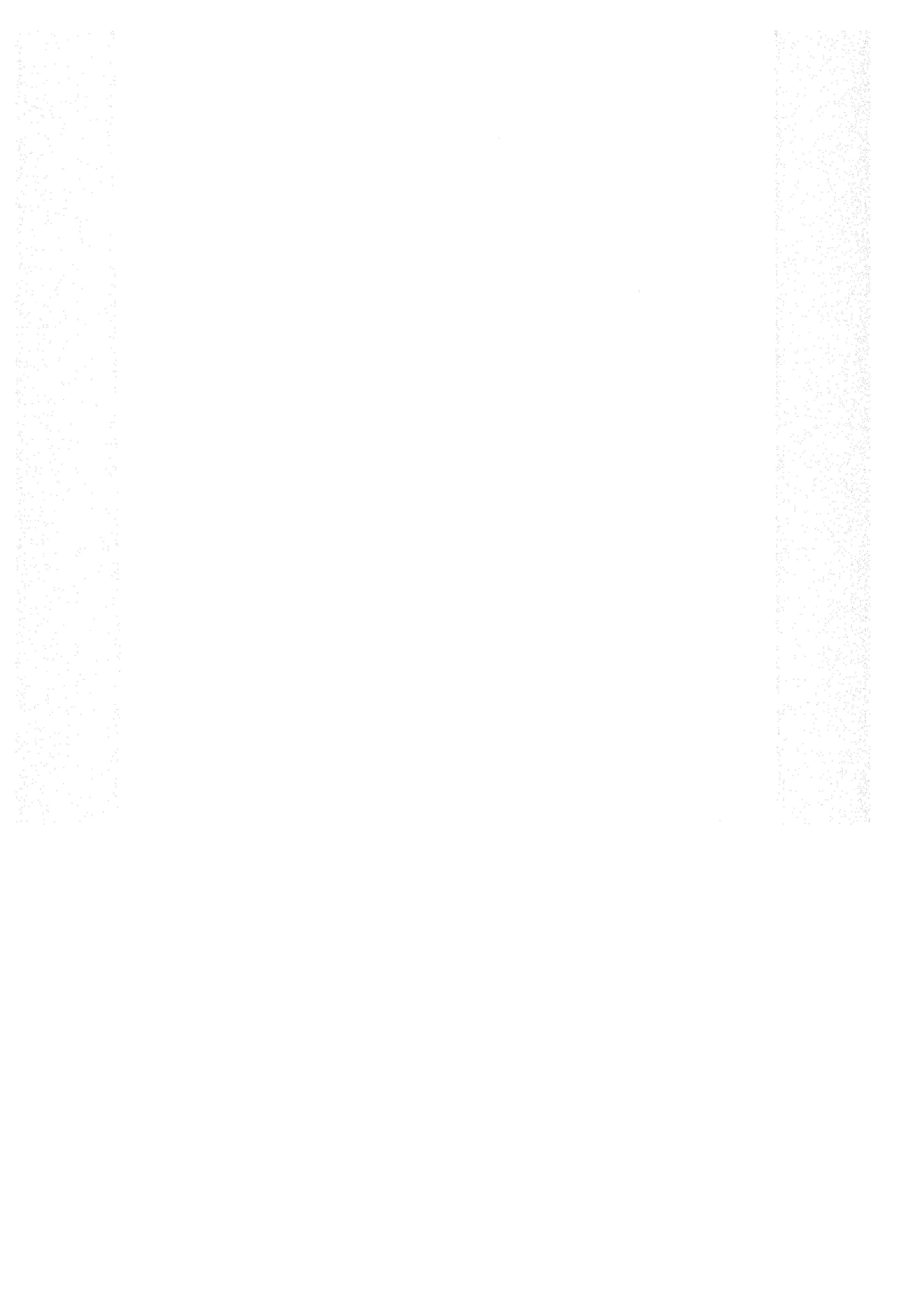
أفكار جهنمية لا تجول إلا فى رؤوس الشياطين . . هذا النوع من المخلوقات ليسوا بشرا . إذ يرون أن الحق هو القوة . وأنهم ـ لذكائهم ـ مرشحين لإعادة وتخطيط جغرافية العالم، ولهم الحق المطلق فى حكم المخلوقات الأخرى .

******

(٧) هرتزل .



النسوة اللآتى حكمن مصر



النسوة اللآتى حكمن مصر

كفلت القوانين المصرية ـ قديما ـ للمرأة حق حرية الاختيار، والبيع، والشراء، وهيأت لها الأنظمة الفرعونية أوضاعا ترجح كفتها على أوضاع الرجال، وكفل لها عقد الزواج الحصول على المهر المتفق عليه، فى الوقت الذى تشاء، وأجازت القوانين للزوجة حقوقا تقدم على حقوق بيت المال.

لقد أثارت هذه المكاسب ـ التى تعتبرها النساء (حقوقا) ـ حفيظة الرجال وسخطهم، للدرجة التى أوصلتهم إلى تشريح أعضائها فسيولوجيا، وبيولوجيا، وبشكل فتح باب التنديد بوضع النساء الأخلاقى، وقد تكون تلك المعالجات مغاليا فيها، ولعل بعضهم يرون فيها شبه ظل من الحقيقة حين يتحدثون عن خبث النساء، وأساليب الخداع الذى تميزن به.

من ذلك ما ذاع ذكره عبر المرويات والحكايات الشفاهية، والقصص المدونة، من بين هذه القصص العديدة ما روى عن « سيزو ستريس » :

« لقد فقد نجل سيزو ستريس بصره، وأنبأه الوحى بأنه لن يشف من مرضه إلا إذا عرك عينيه برضاب إمرأة لم تخدع زوجها قط.

تجشم سيزو ستريس عناء كبيرا فى الظفر بمصرية يتوافر فيها هذا الشرط ووجد أن إمرأته نفسها لا تحقق له هذا الرجاء فلما أعيته التجربة جمع النساء اللآتى جرب فضيلتهن ثم أعمل فيهن النار ».

على هذا الدرب كتب حكيم فرعونى على ورقة بردى منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة عن المرأة المصرية، ويبدو أنه كان فاشلا فى زواجه :

« إنها رزمة من جميع الخبائث وكيس مملوءة بجميع أنواع اللؤم ».

باتت كل لفتة، أو همسة، أو خطوة منها تحت عيون الرصد والمراقبة حتى إذا ثبت أن إمرأة تقترف الزنا كانت تجدع أنفها، ويضرب الزانى ألف ضربة بالعصا، وظل هذا القانون معمولاً به إلى أن وصل أحد الحكماء لحدود التبت فاكتشف أن سكان هانيبال قد بدأوا يتخلون عن العمل بهذه العقوبة، ولما أبدى الحكيم دهشته. قال له أحد الأهالى: إنه لن يمكن قطع أنوف جميع النساء.

ومهما قالوا فى النساء، بما لهن، وما عليهن فإن ذاكرة الرجال لا تزال تُورِّث ذكرى خروج آدم عليه السلام من الجنة - بالتحالف مع إبليس - على يدى حواء. فى أول مؤامرة عنكبوتية. لاتزال البشرية تعانى بسببها شتى صنوف العذاب والأوجاع حتى هذه اللحظة الراهنة.

وعلى الرغم من المآسى ظل العقلاء من الرجال يعتقدون أن من الأفضل - تجميلاً لحياتهم - التكيف مع مختلف الأوضاع، بحقن آلامهم بمداد عبارات فحواها أن النساء هن - قبل أى اعتبار آخر - أمهاتنا، وزوجاتنا، وبناتنا.. فهل يمكن لأى إبن أن يطرد أمه من حياته؟!

من أرحام هؤلاء جاء الخبيث، وجاء الطيب، ومن خصوبتهن المباركة جاءت «إيزيس»، و«ماعت»، و«جب» .. ربات مقدسات، وكانت الطبيعة هى الإلهة المعبودة بما فى ذلك الأرض «جب»، وما كان يظهر على سطحها من نباتات وحيوانات كلها شاركت فى القيام بأدوار الإله.

وأصبح الرجال منذ ما قبل عام ٣٠٠٠ ق.م يقدسون استنبات الأرض من خلال طقوس تؤدى فى إيمان حتى تلد نباتات طيبة، ومع ارتفاع معدلات النمو الإقتصادى وزيادة المحاصيل الزراعية. جلب ذلك معه رزمة

من التحولات فى العادات والمفاهيم الريفية.

من ذلك النظرة إلى المرأة التى صارت فى وضع احتفاء وتقدير، وإذا كانت الأرض تخرج فى كل فصل من فصول الطبيعة ميلاداً جديدا من الزروعات التى لا غنى للبشرية عنها فإن أحشاء النسوة تخرج للعالم ربات الفضيلة، والرحمة، والعدل حتى أدرك العالم أنه لا يمكن الإستغناء عن عدلهن ورحمتهن، ثم حلت مرحلة الإستقواء وتعمق لدى النساء شعور الزهو والخُيلاء وظهر مدى شغفهن بالهيمنة وحب السيطرة.

وفى ذلك تقول مجموعة التصورات الحديثة والتى يمكن أن تسمى باختصار بالنظرية الجنسوية: إن قرونا من هيمنة الذكور عمَّقت مجرى العالم وتحولاته، ولاحظ آخرون أن ارتباط كل شيء بالذكورة قديم جداً قبل حلول مرحلة الإنسجام مع القطبية المتزايدة بين الذكورة والأنوثة، وقد استخدمت البحوث فى مجال الأنثروبولوجيا الفيزيائية والبحوث فى الحيوانات الرئيسية (الحيوانيات أو الرئيسات هى رتبة تشمل أرقى أنواع الثدييات أو الحيوانات اللبونة وتضمن أنواع القردة المختلفة ويقع فى قمتها الإنسان).

إلى جانب ذلك استخدمت علوم الغدد والأعراف والبيولوجيا الإجتماعية والوراثة لتسليط الضوء على دور السيادة للذكور التى شاع أنها كانت الطريقة الطبيعية غير القابلة للتغيير إلى أن أتيح للنساء القول بأنهن أجبرن تقليديا على آداء أدواركن يقمن بها مرغمات أو على مضض. فى حين كن يرين فى أنفسهن القدرة على التفكير فى نضج، وعلى العمل فى حذق، بعيداً عن طهى الأطعمة وإعداد المائدة، وغسل الأوانى وثياب العائلة، وانجاب الأولاد، وقد تجاهلن ـ تحت زخم مشاعر إثبات الذات ـ ما

يمكن أن يحدثه التخلى عن دور « ربة المنزل » من عزلة مجسدة للنسل السلالى، وفى ذلك :

« يتحدث علماء الانثروبولوجيا المحدثون عن النظام « الأمومى النسبى » والنظام « الأمومى المركز » فالجماعة الأمومية النسب هى جماعة يتقرر فيها النسب (والميراث) عن طريق العلاقة بالأم وليس بالأب كما هو الحال فى مجتمعنا. أما الجماعة الأمومية المركز فهى الجماعة التى ينتقل فيها الزوج ليعيش مع أهل زوجته بدل أن تنتقل الزوجة لتعيش مع أهل زوجها أو فى داره (كما هو الحال فى مجتمعنا) ويذهب بعض علماء الإنسان إلى أن النظام الأمومى (ويعنون به الانتساب للأم أو الحلول فى دار أهلها) هو الوضع الأصلى للإنسانية [١] ».

لكن جلد الإنسانية، إذا صح التعبير تغير مرة ومرات إلى درجة أبدى فيها فريق من علماء الأجناس الميل إلى التحيز وتفضيل جنس على آخر، وتبع ذلك ظهور العديد من الكتابات التى أشارت إلى نظام أمومى قديم. منها كتاب : « حق الأم » لـ « ج. ج باخوفن »، وكتاب : « المجتمع القديم » للويس هنرى مورجان، وقد تناول الموضوع ذاته كارل ماركس وفردريك إنجلز فى كتاب : « أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » الصادر عام ١٨٨٤م، وكتاب : « روبرت بريفو » (الأمهات) فى عام ١٩٢٧.

ومع ابتكار أدوات الزراعة وظهور أنواع جديدة من المحاصيل أوجدت النساء لهن أدوارا فى أيام الحصاد وجنى الفاكهة حتى ترسخت شخصيتهن

---

(١) كافين رايلى (الغرب والعلم) ترجمة د. عبد الوهاب محمد المسيرى و د. هدى عبد السميع حجازى، مراجعة د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة - الكويت يونيو ١٩٨٥ ص ٣٨.

فى المجتمع وأصبح ثمنهن باهظا بحيث بات الزوج يمكنه أن يستدين بضمان زوجته، ولا يستطيع أحد أن يوقع عليه عقوبة الحبس فى حالة عجزه عن السداد، ويمكن له أن يقترض من أكثر من جهة بضمان وجود زوجته على قيد الحياة:

« ولم يكن القانون ليقتضيه أن يسدد ديونه طالما كانت زوجته ضمانا لهذه الديون لمدة حددت بثلاث سنوات فى بداية الأمر، ثم امتدت لأجل غير مسمى، وقد أصبح نظام الاستدانة بضمانة الزوجة نظاما مربحا للغاية فى تجارة الرقيق، وكانت الحرائر يواجهن الموت عقابا على خيانتهن لبعولتهن، بينما كان فى وسع الأزواج ممارسة الزنا دون التعرض لأى عقاب [٢] ».

واعتبرت مرحلة ما بعد الزراعة بداية انبثاق عصر المعرفة حيث ظهرت الكتابة المصرية على وجه التحديد بعد عام ٢٠٠٠ ق.م، وكان لها بالغ الأثر فى تحويل الدوال إلى لغة معرَّفة تصويرية، وأخذت بلاد الرافدين منها حتى صارت الكتابة المصرية والمسمارية المعيار الذى تروج له التجارة، وكانت كل مدينة يدخلها أحد التجار يضع فيها بصمة من لغة قومه، حتى أصبحت النموذج الذى يحتذى فى بلاد الرافدين، وقد نسخ الحيثيون وسكان كريت فى عصر « مينوس » الأسلوب التصويرى بحيث كان لنقوشهم نفس التأثير الذى تحدثه نقوش المصريين.

إمتلك المصرين ذخيرة من طاقة التعبير المشخص أو « الحجرى » عن الخلود خلال عصر بناء الأهرامات (٧٠٠ ق.م – ٢٥٠٠ ق.م)، ويجدر الإشارة إلى

---

(٢) المصدر السابق، ص ، ٦٢

أنه مع تداول اللغة ظهرت أعمال السحر على أيدى الكهنة.

قبيل ذلك الوقت شاعت عبادة» (إسوريس ١٦٠٠ ق.م – ١٢٠٠ ق.م)، وأتيح للكهنة فرصة الضلوع فى مؤامرة إستهدفت تفريغ المملكة من مضامينها العادلة ببيع مساحات من أرض الجنة بالأشبار والأمتار للقادرين على دفع مبلغ من المال يضمن لهم المثول أمام «ماعت» إلهة العدالة بقلب غير مثقل بالذنوب، وهو ذات الأسلوب الابتزازى الذى اتبعته بعض الطوائف المسحيية فى العصر الوسيط مع رعاياها:

«وهى من المفاسد التى سعى إخناتون (حوالى ١٣٧٥ ق.م – ١٣٥٨ ق.م) إلى إصلاحها بدعوته لعبادة إله واحد أتون الذى يطلب من عباده الخير الأخلاقى، وربما كان مذهب إخناتون التوحيدى مصدرا للفكرة اليهودية المسيحية عن رب عظيم واحد، لأن عهده هو عهد الوجود العبرى فى مصر، فإذا كان الأمر كذلك فقد انتقل التوحيد مع خروج اليهود، ولكن توت عنخ آمون الشاب سمح للكهنة بنبذ العقيدة الثورية وعاصمتها فى تل العمارنة (٣)».

فى ظل ذلك الزخم الدينى والفكرى الذى عاشته مصر. ارتفع فيها الجدل حول حرية المرأة للدرجة التى بات فيها المجتمع مقتنعا بدورها السياسى والقيادى، ويذكرنا هذا التيار الذى تصاعد فى مصر القديمة حتى وصل بالمرأة إلى سدة الحكم، بما يدور – حديثا – فى رؤوس حفنة من رجال الفكر والإعلام، ومن تولوا الكتابة دفاعا عن حقوق المرأة «المصرية المظلومة»،

(٣) مصدر سابق، ص ٩٠.

والمحكوم عليها بالعيش فى قيود المآسى المضروبة حول حياتها من قِبَل الرجل، وكأن المجتمع إنقسم إلى جبهتين، جبهة تناصر المرأة، وجبهة تزعم أن المرأة أخذت أكثر مما تستحق، وأنها تدعى دواما بأن الرجل يظلمها، ولا تشبع - ووراءها من يناصرونها - بما تدعيه « حقوقها »، وهى حقوق تنفخ فيها أبواق خارجية، مرتبطة بأقلام محلية، تعمل وفق مخطط خارجي لمصلحة علاقات تبعية، وغير تفاعلية.

وياليتنا نستطيع أن نجفف دموع القلوب الملتاعة، والمذعورة على مستقبل المرأة فنذكِّر الجميع بأن ملكات كثيرات حكمن مصر قبل أن تظهر إلى الوجود هذه الدول التى تطنطن بالديموقراطية، وحرية هى الإسفاف بعينه والحط من قدر المرأة، ودائما لا يذكرون الرجل بخير، ويشاع حول الرجل وسلطته استعماله أشكالا قمعية للأنثى وهى سلطة تتجلى بوضوح فى النظام الأبوى، الأمر الذى أشارت إليه الكاتبة « كيت ملليت » فى كتابها « السياسات الجنسية » :

« حيث استخدمت مصطلح النظام الأبوى لوصف سبب قمع النساء قاصدة بذلك إلى أن النظام الأبوى يخضع الأنثى بوصفها أدنى من الذكر على نحو تتم معه ممارسة القوة بكيفية مباشرة أو غير مباشرة للحجر على النساء فى الحياة المنزلية والأسرية وإجبارهن على الطاعة (٤) »

من يصدق هذا؟

هناك الكثيرون ممن لا يعرفون أن المصريين كانواأول من أعطوا المرأة

---

(٤) أمل جمال (صوتان من الشعر النسائى) كتاب مؤتمر شرق الدلتا الأدبى السابع - المنصورة ٢١ / ٢٣ مايو ٢٠٠٨ ص ٦٤.

حقوقا لم تنلها حتى الآن واحدة من نساء الدول المتقدمة حديثا؟.

لقد جلست على كرسى العرش وحكمت مصر الملكة « ميريت نيبت » فى نهاية عصر الأسرة الأولى، وأثناء حكمها سادت الإضطرابات البلاد، وقد نجحت فى القضاء عليها. ووصلت الملكة « تى » إلى كرسى الحكم، ولم يكن يجرى فى جسدها دماء الملوك والنبلاء، بل كانت أول سيدة من طبقة الشعب تحكم مصر.

كما حكمت مصر الملكة « خنت كاوس » فى عصر الأسرة الخامسة حوالى سنة ٢٤٠٠ ق.م، وتولى أبناؤها الثلاثة ـ من بعدها ـ حكم مصر: « نيت إقرى » أو « نيتوكريس » من ملكات الأسرة السادسة، وذلك طوال اثنتى عشرة سنة، و « سبك نفرو » من الدولة الوسطى، و « تاوسرت » من الأسرة التاسعة عشرة، فى زمن الدولة الحديثة.

ومن بين الشهيرات اللآتى حكمن مصر الملكة « حتشبسوت »، والملكة « نفرتيتى » زوجة « إخناتون » صاحب الديانة الشهيرة.

وتولت حكم البلاد: « إياح حتب » زوجة الملك « سقنن رع » بعد استشهاده فى معارك المقاومة ضد الهكسوس، وقد ربت إبنيها « كامس » و « أحمس » على مبادىء الوطنية، وبالفعل صار أحمس بطلا قوميا بعد أن حرر البلاد من الهكسوس.

وفى العصر الإسلامى أدارت « شجرة الدر » حكم البلاد، وجاءت « ست الملك » زوجة الحاكم بأمر الله لتدير دفة الحكم، وفى نهاية العصر الفرعونى وبداية العصر اليونانى / الرومانى ظهرت الملكة « كيلوباترا » و « ندرورة » و « دُلوكة ».

ولندرورة قصص فى الحياة كثيرة. منها أنه كان فى مصر رجل يدعى «مرقورة»، وكان كاهنا حكيما، وأشيع عنه أنه أول من ذلل السباع وركبها وملك من بعده إبنه «بيلاطس». :

«وكان بيلاطس صبيا فدبرت أمه أمر الملك، وكانت حازمة فاجرت الأمور على أحسن ما يكون وأظهرت العدل، ووضعت عن الناس الخراج فأحبوها، ولما كبر إبنها أحب الصيد فعملت له أمه أعمالا عجيبة، وأقام ملكا ثلاث عشر سنة، وأصابه الجدرى فمات وانتقل الملك إلى أعمامه فملك بعده أتريب.

ويقال أن النيل وقف فى أيام أتريب ١٤٠ عاما حتى أكلت البهائم بأرض مصر، ولم يبق بها بهيمة، ومات عامة أهل مصر جوعا، ثم اغيثوا بعد ذلك وكثر الرخاء ودام مائتى سنة، ولما مات أتريب اتهموا أخاه بقتله، وحاربه أهل مصر تسع سنين وقتلوه فملكت من بعده ابنته «ندرورة»، وهى كاهنة ساحرة فساست الملك أحسن سياسة، ودبرت الملك أجود تدبير (٥)».

كانت الحياة المصرية تعج بالجيشان، وكان للنساء نصيب الأسد فى تفعيل حركة المجتمع، وفيما يتعلق بمجموعة النساء اللآتى حكمن مصر فإن ملابسات تلك السيطرة تكاد تتشابه فى العديد من الحالات: «كأن يكون الملك ضعيفا، أو مريضا، أو يكون الوريث على العرش قاصرا، أو شابا لاهيا منساقا وراء أمه، أو أن يكون النخبة المحيطة بالحكم أضعف من أن تواجه الاستيلاء غير الشرعى على مقاليد الحكم.

الأمور فى الدولة، وفى كل الحالات تقريبا أن تكون المرأة القريبة من

(٥) المقريزى.

الملك أو السلطة بأن تكون متعطشة للسلطة والسيطرة، وليس عيبا بالطبع أن تتولى إمرأة شئوون دولة ما، فالعالم مليىء بنماذج ناجحة جاءت بشكل طبيعى، ولكن العيب بالتأكيد هو أن تكون تلك السيطرة قسرية غير شرعية، فالنتيجة المتوقعة فى الغالب نهاية غير سعيدة، واضطراب فى شئوون الملك والرعية (٦) » .

وتجارب المصريون مع من حكمهن من النساء لم تكن بأحسن حال حين تمكن من حكمهم رجال غلاظ شداد، وكانت الملكة « نونية »، وهى كاهنة ساحرة تدير حكم البلاد وهى جالسة على سرير من النار فإذا تحاكم أحد إليها وكان صادقا شق طريقه إلى النار ومر منها بسلام. وإن كان كاذبا سحبته النار والتهمته.

يقول ابن عبد الحكم :

« لما أغرق الله فرعون مصر بقيت مصر بعد غرقه ليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق إلا العبيد والأجراء والنساء، فأعظم أشراف مصر كن فى تلك الأوقات من النساء، وقد أجمعن على تولية واحدة من بينهن فكانت « دُلوكة بنت فاران »، وكانت راجحة العقل والتفكير فبنت جدارا حصنت به مصر من الأعداء، وبلغ طوله من حد النرنج إلى إفريقيا إلى الواحات إلى بلاد النوبة (٧) » .

وفى العصر الإسلامى صعدت الملكة « شجرة الدر » زوجة الملك « الصالح نجم الدين أيوب »، وكانت فى نشأتها الأولى جارية أهداها الخليفة العباسى

(٦) أيمن أشرف (مصر حين تحكمها إمرأة) مقال - جريدة الدستور ٥ ديسمبر ٢٠٠٧.
(٧) المقريزى.

« المستعصم بالله » للملك نجم الدين أيوب، وظل علماء المسلمون يدعون لها من على المنابر: « الصالحة ملكة المسلمين.. عصمة الدنيا والدين.. ذات الحجاب الجميل والستر الجليل ».

كل هذه الأحوال مرت بمصر والمصريين حتى طفت على السطح أخطار هذه الجنسوية.. كل طرف اتهم غيره بما فيه وما ليس فيه.. هنالك من يتهموهن بالإستبداد وحب السيطرة.. وهناك من يتهمونهن بالمكر والخداع، ومن بين هؤلاء وهؤلاء تطل علينا ملاحظة تقتضى منا القول بأن الجميع قد ينجحون على فراش واحد فى إذابة ما اشتجر بينهم من اختلافات، وأعتقد أن للعلم هنا دور حيث يضع الرجل الحديث والمرأة الحديثة جنبا إلى جنب معززين مدعومين بالمعايير الأسرية الإجتماعية.

حينئذ. يمكن التغاضى عن ما اتفق عليه الإصلاحيون القدماء خاصة فى ما يتعلق بدونية المرأة، وأنها مخلوق أنانى لا تستطيع التضحية كما يقدم على ذلك الرجال فكم من الرجال الذين ضحوا من أجل إشباع رغباتها؟.

إن التاريخ والقصص الشعبى يزخر بأعمال البطولات، وآلاف الضحايا الذين بذلوا دماءهم على مذبح المرأة من أجل إشباعها.

وإذا اكتفينا بالحديث عنها فى مصر القديمة لوجدنا الرؤية اليهودية للمرأة تجلت لنا فى تلك النظرة المختلفة تماما من خلال تبنيها للأشكال **المتباينة من العلاقات التى كانت سائدة آنذاك:**

« ورغم أن هناك رؤى إيجابية فى جوانب عدة منها، وتجلت فى القوانين

التى شرعها حمورابى والتى سادت فى المجتمع البابلى القديم (*) إلا أن الرؤية اليهودية مثلا، لا يمكن فصلها عن الخلفية الاجتماعية للجماعات التى طرحتها.

فالتوراة مثلاً اعتبرت المرأة بأنها « أمر من الموت، وأن الصالح التقى هو الذى ينجو منها »، وحسب الرؤى اليهودية، فالمرأة كانت تسبى وتباع، وتورث وللآباء أن يؤجروا أولادهم لموعد، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق وأن يقتلوهن، كما أن الفتاة كانت مملوكة لأبيها قبل زوجها، تشترى منه عند نكاحها، لأن المهر كان يُدفع لأبيها، أو لأخيها على أنه ثمن شراء، ثم تصير مملوكة لزوجها، وهو سيدها المطلق، لأن كلمة (بعل) معناها سيد. هذا ولم يكن لنذر المرأة، أو قسمها قيمة ما لم يؤيده زوجها، كما أنه فى حالة وفاة زوجها، فإن وارثه هو الذى يرثها، لأنها جزء من التركة، وله أن يبيعها، أو يفصلها، كما أن من العادات اليهودية القديمة أن ينسبوا أبناءهم إلى أمهاتهم، وهذا كان واضحا من خلال التعاويذ السحرية اليهودية، والتى مازالت تقرن اسم الرجل باسم أمه [٨] ».

أما المرأة فى المسيحية فقد كان وضعها أفضل نسبيا عما سبقها من رؤى خاصة فى بواكير الأيام من نشأة المسيحية وانتشارها:

(*) جاء فى تشريعات حمورابى ما يلى المادة ١٢١ «إذا اتخذ رجل زوجة دون أن يسجل عقدها فلا تعتبر هذه الزوجة زوجة له»، المادة ١٣٠ «إذا كبل رجل امرأة متزوجة (أوقف صراخها) التى لم تعرف ذكرا (رجلا) وتعيش فى بيت أبيها، واضطجع بعد ذلك فى حجرها (فإذا) قُبض عليه يقتل ذلك الرجل، ويخلى سبيل تلك المرأة» المادة ١٣٥ «إذا انصرف رجل «عن بيته» ولم يكن فى بيته الغذاء (الضرورى) ودخلت زوجته قبل عودته بيت رجل ثان، وانجبت منه أولادا، ثم رجع زوجها إلى مدينته، فعليها أن تعود لزوجها الأول، أما الأولاد فيتبع كل منهم أباه».

(٨) فرحان صالح (جدلية العلاقة بين الفكر العربى والتراث) رؤية نقدية. دار الحداثة للطباعة والنشر - لبنان - الطبعة الأولى ١٩٨٣ ص ٤١، ٤٢، ٤٣.

« فالتعاليم المسيحية، رفعت من شأن المرأة وقد جاء فى التعاليم المسيحية « لا يهودى.. ولا إغريقى، ولا عبد، ولا حر، ولا ذكر ولا انثى، كلكم واحد فى يسوع المسيح ».

كما أن تعاليم السيد المسيح كانت واضحة: « لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره ولا شىء مما لقريبك ». وبينما كانت الرؤية المسيحية الأولى إيجابية فى تعاملها مع قضية المرأة، إلا أن المرحلة الثانية، أدت إلى متغيرات مهمة إذ تحولت المسيحية من دين للفقراء والمضطهدين إلى دين دولة، مما استتبع اجتهادات جديدة ومتباينة خاصة فيما يتعلق بعلاقة المجتمع من المرأة:

« هذا وقد فسر بعض رجال الدين قصة آدم وحواء كما وردت فى الانجيل، بأن المرأة حليفة الشيطان، من هنا، فقد نظر إليها باحتقار، واعتبرت مصدرا للرجس، كما أن مجمع ماكون، الذى عقد فى القرن الخامس الميلادى بحث فى أهلية المرأة، وهل هى نفس كالرجل؟.. لم يكن جوابه على هذا السؤال بالإيجاب إلا فى ما يخص مريم العذراء « والدة الله » ثم إن أباء الكنيسة وقديسها كثيرا ما أهانوا المرأة لكونها تجربة للرجل ومجلبة للخطيئة، ناهيك بأنه ليس للزواج فى نظر الكنيسة، ذلك الشأن الذى تستحقه، فالعزوبية عندهم أفضل من الأمومة (٩) ».

---

(٩) لنين وآخرون (الاشتراكية والمرأة) ترجمة جورج طرابيشى، دار الآداب - بيروت، ص ١٩، كما يمكن مراجعة كتاب «المرأة فى الشعر الجاهلى» للدكتور أحمد الحوفى، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٦٣ ص ٦٥، ٥٢٧ - وكذلك كتاب «خلق المرأة» لهنرى ماريوت ترجمة اميل زيدان مطبعة الهلال ١٩١٨.

وبالنظر إلى المرأة فى الإسلام فنراها لم تكن رقاً كما كان حالها فى اليهودية، ولم تكن شيطانة كما حدث فى المسيحية فقد كانت علاقة المجتمع بها نموذجية، وإن كان ذلك لا يجعلنا نغض الطرف عن أصوات الذين يرصدون الموقف العربى الإسلامى من المرأة، ويعتبرون إياه تراثا سلبيا.. فهل كان الأمر كذلك؟

منح الإسلام للمرأة الحقوق والواجبات واستقلال الذمة المالية، ومنحها الإسلام الحقوق السياسية وشغل الوظائف العامة.

غير أن النظرة المتخلفة التى كانت تتبناها بعض الأنظمة العربية جعلت من لا يدركون حقيقة الإسلام - بخاصة تجاه المرأة - يعتقدون أنها كسلعة تباع وتشترى فذلك كذب صراخ، ولا دخل للإسلام فى هذا، لأن الإسلام يرى أن المرأة كعضو فاعل فى المجتمع، لها ما للرجل من الحقوق فى كل مجالات الحياة.

ويكفى للتدليل على مكانتها الإجتماعية فى الإسلام أن الله - سبحانه وتعالى - إختصها بسورة فى القرآن الكريم سميت بسورة «النساء».

وعن عبد الله بن عمر وبن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الدُّنيا مَتاعٌ، وخَيرُ مَتَاعها المرأة الصالحة» فقوله ﷺ : «الدنيا متاع» **يعنى شىء يتمتع به وخير متاعها المرأة الصالحة. إذا وفق الإنسان لإمرأة صالحة فى دينها وعقلها فهذا خير متاع الدنيا لأنها تحفظه فى سره وماله وولده، وإذا كانت صالحة فى العقل أيضاً فإنها تدبر التدبير الحسن فى بيته وفى تربية أولادها، وإن نظر إليها سرته، وإن غاب عنها حفظته، وإن وكل**

اليها أمره لم تخنه، فهذه المرأة خير متاع الدنيا (١٠)».

وقال النبى ﷺ: «لا تضربوا إماء الله» يريد بذلك النساء، فيقال أمة الله كما يقال عبد الله، ويقال، إماء الله كما يقال عباد الله، ومن ذلك الحديث الصحيح: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله».

وبعد أن نهى النبى ﷺ عن ضربهن، اجترأن على أزواجهن، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا رسول الله إن النساء ذئرن على أزواجهن، يعنى اجترأن وتعالين على الرجال فلما سمع النبى ﷺ ما قاله عمر أجاز ضربهن فأفرط الرجال من ذلك فطافت النساء بآل النبى ﷺ، أى بيوته وجعلن يشكين أزواجهن فقال النبى ﷺ يخاطب الناس يخبرهم بأن هؤلاء الذين يضربون أزواجهن ليسوا بخيارهم، أى ليسوا بخيار الرجال، وهذا كقوله: «خيركم خيركم لأهله» فدل هذا على أن الإنسان لا يفرط ولا يفرِّط فى ضرب أهله.

إن أية أبحاث لا تضع الإسلام كسياسة للعرب فى إطاره التاريخى، خاصة عندما كان محاطا بعادات وثنية، وتقاليد فارسية وبيزنطية، وجميعها لأمم ذات حضارة فإن مثل هذه الأبحاث تؤدى عادة إلى ما يدين، ويستنكر.

بينما واقع الحال يشهد بأن الإسلام قد كفل للمرأة حق التفكير وحرية التعبير، وهذه إيجابية يسرت للمرأة الحصول على حقوق لها كانت فى قبضة الرجال بحكم الأعراف وتقاليد المجمعات آنذاك.

لقد استطاعت النساء تحت ظلال الإسلام أن تصاحب الرجال فى

---

(١٠) رواه مسلم.

ساحات الحروب ليمارسن حق التواجد بالمساهمة فى تطبيب الجرحى، وحمل المرضى، وتقديم الأطعمة، وسقاية الظمأى.

ولا حرج إذ كن طالبن بالذهاب إلى المسجد فالمسجد كان مقرا لعلوم الشريعة والحياة الاجتماعية حيث قلن لرسول الله ﷺ: «إن بعولتنا لمتعننا من المساجد»، فقال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» وهن اللآتى طالبن بالخروج فى نزهة الأعياد مع الرجال فقال النبى ﷺ: «دعوا العواتق وذوات الخدور يشهدن الأعياد». وحين جاءت امرأة إلى النبى ﷺ قائلة: «يا نبى الله للذكر مثل حظ الانثيين وشهادة إمرأتين برجل: أفنحن فى العمل هكذا؟.. إذا عملت المرأة حسنة كُتب لها نصف حسنة؟» فأتى رد القرآن بأن تقبل المرأة قوامة الرجل وتفضيله: ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ (١١)».

ولا تزال المرأة شغل العالم الشاغل، ولا أحد ينتصف للرجل، وحديثا اكتشف بعض البحاثة أن جنس الرجال لم يعد لهم اليد العليا فيما يتعلق بالثقة بالنفس داخل قاعات الإجتماعات أو فى غرف النوم على حد سواء.

من خلال بحث أعدته «شركة الأبحاث المستقلة الأمريكية» أكدت فى نتائجه أن الرجال أصبحوا يشعرون بأزمة ثقة بالنفس حيث اعترف نصف المشاركين بشعورهم بالقلق وتحديدا فى أوقات العمل خاصة أثناء تواجدهم قرب الزميلات فى العمل بصفة عامة، والنساء الناجحات بصفة خاصة؟

فهل صارت المرأة علة الرجل المصرى، وهل هو مصاب أيضا بحالة فقدان

---

(١١) النساء: ٣٢.

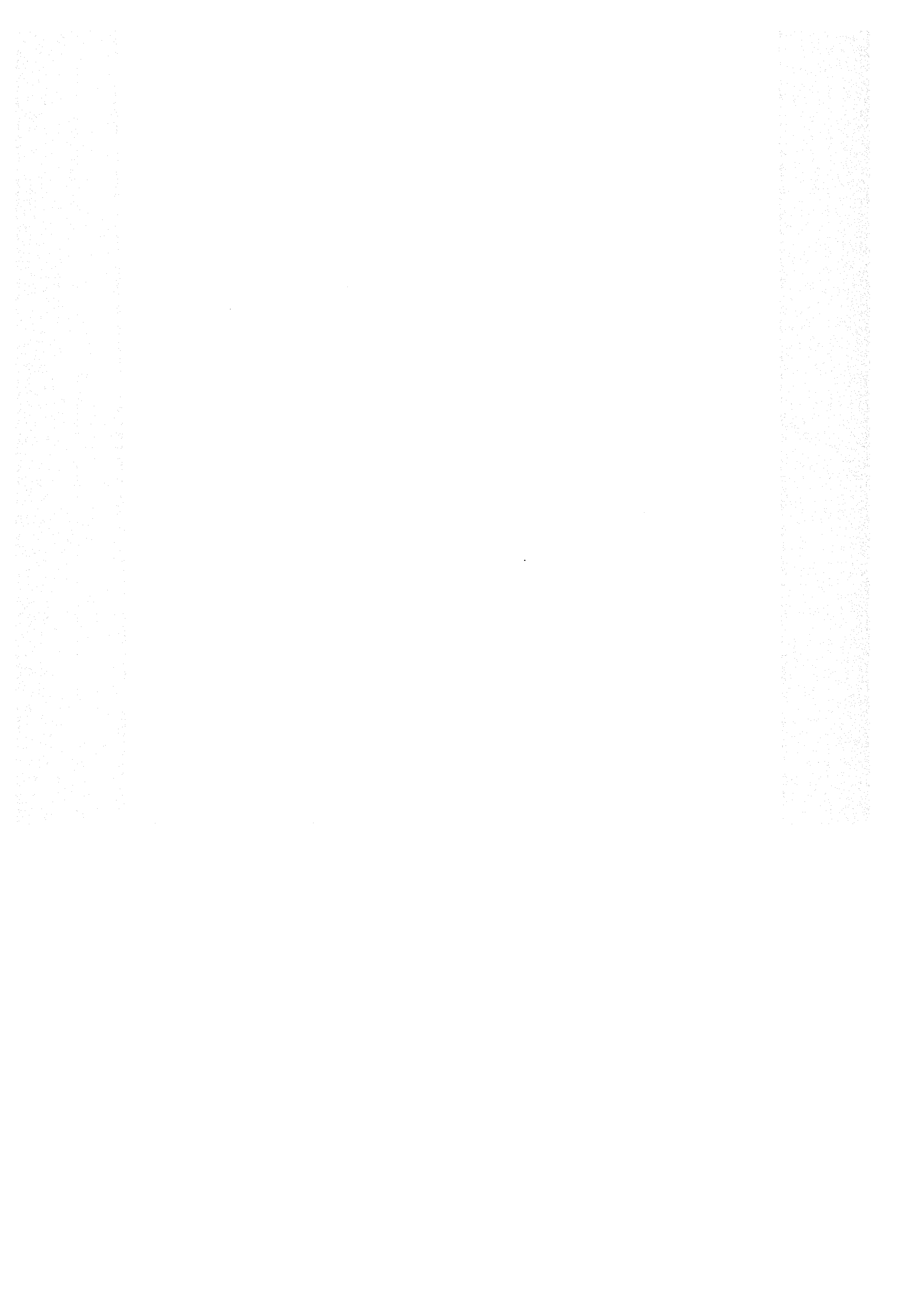
الثقة خاصة بعد صدور قرارات مؤتمر السكان فى بداية الألفية الثالثة الداعية لإطلاق حرية المرأة وتجريم الختان ونشر وتفعيل بنود القوانين التى تهدد كيان الرجل فى شتى المجالات؟.

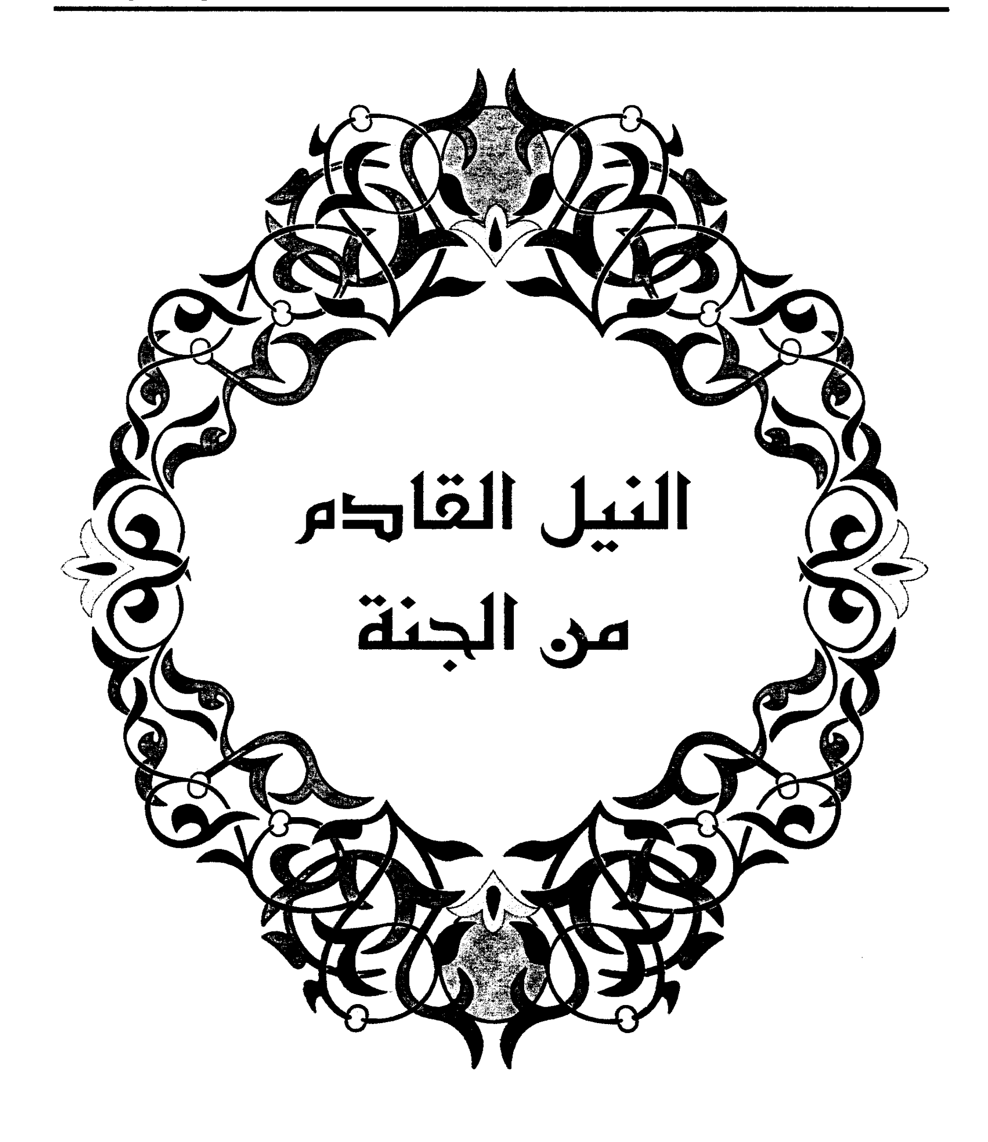
أحد التفاسير لظاهرة عدم الثقة بالنفس يعود فى أسبابه إلى ما نقل عن الغرب من مفاهيم الحرية فى العلاقة بين الرجل والمرأة وإباحة العلاقات بين البنات والأولاد والانفتاح الجنسى، وحرية ممارسته بدون قيود أو قيم كما كان سائدا فى شرقنا العربى والإسلامى.

فما يدعيه البعض بأسس التنشئة العصرية دفعت البنين والبنات إلى العبث واللهو فى أفنية المدارس دونما ضابط أو رقيب، ثم تأتى مرحلة تفجر الجسد بعنفوان المراهقة فتشتعل الدماء بمشاعر الرومانسية، وفى سن العشرين تحتدم الرغبة فى الزواج والإنجاب، وعقب تحقيق الأحلام بالزواج يصطدم الشاب بنوع من الوهن وفقدان الطاقة، من هنا تهتز الثقة بالنفس بسبب الإفراط فى المشاعر الجنسية التى أهدرها منذ طفولته!

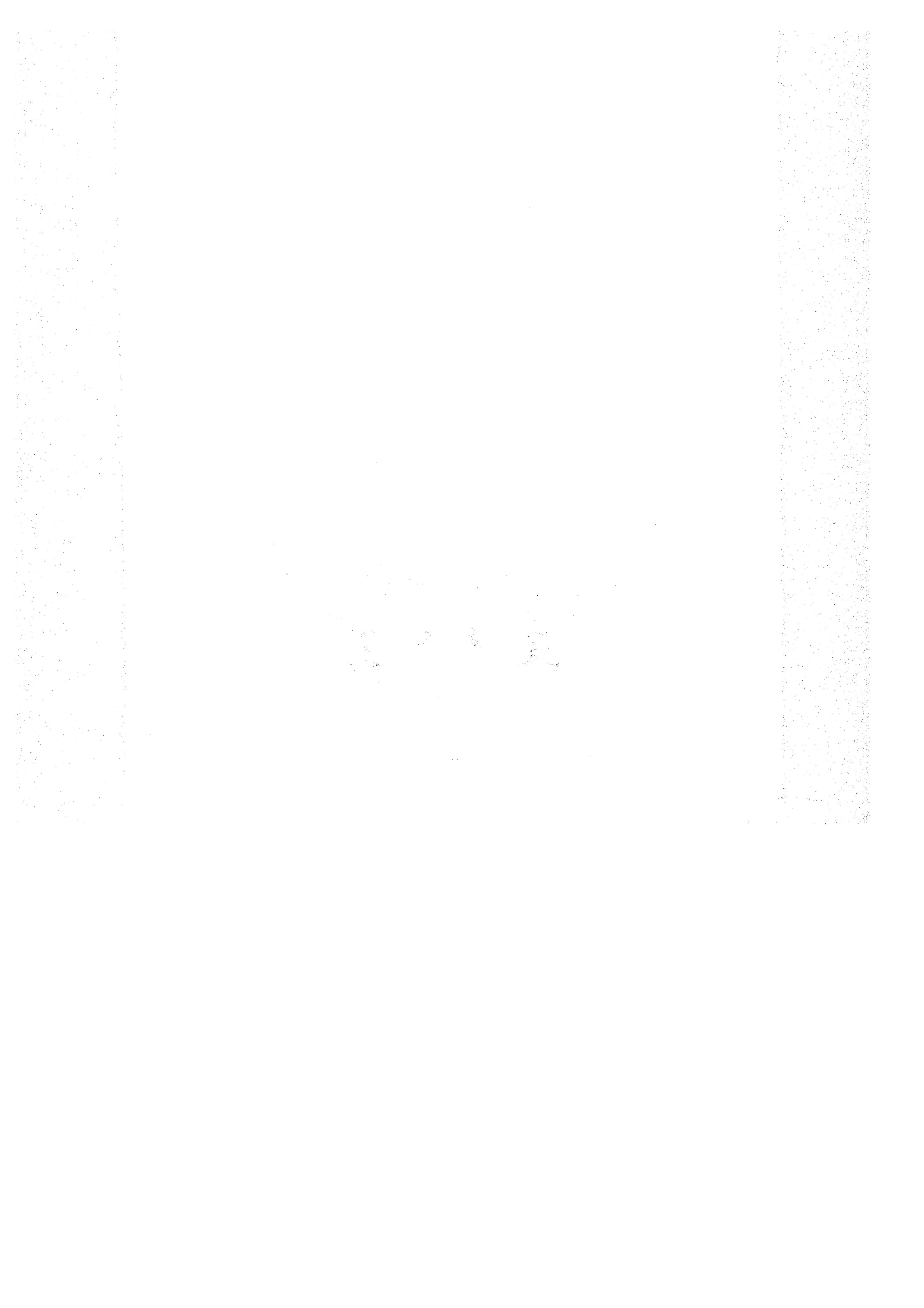
لذلك سيظل صوت المرأة يرتفع فى سخط وحدة، وهذا وضع اعتدنا عليه. لكن الغريب فى الأمر وما يبعث على الرثاء والأسى أننا فى كل جيل نجد من يشايعونها من «الرجال» على إعتبار أنها مظلومة فى سجن الرجال !!

*****





النيل القادم من الجنة



النيل القادم من الجنة

من أين يأتى النيل ؟

قالوا فى النيل حكايات وقصص أشبه ما تكون بالأساطير . . حكايات لا يصدقها بعض الناس، وقصص قد يقبلها العقل .

من ذلك ما دونه « هيرودتس » وذكر فيه أن النيل كان قديما يأتى من ليبيا عبر هضبة السلوم مرورا بالصحراء الغربية، وحديثا يعرف الجميع أنه يأتى عبر الأراضى السودانية، وعلى أية حال فإن كلا الدولتان، ليبيا والسودان لهما حدود مشتركة مع مصر؛ ولقد أثار بعنفوانه وخصوبته عقول المؤرخين والرحالة خاصة وأن المصريين قد آمنوا به كإله يهبط عليهم من السماء .

قال فيه أبو جعفر النحاس :

قرئى على أبى يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن يونس، عن جامع بن سوادة، قال : حدثنا سعيد بن سابق، حدثنا مسلمة بن على، عن مقاتل بن حيان، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل الله عز وجل إلى الأرض خمسة أنهار : سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجله والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر، أنزلها الله من عيون الجنة، فى أسفل درجة من درجاتها أعلى جناحى جبريل عليه السلام، فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض، وجعل فيها منافع للناس فى أصناف معايشهم، وذلك قوله جل ثناؤه : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [1]

(١) المؤمنون : ١٨ .

فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، أرسل الله جبريل عليه السلام رفع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (٢) فاذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا والدين (٣)».

ومهما قيل فى نهر النيل فلا تزال ضفتاه تنمو عليها النباتات بسواعد فلاحية، ومنه سعت الحكمة لتضخ فى العقل الإنسانى والوجدان الشعبى تراثا يثرى الحياة ويدعم أسس الحضارة، وعلى تلك الضفاف تشكلت العقائد، وتوحدت الآلهة فى الإله الواحد الخالق كل شىء.

وفيه كانوا يقولون:

سلام أيها النيل

لقد ظهرت بنفسك على هذه الأرض

وجريت بسلام لتمنح مصر الحياة..

أيها الإله المستتر الذى يجىء بالظلمات..

فى اليوم الذى يريد

يا ساقى الرياض التى خلقتها الشمس لحياة جميع الأنعام

إنك تروى الأرض، وإنك طريق السماء..

تنزل منها

أيها الخالق القمح والحامى الشعب

(٢) المؤمنون: ١٨

(٣) ضعيف جدا: ابن عدى فى الكامل (٦ / ٣١٥).

ويحكى أن « ملك نقرواش الجبار بن مصرايم » توجه إلى منبع النيل فحفره وأصلح مجراه، وكان يسيح فى الأرض، يتفرق من غير حاجز فهندسه وساق منه عدة أنهار إلى أماكن كثيرة لينتفع بها الناس، وعمل هناك تماثيل من نحاس عدتها خمسة وثمانون تمثالا جامعة للماء حتى لا يخرج ماء النيل عنها، وجعل لها منافذ مستديرة يخرج الماء من حلوق تلك التماثيل، وجعل لها قياسا معلوما بمقاطع أذرع معلومة فتخرج تلك الأنهار ثم تصب فى بطحتين فيخرج منهما المياه إلى بطيحة كبيرة جامعة للمياه، وجعل للتماثيل مقادير بين المياه ليكون فيها الصلاح لأرض مصر دون الفساد، وقدر تلك على ستة عشر ذراعا وكان الذراع يومئذ إثنين وثلاثين إصبعا، ثم جعل فضلات تلك المياه تخرج إلى مسارب عن يمين التماثيل وعن شمالها، ثم تصب فى الرمال وغياض لا ينتفع بها من خلف خط الاستواء، ولولا ذلك لأغرق ماء النيل ما كان يمر عليه من البلدان قاطبة وقال لولا أن ماء النيل يمر فى البحر المالح ويكتسب من ملحه لشرب من مائه ما هو أحلى من العسل وأبيض من اللبن » .

وقيل فى النيل :

ونيل مصر من الجنا ... ن وماؤه يحيى الغصـــون

لو بالعيون قايســوه ... قل ما ترى مثله العيـــون

قال الواقدى إن معاوية بن أبى سفيان قال يوما لكعب الأحبار هل تجد للنيل ذكرا فى كتاب الله تعالى يعنى فى التوراة والانجيل والزبور والفرقان قال والذى فرق البحر لموسى إنى لأجد فى التوراة أن الله يوحى إليه عند ابتدائه ويأمره أن يجرى حيثما شاء الله تعالى ثم يوحى بوحى له عند انتهائه، ويأمره أن

يرجع راشدا حيث شاء الله تعالى يعنى أن الله تعالى يوحى إليه عند زيادته ونقصانه.

وقال ابن زولاق فى تاريخه إن بعض الملوك أمر أقواما بالسير إلى حيث يجرى النيل فساروا حتى انتهوا إلى جبل عالٍ والماء ينزل من أعلاه وله دوى وهدير حتى لا يكاد أحد يسمع صوت من فى جانبه من أصحابه من دوى الماء، ثم أن أحد القوم تسبب فى الصعود إلى أعلى الجبل لينظر ما وراء ذلك فلما وصل إلى أعلاه ضحك وصفق بيديه ثم مضى فى الجبل ولم يعد ولم يعلم أصحابه ما شأنه، ثم أن رجلا آخر منهم صعد بعده ليرى ما وراء ذلك الجبل وما كان من أمر صاحبه ففعل مثل صاحبه وصفق ومضى فى الجبل ولم يعد ولم يعلم أصحابه به ما شأنه فطلع ثالث وقال لأصحابه أربطونى من وسطى بحبل فإذا أنا وصلت إلى ما وصل إليه أصحابى وفعلت كما فعلا فاجذبونى بالحبل فلا أبرح من مكانى ففعلوا ذلك فلما صار فى أعلى الجبل صفق وأراد أن يمضى فى الجبل فجذبوا الحبل إليهم ونزل عندهم فلما وصل خرس لسانه ومات لساعته.

وأراد رجل يدعى حامد بن عابد أن يصل إلى بداية النيل. ظل يمشى بحذائه ثلاثين سنة حتى صادفه رجل كان يصلى على أرض خضراء، وكان هو الخضر عليه السلام. سأله حامد فأشار الخضر إلى قبة بعيدة. اتجه اليها وكان يخرج من جوف تلك القبة باب نهر يجرى إلى جهة من الأرض وهى سيحان وجيحان والفرات والنيل فأراد حامد أن يمضى إلى ما وراء تلك القبة فأتاه ملك وقال له قف يا حامد مكانك فقد انتهى إليك علم النيل وما وراء ذلك إلا الجنة فقال حامد أريد أن أنظر إلى الجنة فقال له الملك: إنك لن تستطيع دخولها اليوم فجلس حامد على شاطىء النيل وشرب منه فإذا هو أحلى من

العسل وأبيض من اللبن وأبرد من الثلج.

وقال الكندى: إن النيل أشرف أنهار الأرض فإنه سقى عدة أقاليم من ديار مصر وماؤه أفضل المياه وبذلك يشهد جماعة من الحكماء منهم ابن سينا وابن نفيس وذكروا أن ماءه يهضم كل المياه الرديئة ويوقى المعدة لأنه يمر على أرض الذهب؛ وقال بعضهم: الشرب من مياه النيل ينسى الغريب الوطن وأعظم من هذا كله ما جاءت به أخبار الشريعة أن منبعه من الجنة من تحت سدرة المنتهى.

قال الشيخ زيد الدين بن الوردى:

ديار مصر هى الدنيا وساكنها — هم الأنام فقابلها بتفضيل

يا من يباهى ببغداد ودجلتها — مصر مقدمة والشرح للنيل

وكان لاهتمام العرب والرحالة بالنيل أثر فى لفت انتباه الكنيسة الأرثوذكسية المصرية فجعلت تهتم به وتلتفت إلى طقوسه إبان حكم الرومان، ثم عملت بعد ذلك على استقلال البلاد عن التقويم الرومانى، وأخذت فى إحياء وتطبيق التقويم الزراعى الذى كان يُعمل به منذ العصور الفرعونية، وأدخلت فى الفصول الزراعية شعائر وطقوسا ترنم بها فى صلواتها كتعبير عن احتياجات الفلاحين وتمنياتهم على الله.

ولئن النيل كان مقدسا فقد جاء ذكره فى «سفر التكوين» باسمى «جيحون»، وفيه ترفع الصلوات اليومية للإله:

إملأه من بركاتك

فرح به وجه الأرض،

أصعد نهر النيل كمقداره..

بقاع مصر إملأها من الخير

وليكثر حرثها وتتبارك ثمارها

لتفرح كل بلاد مصر:

والأرض تتهلل من وجودك.

ويأتى الحديث عن مصر، أهم من الحديث عن أى شيء آخر يجرى على ظهر البسيطة، فهى الوطن التى لا قيمة لأى إبداع أو حياة بدونها.

وللوطن ـ بالنسبة للمواطن المصرى ـ عدة ظواهر كونية، أولها: الشمس التى لا تكاد تغيب طوال أيام السنة، وعلى مساحة هذه الكونيات خرج الإله والنور والخير؛ وفيه تتجدد الحياة بفصولها الأربعة، وعلى الرغم من التجديد والتعصير المصاحبين لحركة المجتمع فلايزال المصريون على فطرتهم الأولى يتأثرون بهذه الظواهر الكونية، وما يقبع فى أعماقهم من عادات قديمة يعبرون عنها ببساطة فى النقش على الكعك وفى الاحتفال بمولود جديد، ولايزال الصغار يرمون أسنانهم التالفة فى عين الشمس حتى تكافأهم بِسِنّة ذهبية أو من اللؤلؤ.

ويأتى النيل كظاهرة عملاقة منذ أن كان هذا الوطن ينحنى أمامه بكل تقديس وإجلال، فهو الإله الذى يهب لأشيائه الخصوبة والنماء، وهو الذى علم المصريين فلاحة الأرض حتى تبقى الحياة:

«وعلى ضفتيه نبتت آلة الحضارة وهى ورق البردى وأقلام القصب فكتب المصريون وسجلوا أعمالهم فتواصلت المعرفة وانتظمت الحياة، وإلى جانب هذه السمة المكتسبة من النيل نجد سمة النزوع الأبدى الدائم إلى الاتحاد، وثمة خصيصة أخرى لا تقل عنها خطرا هى: أن اختيار النيل لمجراه بين هاتين الصحراويين العظيمتين الشاسعتين جعل المواطن المصرى يحتفظ

بأهله ويتشبث بهم، وجعل الجاذبية البشرية إلى الداخل (٤)».

ألم المصريون تمام الإلمام بنهر النيل، دون حاجة إلى معرفة التفسير الصحيح للغز منبعه فيما وراء الأفق:

«وقد عرف المصريون منذ عصر الأسرة الكوشية أن هناك علاقة بين الأمطار السودانية والفيضان، غير أن الإعتقاد الرسمى القائل بأن منبع النيل مقدس، حظى بالأفضلية على التفسيرات المعقولة لذلك المنيع (٥)».

ويعتقد المصريون بأن مصر هى جنة الله فى أرضه و(النيل كوثرها):

«ولئن حلفت بأن مصر لجنةٌ وقطوفهـــا للفـائزيـن دوان

والنيل كوثرها الشهى شرابـه لأبر كل البر فى إيمانى (٦)

ومن اللافت للنظر ـ خاصة فى مجال التقدم ـ أن نرى كُتَّابا حداثيين عندما يتعرضون فى كتاباتهم لمصر لا يدركون تفاعل الدينامية وهى تعمل بنشاط بين الحياة وبين المصريين إذ لا تزال صورتهم يجسدها الكفر والوثنية.

بينما واقع الحال يؤكد عكس ذلك تاما، وأن حياتهم كانت متأثرة بقوة العقيدة والإيمان بوجود إله خالق، وهذه إحدى الخصائص التى بلورت تلك الشخصية من خلال الإمتزاج الجدلى والتاريخى:

«والحق أيضا أنه بصرف النظر عن تلك المؤثرات المختلفة، فنحن اليوم عندما ندرس الشخصية المصرية نخطىء الخطأ كله إذا اعتبرناها فرعونية

(٤) د. أنور عبد الملك «دراسات فى الثقافة الوطنية» دار المعارف - بيروت ص ٣٠٤.

(٥) معجم الحضارة المصرية القديمة.

(٦) عبد الرحمن الرافعى (شعراء الوطنية فى مصر) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨ ص ٧٩.

جوهرا أو قبطية جوهرا، أو عربية جوهرا، إنما هى من بعد ومن قبل مصرية وقومية [٧]».

وسواء اتفق البعض أو اختلفوا حول هذا النوع من القومية فإنه على أى حال اجتهاد مطروح فى ساحة الأفكار، وبما أنه ليس قطعيا، والدليل أن ثمة رأى آخر يتمحور حول مكونات هذا الوطن وشخصيته، وهو يستند إجمالا على جغرافية المكان وتاريخه.:

«وبهذا الإمتزاج لا تعود الجغرافيا «طبيعة صامتة»، وبه تتسع الجغرافيا بواسطة روابط التاريخ، والتاريخ هو مادة العقيدة الجامعة الدافعة فهو المصدر الصحيح الذى لا صحيح غيره لوجدان المواطنين وقيمهم، وهذا الوجدان هو الوعاء المنضبط لعقيدتهم يتسع لها دون سواها، وما لا يتسع له الوجدان الجمعى للأمة فشأنه ما يلفظ الجسد الحى من فضلات [٨]».

من ذلك الإمتزاج أمكن للتنوع أن يتواصل حضاريا، ومنه تكونت اللبنة الأولى لهذا الجنس الثقافى، وكما يحق للمصريين أن يفاخروا بالحضارة الفرعونية فإن إعتزازهم كان عظيما بنشأة المسيحية بينهم، وبذلك تعددت روافد الحضارة، وبرز مزيج جديدة وفريد فى الثقافة والجنس واللغة:

«ففى بعض لوحات الإله حوريس يرى بالقرب منه مصريا من الشمال أسمر البشرة، يليه مصرى من الجنوب أسود البشرة، يليه أسيوى أصفر البشرة، وأخيرا أوربى أبيض البشرة، وبذلك تنتفى العنصرية فى القصص

(٧) أحمد رشدى صالح «الأدب الشعبى» جزء ١، ص ٥٠.

(٨) مصطفى الحسينى «بين صراع الأفكار والحرب الفكرية» مقال - مجلة الهلال نوفمبر ١٩٨٨.

المصرية وجميع المظاهر التى تنكر وجود جنس مصرى مشترك [٩]».

بل ثبت بالقطع أن الجنس المصرى تنوعت مكوناته الثقافية وقد صار قادرا على هضمها وامتصاصها حتى أصبحت ذات أثر ملموس وحضور طاغ ومؤثر. :

«وأصبحت فى وضع الحائزة على سمة الحضور الدائم والبديهة الفذة التى لا ينضب معينها، وهى فى الوقت نفسه إنسانية قادرة على أن تغزو قلوب الناس وعقولهم، وتخرجهم من الظلمة إلى النور، وقادرة على أن تتيح لهم من اللذة والمتاع مما يجدونه أو لا يجدونه فى ثقافتهم الخاصة [١٠]».

ويعود الفضل الأول للثقافة البناءةالتى أعادت للعقل الاحترام وكثفت شعور المواطن بدينه وهويته عبر سلسلة من المعارك التى خاضها لنيل حريته واستقلاله ضد الهكسوس وضد الفرس منذ ما ينيف على ستة وعشرين قرنا، ثم على المقدونيين ونفوذ روما، ويلاحظ أن المصريين فى كل المعارك التى خاضوها لم يتحقق لهم فيها النصر إلا تحت راية الدين وقوة العقيدة، وبفضل روح الوطنية ارتفعت البلاد إلى ذرا المجد. :

«وأنهم حين عدل الخلفاء عن قاعدة الوطنية أخذت دولهم تهبط ويهبط معها الدين حتى وصلوا إلى ما وصلوا إلى ما هم فيه الآن [١١]».

ولا نعنى فى هذا المقام بالوطنية عنصرية المجتمع الطبقى، ولا وطنية التنافس الذى حل محل نظم الرق فى القرن التاسع عشر، ولا وطنية تعميق الفوارق الإجتماعية بين أبناء الوطن الواحد، وإنما هى الوطنية التى تدرك أن

---

(٩) د. عبد العزيز شرف (طه حسين وزوال المجتمع التقليدى) الهيئة المصرية العامة للكتاب - ص ٢٢٢.

(١٠) د. طه حسين «مستقبل الثقافة فى مصر» الجزء الثامن، ص ٥٣٢.

(١١) المرجع السابق: ص ٥٣٢.

الوطن المصرى هو جزء من واقع وكيان الأمة العربية، ولم يرو هذه المشاعر حتى لا تموت من العطش إلا النيل.

وعلى نفس السواعد المصرية يمكن أن يصنع المصريون انتصارات جديدة، ويذكر «أرنولد توينبى» أن المصريين قد انتصروا على أرضهم التى كانت صحراء جدباء ومستنقعات فطوعوا السيول لإرادتهم وشقوا مجرى النيل العظيم وصنعوا الحضارة على ضفافه.

وذلك دليل على أن المصريين كانوا على وعى بأبعاد هذا التحدى وبأى تحد آخر للطبيعة وكل ما يتصل بالحياة كان يستنفر إرادتهم فيطوعونه لمشيئتهم، وكان عشقهم للحياة سر إبداعهم فالعيش والموت مجرد برزخ تعبر منه الروح إلى حياة خالدة:

«والجنة الفرعونية ـ طبقا للمذهب الأويزرى ـ هى معسكر عمل كبير، ففيها تعمل الأرواح وتصيد، وتحارب الأعداء، ولكل إمرىء حصته وواجباته، فعليه أن يفلح الأرض، وأن يحصد الحب الذى ينمو بوفرة فالمحصول لا يخيب أبدا فى عالم لا يعرف الأحزان ولا الأكدار.. وبرغم ذلك فإن الحنين إلى الحياة الأرضية لا يفارق الأرواح فى جنة «أوزير» وهى تستطيع أن تعود فى جسم طائر أو حيوان للتتأمل الحياة [١٢]».

ويرى المصرولوجيون أن المصريين يتميزون بعاطفة جياشة، وعلى صدورهم وشم لأمواج النيل، وللنخيل والعصافير، وما من مناسبة سارة أو حزينة إلا وكانوا فى قلبها، ولا تكاد تقع مناسبة للحزن والعزاء إلا وتجد

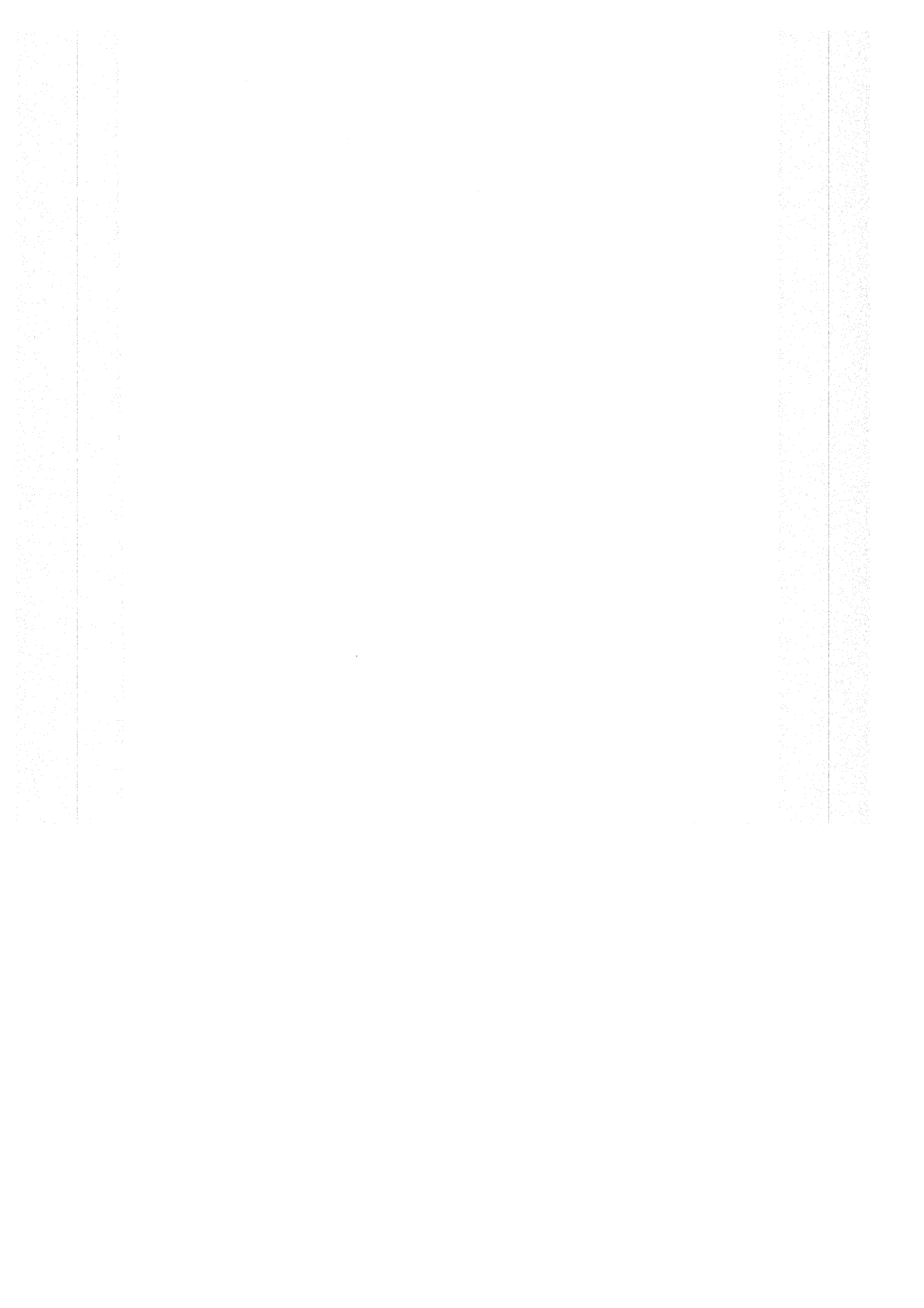
(١٢) صلاح عيسى «مثقفون وعسكر» مكتبة مدبولى، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م ص ٥٤٦

الجميع يشتركون فى العزاء بالنشيج (واستضافة الغرباء من المعزين تخفيفا عن أهل الميت)، وفى يقين المعزين أجمعين أنه سيأتى على كل إنسان منهم يوم يصعد فيه إلى الحياة الأبدية، ولابد أن يعد نفسه لذلك بطهارة القلب وعفة اللسان.

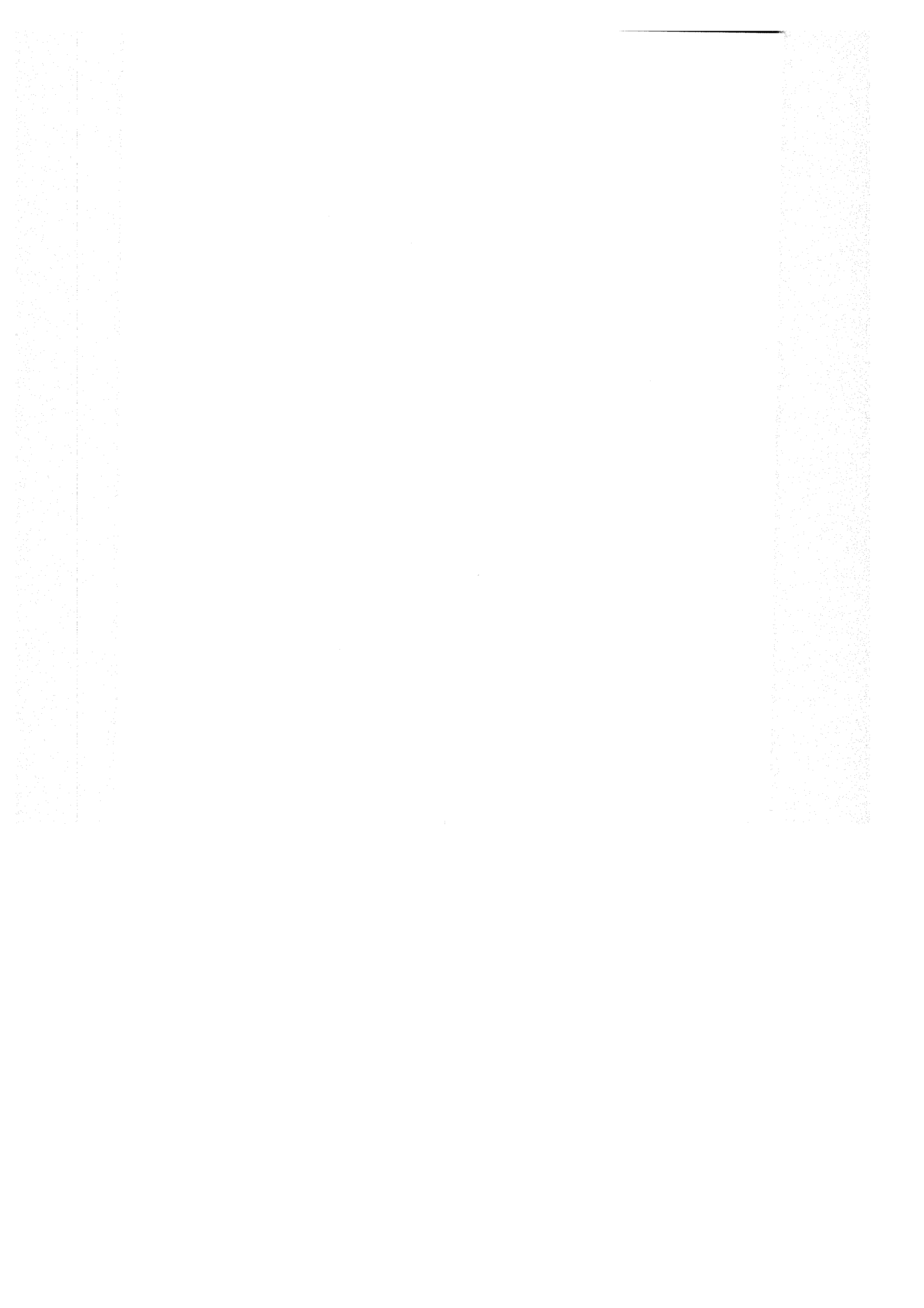
وقد أجمع المؤرخون على أن أفكار الحياة الأخروية كانت مصرية صميمة، ويمكن مشاهدة مظاهرها الخالدة من خلال ما تبقى لنا من صور وتماثيل، وإن كان من المؤكد أن معظمها اندثر بعد أن صارت مصر تحت سيطرة دولة الفرس، ثم ضمتها روما لامبراطوريتها عام ٣٠ ق.م.

وفى عام ٣٨٩ ب.م، حرم الأمبراطور « ثيودُوس » الديانة الفرعونية على المصريين، وأمر بإغلاق الهياكل وأصبحت الديانة المسيحية ديانة الحكومة الرسمية.

*****




مصر:
توريث وظائف
الآباء ... للأبناء



مصر: توريث وظائف الأباء ... للأبناء

لكل ما فى الوجود - أيا كان قدره - إسم يدل على كونه ويُستَدلُ من خلاله على حياة ثرية، أو حياة فقيرة مجدبة، فالاسم إذن هو مفتاح الشخصية وعنوانها بما يحمله من دلالات معنوية ومادية يختص بها طيلة عمره، وكل على قدر حجمه ونصيبه من الحياة.

من بين مليارات الأسماء التى خلقها الله. تطل « مصر » علينا مفعمة بفضائل حضارتها وانتشار إسمها فى الكتب المقدسة. فمن أين جاء إسمها؟:

« أخذت مصر إسمها من أحد أحفاد آدم عليه السلام (مصر بن مركائيل بن دوائيل بن غرياب، أو عرناب، وقيل سميت باسم مصرام بن طقرائوش الجبار بن مصريم بن حامى بن نوح عليه السلام وذلك بعد الطوفان (١) ».

يدلف بنا إسم مصر مباشرة من بوابة الحياة الأبدية.. يغرينا الاسم بالتنقل بين تاريخ مصر السياسى والإجتماعى فنجد أنفسنا قبالة الحكومات ذات الأضلاع الثيوقراطية (نسبة إلى زيوس كبير آلهة الإغريق) الذى أقام مملكته على أسس مفهوم الكائن المتعالى، المفارق للزمان والثابت ثباتا مطلقا (بحيث يكون لهذا الكائن حق التشريع للبشر، وعلى هؤلاء دائما الإستجابة والطاعة).

ثم ما نكاد نتريث عند بوابات الإقطاع حتى تمخر بنا السفينة عباب البحر فنصل إلى عصر الفتوحات العسكرية، حيث كان المصريون يعيشون أحقابا متواصلة تحت تيجان وصولجان عبودية الملكية الإستبدادية.

---

(١) المسعودى: مروج الذهب.

ما يثير الدهشة أنه على قدر ما كان يتمتع به ملوك مصر وكهنتها من عقلية فذة، وعلى صلتهم الوثيقة بعوالم النجوم والفلك والهندسة إلا أن أجواء السحر كانت تسود أرجاء المملكة المصرية القديمة، بل وتستولى على عقول الخاصة قبل العامة، إلى درجة أن بعض علماء المصريات زعموا بأن هناك آثارا مصرية خالدة أقيمت بقوة سلطان السحر. فى ظل أعمال الكهانة التى كان تأثيرها باهرا على الحكام والمحكومين:

« إن خرافة الحكومة الأولية للآلهة تكفى فى الدلالة على أن السلطة كانت أولا فى هيئة الكهنة، ثم أن الاعتقاد بأن قوانينهم القديمة كانت منزلة عليهم من السماء جعل المصريين يغلون فى احترام خرافات هذه القوانين حتى عدوا ملوكهم خلفاء للآلهة فعبدوهم فى حياتهم ومماتهم (٢) ».

ويمكن بسهولة اكتشاف تلك العقائد والتعرف عليها من خلال التقسيم الإدارى، ففى عهد الثيوقراطية ظهرت مديريات صغيرة وكان لكل مديرية أو اقليم عاصمته ورئيسه ومعبده وآلهته، ولم تتوحد قوى الوطن بأقاليمه وبمختلف الأجهزة الإدارية إلا حين جاء « مينا » كملك وزعيم وقائد ليوحد البلاد، ولكن ما كاد يظهر عصر نشأة حكومات الأسرات حتى دب الوهن فى جسد الأمة، وغدت مصر منذ حكم « مينا » حتى القيام بطرد الهكسوس على يد أحمس ذات نظام إقطاعى:

« وكانت الإقطاعية المصرية محاكية لمثيلتها التى وجدت فى أوربا مدة القرون الوسطى فكان الملك فيها الرئيس الأعلى للجيش، يهرع إلى ندائه

(٢) جوستاف لوبون (الحضارة المصرية القديمة) ترجمة م، صادق رستم، المطبعة العصرية بمصر ص ٦٢.

أمـراء الأقـاليـم تتـبـعـهـم الصـغـيـرة والـكـبـيـرة من سـفـنـهـم، ومـفـروض عليـهـم للملك، الخدمة الحربية والقيام باتمام الأعمال العمومية التى ينفذونها برجال من رعاياهم سخرة حقيقية، وكانت صيانة الترع الهم الدائم للسلطة المركزية فتطالب رؤساء الأقاليم بضرائب على السفن وبأيام تعمل فيها رعاياهم مقابل الحماية واجراء العدل. وهذا كله مثلما كان عليه البابوات المسيحيون فى حكم (هوج كابت) أو (فيليب أوجست) [٣] ».

فى ذلك الوقت كـانت غـالبـيـة سكان مـصـر من الفـلاحـين والصناع، والجميع يعملون لرخاء الدولة، ودعم أركانها. :

« وكانت الدولة ذات طبيعة عقائدية دينية فالملك سليل الآلهة وهو نفسه إله بهذا تجب له الطاعة والعبادة وشخصه وحكومته فوق كل نقد ورقابة، ولم يكن إنفصام المجتمع عنصريا وطبقيا فحسب بل كان دينيا أيضا، حيث كانت هناك ديانة شعبية فى مواجهة ديانة الارستقراطية الاسكندرانية الحاكمة (عقيدة ايزيس مقابل عقيدة سيرابيس) [٤] ».

أثرَّت هاتان العقيدتان فى شخصية مصر والمصريين، وكانت القوة التى يمثلها الجيش فى خدمة ديانة الارستقراط، وهى قوة ذات فعالية مؤثرة أفرد لها المؤرخ « هيرودتس » فصلا طويلا من كتاباته، وفيه أوضح أن الجنود كانوا موزعين على فئتين: « الكالازيزى » و« الهرموتيبى »، وقدر مجموعهم بأربعمائة ألف وعشرة آلاف رجل.

وعادة ، عندما يسترسل الحديث عن القوة العسكرية فى أى بلد ، يشغل

---

(٣) جوستاف لوبون (مصدر سابق) ص ٦٢.
(٤) وليم سليمان قلادة.

جانب منه تحليل يدور حول مراكز الردع، والقوات الضاربة، والصفات القتالية التى يتمتع بها الجنود، وأهم الفتوحات الخارجية، وتأثير القوات المسلحة فى الصراعات الوطنية التى تنتهى عادة بقمع الإنتفاضات الشعبية والحركات المتمردة فى الداخل.

كانت الرتبة العظيمة تعطى لحامل العلم، وقد حصل على هذه الرتبة فى الدولة الحديثة (نبر آمون) الذى خَطَّ بكل فخر أنه « وصل إلى سن الشيخوخة وهو فى خدمة فرعون ولم يتعرض طوال خدمته الطويلة لأى عقاب ».

ونستبين من الرسومات الكثيرة الموزعة على جدران المعابد ملامح حملة الأعلام وموضعها الأمامى فى جيش الفرعون، ويتضح أنه لم يكن هناك « عَلمٌ » واحد لمصر القديمة، بلا رايات تختلف باختلاف الأقاليم، ولفرق الجيش رايات لا تتمايز بألوانها فحسب، بل بالنقش الذى تحمله، فهذه راية « آمون » الكبش المتوج بقرص الشمس، وتلك راية « ست » الذى كان يحمل لقب « معلن المعركة ».

وعندما تولى البطالمة حكم مصر أسقطوا « كيلوباطرا » ليرفعوا فى سمائها « راية النسر الرومانى »، وبقيت خاضعة لروما حتى فتحها المسلمون فى (١٨ من ربيع الآخر سنة ٢٠ هـ ١٦ من ابريل ٦٤١م) لترفرف فى سمائها راية الرسول ﷺ.

قال « ديودور الصقلى المؤرخ اليونانى » : إن قدماء المصريين هم أول الشعوب الذين استعملوا الأعلام فى بلادهم ».

كانت القبائل المصرية القديمة تضع رسوم بعض الطيور وأنواع الحيوانات على مقدمة جيوشهم.

وقال: «بلوتارك المؤرخ اليوناني المتوفى سنة ١٢٠ ق.م» إن قدماء المصريين اتخذوا بعض الحيوانات والطيور آلهة لهم لغرض سياسى، وذكر أن «أسوريس» قسم جيوشه إلى عدة أقسام، ووضع فى مقدمة كل منها علما عليه رسم طير، أو حيوان، أو إشارة ليمتاز كل قسم عن غيره.

وحين انتصر المصريون على أعدائهم اعتبروا أن هذه الطيور أو الإشارات الموضوعة على أعلامهم حماة لهم ورموزا لمعبوداتهم المحلية، إذ كان لكل إقليم معبود خاص، ومن أشهر الرموز التى اتخذوها آلهة لهم العجل آبيس رمزا للمعبود «فتاح» النازل من السماء واتخذوا ابن آوى رمزا للمعبود «أنونيس» حارس القبور وحافظ الموتى من عبث الأشقياء وكذلك الحية والباشق واللقلق وغيرها.

لقد ظهر العلم أولا فى وادى النيل، ثم انتشر بعدئذ عند جميع الشعوب القديمة التى اختلطوا بالمصريين، وقبل أن يتوحد القطرين: (مصر السفلى) فى الشمال، و(مصر العليا) فى الجنوب كان لكل منهما صفات وشمائل وشارات. من ذلك أن أهل الشمال كانوا يتخذون رمزا لهم حُزمة من نبات البرَدى النابت فى مناقع الوجه البحرى، وكان ملوكهم يتخذون النحلة رمزا لهم ويلبسون تاجا أحمر، أما أهل الجنوب فكان رمزهم الزَّنبق، ورمز ملكهم نبات من نبات الجنوب، وشارته تاج طويل أبيض.

وعقب سقوط الدولة الرومانية ملك العرب مصر سنة ٦٤٠ ورفعوا العلم الأبيض لبنى أمية، ثم العلم الأسود للعباسيين، وفى عهد أحمد بن طولون استقلت مصر سنة ٨٦٨ ورفع عليها علم بغداد احتراما للخلافة، وروى المقريزى أنه كان لخلفاء ابن طولون أعلام ذات ألوان كثيرة، وفى عهد المعز

وخلفائه « الفاطميين » كانت مصر متمتعة باستقلالها، وامتدت أملاكها من البحر الأطلنطى إلى نهر الفرات وصارت أكبر دولة فى العالم، وكانت لها أعلام مستقلة.

ولم يعرف للآن ـ بالضبط ـ تاريخ اتخاذ المسلمين الهلال والنجمة شعارا لهم، قيل إنه فى عهد السلطان سليمان القانونى العثمانى كان العلم العثمانى شعاره اللون الأحمر، وفى وسطه شكل هلال، وبعدئذ أضيفت إلى الهلال النجمة ذات الخمسة أشعة، وقيل أيضا أن الهلال صار شعارا للإسلام منذ الفتح العثمانى للقسطنطنية.

وفى عهد صلاح الدين (سنة ١١٧١م) رفع العلم الأسود الخاص بالعباسيين احتراما للخلافة، وكان لمصر علم مستقل فى عهد الأيوبيين، ولما اندثرت دولتهم تولى المماليك سنة ١٢٥٠ وقطعوا كل علاقة ببغداد ولكنهم رفعوا العلم الأسود الخاص بالعباسيين إحتراما للخلافة.

وحين استولى سليم الأول على مصر سنة ١٥١٧ رفع عليها العلم العثمانى المصرى، ولما جاء محمد على باشا جعل النجمة فى علم مصر ذات خمسة أطراف بدلا من ستة تمييزا له عن العلم العثمانى.

ولما تولى الخديوى إسماعيل حكم مصر جعل فى سنة ١٨٦٧م علم مصر بثلاثة أهلة وثلاث نجوم كل منها خمسة أطراف، والثلاثة الأهلة رمزا لمصر والنوبة، والسودان، وفى عام ١٩١٤ حافظ السلطان حسن كامل على علم أبيه، وفى سنة ١٩٢٢ فكرت المملكة المصرية فى تغيير علمها وجعل لونه أخضر (رمزا لتربة مصر الخصبة) مشتملا على ثلاث أهلة وثلاث نجوم وكلها من اللون الأبيض.

وفى شأن العسكرية المصرية كان لعلماء الحملة الفرنسية رأى لا نقطع بصوابه فى بعض الجوانب :

« برغم أن المرء لا يشك قط فى أن المصريين يمتلكون على الدوام القدرة على الثبات ورباطة الجأش إبان المحن العظيمة والكوارث والأخطار الشديدة، بل كذلك حيال أجهزة التعذيب والنكال بالغة الفظاعة فإننا لا نلمس فيهم مزاجا حربيا قط، فلو كان لديهم مثل هذا المزاج أو (الطابع) لما تركوا الأجانب، منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة وحتى يومنا الحاضر، أن يتملكوا بلادهم وأن يقوموا بحراستها والدفاع عنها، لذلك فليس من المدهش ألا نجد عندهم قط، وبمعنى الكلمة، موسيقى حربية أو عسكرية (٥) » .

لا أعتقد أن أمر تحرير البلد أى بلد رهنا بوجود جوقة موسيقية تجيد عزف المارشات العسكرية، كما أن المزاج أو (الطابع) ليسا فى مقدورهما تحرير البلاد ما لم تكن القوات المسلحة مدعومة بقوى الشعب وروح الوطنية والكفاح، والشيء الذى لم يتبينه علماء الحملة الفرنسية أن هذه الروح الكفاحية، كان يُخطط لها دائما لتنكمش فى عزلة، ولم يكن الجيش على صلة وثيقة بنبض الجماهير وآمال الطبقات الدنيا، وإنما كان وجوده قاصرا على أداء واجبه فى الحفاظ على النظام والقيام بالفتوحات الخارجية، وقمع الحركات المتمردة فى الداخل، إستجابة لمشيئة الفرعون الذى كان نصفه إله والنصف الآخر إنسان!

---

(٥) علماء الحملة الفرنسية (وصف مصر) ترجمة زهير الشايب، الجزء الثامن، الطبعة الأولى، الناشر مكتبة الخانجى بمصر ١٩٨٣ ص ١٦٥ .

ويبدو أن خيوطا من هذا التراث الفرعونى القديم قد تسرب عبر أوعية الزمن حتى تأثر ببعض منه الرئيس « السادات » فراح يتصدى لإنتفاضة يناير الشعبية فى سبعينات القرن الماضى بقوات من الجيش، ولبث يوجه الحديث إلى الأمة بين وقت وآخر، قائلا:

« على طالب العلم أن يتفرغ لتحصيل العلوم فقط وأن يبتعد عن الاشتغال بالسياسة، وعلى العمال أن يؤدوا ما كلفوا به من أعمال فى مصانعهم، وعلى الجنود مهمة الدفاع عن الوطن ».

وواقع الأحوال كان يشهد بأن الجنود لم يكونوا فى وضع يسمح لهم إلا بالقدر الذى كانوا يدافعون فيه عن الحكم القائم الذى تفسره العامة بوحدة الدفاع عن فئة رفيعة الشأن ومدعومة بقوة الزيف، لدرجة إيهام الشعب بأنها هى التى تتولى مسئولية الدفاع عن « مصالح الوطن »!!ويكاد يرتج على العقل حين يطالع صفحات من الماضى، ولا يعرف إن كان ذلك الظلم « وقع » أم أنه « يقع » الآن، وأنه لا فرق بين ماضٍ وحاضر، وكأن حاضر الشعب المصرى هو صورة كربونية من الماضى فالفوارق الطبيعية والإجتماعية لاتزال بارزة بسمات قاطعة وحياة الجنود والعمال تمضى فى قالب حديدى لا يشذ عنه أى مواطن.

يشير إلى جانب من هذه الحياة « ديدور الصقلى » المؤرخ الذى جاء بعد « هيرودتس » بنحو ٤٥٠ سنة شارحا كيفية إعداد المقاتلين المصريين:

« كانوا يعنون بجمع الصغار، وكانوا يعودونهم على تدريبات دائمة وعلى اتعاب أجسامهم، ولا يجوز لواحد منهم أن يتناول الغداء إلا بعد أن يقطع ثمانية عشر كيلو مترا تقريبا فى السباق ».

هذا الأمر بالنسبة للصغار حتى يصبحوا جنودا، وحول الأوضاع المتصلة بحياة العمال داخل المملكة المصرية فإن « ديدور الصقلى » يكشف الغطاء عن وجه خطير فى مجال العمل والعمال بعد أن صدر فى حقهم قانون يحدد الخطوط التى لا يسمح لأحد بتجاوزها، ومن أهم بنوده : (عدم اشتغال العمال بالسياسة) .

لمـــاذا ؟

هل ليظل العمال على مدى الدهر واقعين بين شقى رحى فتحيلهم إلى هشاشة أو إلى نخالة لا تصلح إلا للإحتراق ؟

يجيب على ذلك « ديدور الصقلى » قائلا :

« إن مصر هى البلد الوحيد الذى لا يجوز فيه للعامل أن يقوم بعمل عمومى أو يمارس حالة أخرى غير التى حددت له فى القوانين أو التى أخذها عن أهله، وبهذا التقييد لا يتحول العمال عن مزاولة أعمالهم، ولا ينصرفوا إلى الإشتغال بالسياسة، إذا كان فى الأمم الأخرى صناع ينهمكون خاصة فى فكرة جنى الثروة فينقطع بعضهم إلى الزراعة وبعضهم إلى التجارة، أو يمارسون مهنتين أو ثلاثا معا، أو يهرعون كما فى البلاد الديموقراطية إلى الجمعيات الشعبية فيحدثون فيها الخلل ببيع أصواتهم فى الإنتخابات، فقد كان الصانع عند المصريين لا يشترك فى الأعمال العمومية، ولا يمارس عدة منهن فى وقت واحد وإلا كان عرضه لغرامة باهضة » .

كانت الوظائف فى المجتمع المصرى مثلها كمثل وظائف الكهنة وراثية . وكان محرما على أصحاب الحرف الأخرى الإنخراط فى سلكها، وفى كتاب « سبع حرف » لهيرودتس نستبين من خلاله أنه كان يوجد فى مصر سبع

طوائف يسمى بعضها كهنة وآخرون يسمون محاربين، وآخرون رعاة وآخرون رعاة خنازير، وآخرون تجارا وآخرون متجرمين، وأخيرا الملاحين، وهذه طوائف المصريين ويشتقون أسماءهم من الأعمال التى يمارسونها.

ومن المدونات على لوحات القبور نجد نقوشا من كل العصور تؤكد وراثة الوظائف، فوظيفة الأب تكون إرثا للإبن، وكذلك كانت الوظائف فى العهد الإغريقى المصرى وراثية، وهذه الحجية لاتزال تورث ـ معظمها ـ فى عصرنا الراهن فنرى الطلاب الجامعيين على تنوع تخصصاتهم، يرثون وظائف آبائهم، وفى ذلك يقول «هيرودتس» يكون الموسيقار ابن موسيقار والطاهى ابن طاه، والحاجب ابن حاجب، ومن ثم كان لا يسمح لآخرين ممن يمتازون بجمال الصوت والقدرة على العزف والتلحين أن تفتح الأبواب أمام موهبتهم، لأنه لا يجوز لهم أن يحرموا الآخرين من أصحاب الوراثة.

لمصلحة أصحاب الوراثة صدر قانون يحرم على المصريين مزاولة أى مهنة لم يرثها أحد منهم عن والده، واهتم حكام ورؤساء وملوك مصر منذ ما قبل الميلاد بأن يحولوا بين المواطنين وبين الاشتغال بالعمل السياسى، ومن يخالف ذلك كان يتعرض للعقاب الصارم، وصار كل ما كان هنالك يورث توريثا أبديا:

«ولا أدل على أهمية الوراثة فى الوظائف والمراكز الإجتماعية أكثر مما نلحظه من محافظة المصريين على تسلسل ومراعاة ذلك فى كثير من الأحوال، كما نجد فى شجرة الأنساب التى تركوها لنا منذ عهد الأسرة الثانية والعشرين على اللوحات الجنازية والتماثيل وجدران المقابر، ونقرأ

عليها توريث الوظائف من أب إلى ابن عدة أجيال، ونجد ذلك فى الكهنة والبنائين [٦]» .

إذن، فقد ترسخت أركان الشخصية المصرية فى محيط من القيود، وبات من الطبيعى أن تؤمن القاعدة العريضة الشعبية بأن لا تشذ فروعها عن أصولها حتى أصبح الكثير من المتوارث يتدفق فى شرايين الحياة، ولعلنا نلمس ذلك بوجه سافر فى احتفاء المصريين بشيوخهم، وفى إقامة الموالد الدينية، قديما وحديثا، وربما لأن الموالد تتمحور حولها علاقات التآزر الإجتماعى والاحترام المتبادل والتسامح، والزهد فى متاع الدنيا .

فى القاهرة، تغطى الموالد الرئيسية معظم شهور السنة فتمتد من ربيع الأول وربيع الثانى، وجمادى الأولى، وجمادى الثانية ورجب وشعبان :

« فى هذه الفترة تقام على التوالى موالد : فاطمة النبوية، والسلطان أبو العلا، ومولد الحسين والسيدة سكينة، والسيدة نفيسة والسيدة رقية، وعلى زين العابدين، وأحمد الرفاعى، والسيدة زينب والإمام الشافعى وحسن الأنور والسيدة عيشة، فضلا عن الموالد الصغيرة . وتوجد فى الأسكندرية خمسة موالد فى خمسة أسابيع متوالية : المرسى أبو العباس، يتبعه بعد أسبوع من بدايته مولد سيدى جابر الذى يبدأ فى صباح اليوم التالى لليلة الكبيرة لأبى العباس، يتبعه مولد سيدى بشر وسيدى كمال وسيدى محمد الرحال .وشهر شعبان ـ خاصة منتصفه ـ مكدس بالموالد للإعتقاد السائد بأن

(٦) د . سليم حسن (مصر القديمة . . السيادة العالمية والتوحيد) الجزء الخامس، مكتبة الأسرة ص ٤٩٠-٤٩١ .

منتصفه يكون مباركا لأنه يسبق شهر رمضان (٧)».

وتتشابه الموالد فى طقوسها وأذكارها، من هذه الناحية الإجماعية، يلقى الدكتور «أحمد شمس الحجاجى» - استاذ الأدب الشعبى - الضوء على احتفالات المصريين موضحا أن الاحتفالات بمولد أبى الحجاج تأتى محاكاة لما كان يجرى فى موكب «آمون» فالطقوس التى كان يعمل بها منذ حوال ثلاثة آلاف عام تجرى اليوم على أيدى أهالى مدينة «الأقصر» عقب انتهاء موسم الحصاد فى الشهر الثانى من فصل الفيضان حيث تخفق الأعلام بأفراح القلوب، وتنطلق أصوات الأبواق معلنة مهرجان «آمون».

ومدينة الأقصر واحدة من بين عشرات المدن المصرية التى تستعيد مظاهر التراث، وسط أجواء شعبية، يعلو فيها الحس الصوفى والفلكلورى احتفالا بمولد العارف بالله سيدى أبى الحجاج الأقصرى، وفيه تنساب المراكب على صفحة النيل محملة بالزوار القاصدين زيارة مقام ولى الله، بينما تعج الشوارع بالجموع التى ترتفع أصواتهم بذكر الله، وبمن يرددون الأناشيد الدينية، ويتبارى بعضهم فى لعبة التحطيب التى عرفها الفراعنة.

نخلص من كل ذلك إلى أن الموروثات لها أرواح تعانق الحاضر، ومعنى أن يصير ابن الطاهى طاه وما يحمله من ظلم اجتماعى فقد يكون فى جانب محدود منه أفاد التخصص بنوع من الحذق والمهارة فى ظل أجواء من صنع إنسان تألّه لدرجة أنه لو شاع بين المواطنين أن الملك اصيب بمرض أو أنه مات فلا يجسر أحد أن يصدق بسهولة حتى لو رأوا جسده منطرحا على ظاهره فى التابوت، وإذا صدقوا بالفعل أنه مات فإن أعماله ستظل تأخذ بتلابيب الرعية، لأنها ستبقى - من بعده - كميراث لا يستطيع أحد الإنعتاق من استبدادها.

---

(٧) نيكولاس بيخمان (الموالد والتصوف فى مصر) المركز القومى للترجمة.

حين يُعلن رسميا عن موت الملك يشاع بين الناس إحساس يمتزج بالأسى مع الأخذ بمظاهر التغاضى عن ما هم فيه من الشقاء، وأن يتجهوا بكل عواطفهم للبكاء والخروج من أطواق ثيابهم ودعك الرؤوس بالطين، ويحرمون على أنفسهم الغناء، ومن مظاهر الاحتفال بعرس أو بمناسبة مقدم مولود جديد.

يعد ذلك كله نوعا من الإحتفالية الشعبية المنافقة والتى يعلم الجميع بمن فيهم المسؤلين أن هذه المظاهر الشعبية لا تعبر عن المشاعر الدفينة، ومع هذا كان يسعدهم أن يروا البلاد تلبس ثياب الحداد ـ بعد موت الملك ـ لمدة اثنين وسبعين يوما.

ومن تحليل هذه الشخصية المصرية المركبة نستدل من صورها على ما قد يفسره البعض بروح الإنتماء لهذا الواقع المصنوع من رائحة مياه النيل المختلط بالطمى وصهد الصحراء، وأعمدة المعابد، وأحجار التماثيل، وتقاليد الطغاة، ومن كانت أعمالهم تُخضِع أعنة الحكم ونظام الإدارة فى مصر لمشيئتها.

ولكى لا نصاب بصدمة قاتلة فيقال أن هذه الأوضاع هى التى سادت معظم بلدان العالم القديم، وإن كانت تحدث طفرة بين وقت وآخر فى سياق العلاقات الإجتماعية بسبب سطوع نجم حاكم جديد، يغذى الهياكل الإدارية والتقسيمات الوظيفية حيث يضع تعديلا فى أنظمة الأقاليم فتلحق به صفة المجدد والمشرع، ولكن النتيجة تبقى دائما مرتبطة بمدى إحكام قبضته، وبسط سلطانه على وجه يأخذ شكل الحداثة والتجديد:

« فنجد أن أرض الكنانة كانت مقسمة نظريا قسمين وهما القطران اللذان تتألف منهما البلاد منذ أقدم العهود ـ (الوجه القبلى والوجه البحرى

ـ وبقى كل منهما يحمل لقبه الأصلى) [٨] » .

ومنذ فجر توحيد القطرين والفارق بينهما فى المكونات الشخصية يبدو جليا فنجد أن سكان الوجه القبلى يمتازون بالقوة الجسدية، ويغلب على طبائعهم الخشونة مع الميل للعراك والقتال، أما سكان مصر الوسطى « الدلتا » فقد كانوا يمتازون بالإخضرار والزروع، الأمر الذى كان له بالغ الأثر على شخصيتهم الإجتماعية والنفسية، وأصبح فى سلوكياتهم ليونة، وفى لغتهم سهولة، وظلت حياتهم لصيقة بالأرض فهى تعنى بالنسبة لهم : الميلاد، والموت، والبعث، وكان النيل إلها مقدسا تزدهر على ضفتيه الحياة وتتجدد فى مختلف الفصول، كما أنهم تلقوا على يديه العبادة، وأتقنوا التضرعات وحذقوا العلوم، والفنون، وحسبهم أنهم تلقوا من فيوضاته زادا ومعونة تساعدهم على الولوج إلى الحياة الأخروية، وبما كانت تحمله صفحات كتاب الأله « أمنموبى » الزاخر بنفائس لا تقدر بثمن، ومنها :

« التعاليم التى تجعل الفرد أديبا، وتعلم الجاهل علم كل كائن، وكل ما صنعه « بتاح » وما سجله « تحوت » والسماء ونجومها والأرض وما عليها، وما تخرجه الجبال، وما تجود به البحار، وما له علاقة بكل الأشياء التى تضيئها الشمس، وما ينمو على الأرض » .

لكن مع بالغ الأسف، لم يكشف بعدُ عن أهم فصول هذا الكتاب التربوى، الأمر الذى يدفع إلى القول بأن محتوياته قد تكون تبددت فى حقب من سلسلة حلقات التاريخ المصرى، وإن كانت الأيام أبقت لنا عدة

---

(٨) سليم حسن (مصر القديمة .. السيادة العالمية والتوحيد) ج الخامس، مكتبة الأسرة ٢٠٠١ ص ١٤٦ .

كتب على جانب كبير من الأهمية، من أشهرها سفر: « البوابات »، وفيه الكثير من نداءات القلب إلى الأله:

إنى أعيش على الحق

وآكل من عدالة قلبى

ولقد فعلت ما تقوله الناس وما يرضى الآلهة

ولقد أرضيت الأله بما يرغب فيه

فأعطيت الجائع خبزا

والصادىء ماءاً

تلقى لنا هذه الكتابات الضوء على جوانب من حياة الشخصية المصرية فانسانها لا يعيش إلا على الفضائل النابعة من القلب، وغايته فى كل ما يذهب إليه هى رضى الأله بإعطاء الخبز للجائع والماء للعطشى، والعيش على الحق وكل ما يرضى عنه الآلهة.

من شأن هذه الفضائل وشيوعها أن تحيل الأعداء إلى أصدقاء بل وتجعل أعلام الحضارة المصرية ترفرف خفاقة فوق رؤوس الأمم. لكن حياة البذخ واللهو والاستغراق فى اقتراف الأرجاس واللذة كانت تتسع دائرتها مع اتساع كيان مصر الجغرافى، وبعد أن غرقت البلاد فى خير وفير، ترك الفراعين الأعنة على ظهور الجياد، وغمدوا السيوف فى قرابها، وسرح القادة جنود الجيش، واكتفوا بدعم النفوذ على تلك الممالك بالزواج والنسب من بنات ملوك تلك البلاد التى كانت تحت السيطرة المصرية.

ومن حيث لم يكن أحد يفكر فى أن الثراء الفاحش يأتى بأمراض تجهز على كل شىء جميل إلا أنه وقع بالفعل ما لم يدر فى العقول، إذ تداعت

على سلم الأنهيار تعاليم «رع» الذى بشر بالحق، وحكم مصر بالعدل، ثم تدحرجت البلاد مثل كرة تندفع فى طريقها بقوة التلوث الإجتماعى، وكانت مظاهره الأولى تكمن فى تقلص لغة الروح، وصعود لغة الجسد العمياء فانحدرت الثقافة الوطنية قبل أى شىء آخر، وبعد أن كانت مصر بلاد الحضارة وجامعتها فى أون «عين شمس» مصدرا لنشر العلوم والفنون الرفيعة أصبحت الحياة فيها مصابة بالشلل حتى وقعت فريسة فى قبضة دول كانت خاضعة لها واستلبت منها مقاليد السيادة العالمية، وتراتب ذلك مع اجتياح مجموعات من أجناس مختلفة لأراضيها طلبا للعيش والإقامة فأثَّر ذلك فى الحفاظ على الشخصية المصرية وتميزها.

أصبح للخاصيات الجسدية والفكرية الوافدة تأثير على نهج الحياة الفرعوينة: (المؤثرات البطلمية.. الرومانية.. القبطية.. الإسلامية، مع خليط من الزنجية، والمتوسطى، والإفريقى.

من إفرازات هذه الأجناس مجتمعة نمت رغبة الإرتماء تحت أقدام الحكام وترعرعت حياة بعض الشرائح الإجتماعية التى كانت تعيش من أجل التنافس على طلب المناصب العليا بأى وسيلة وبغض النظر عن قيمة ما يُبذل سواء كان أخلاقيا أو ماديا فغاية هؤلاء هى الجلوس فى مقعد يكون قريبا من معية السلطان حتى لو وصل الأمر فى تحقيق ذلك عن طريق استعمال السحر، ومن ثم صار للروح السلبية دور فى تشكيل البُنى الإجتماعية.

وحول استعمال السحر تحديدا بالنسبة لواقع الحياة فى مصر فإن علماء الإجتماع يعتبرون أعمال السحر وما يتبعها من شعوذة وصعلكة كانت تقوم بدور مناوىء فى مضمونه للعسف الواقع على الرعية، لأن كل حاكم استولى

على أعنة الحكم ـ في غياب الشعب ـ سواء كان فرعونيا، أو إغريقيا، أو مسيحيا، أو إسلاميا، جعل من حوله بطانة يرى من خلال عيونها واقع المجتمع، وكانت هي في المقابل تستفيد من بسط اليد على مساحات من أراضى الدولة التي يفترض أنها ملك للشعب، ومن الإتاوات وعائد الضرائب، وبنسبة مخصصة لها من القربات والنذور التي كان يذهب جزء منها إلى معابد الآلهة.

وما يلفت الإنتباه أن المتآمرين على مصالح الشعب ـ لتخدير الشعب ـ روجوا لإنتشار الفن الهابط عن طريق إقامة حفلات الرقص والغناء ومساعدة مواخير الليل على دورها في الشراب، والانحطاط، والابتذال وكانوا في نفس الوقت يدعون أنهم يسعون لمد أطواق النجاة للمجتمع عن طريق إشاعة الأعمال السحرية والإتصال بالجان لجلب الخير، وعن طريق هذه الأعمال السفلية يشفى العقم وينجبون، وبقوة تأثيرها لا يتعرضون لعذاب الآخرة يوم أن يجتمع المجلس الأعلى لاستجواب المتوفى بحضور « ماعت » إلهة العدل والحكمة.

تُرسِّخ هذه الأوضاع الإعتقاد بقوة الأشباح حتى يصبح الخوف ليس من الانسان وإنما من ظله، وباتت الأوضاع تحت ظلال الحكومات الثيوقراطية والإقطاعية تأخذ جانب دعم الخرافات، ونشر ثقافة التخلف، أو ما يسميه علم الإجتماع: التحايل على الظروف القهرية بإيجاد نافذة غير ملموسة بالفعل، وليشحذ المعذبون طاقاتهم الروحية حتى يروا ـ عبرها ـ ما يُسرى عنهم، أو ما يخفف من الأوجاع.

استمرت هذه حال مصر والمصريين إلى أن أسفرت الظروف عن قيام السلطة المركزية المهيمنة على كافة أرجاء البلاد فمن سهولة المواصلات على

صفحة مياه النيل، وعدم وجود حواجز طبيعية بين أقاليم الوادى، ومع انتظام الدورات الزراعية فى مواعيدها الموسمية كل ذلك دعم من أوضاع الفراعين وأتاح لسلطة الحكومة المركزية السيطرة الكاملة على المواطنين، كما ساعدت هذه الأوضاع مجتمعة الغزاة على توطيد أركان حكمهم:

« وكانت مصر ثلاثة شهور لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مستكة سوداء، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء، فأما اللؤلؤة البيضاء، فإن مصر فى شهر أبيب (تموز – يوليه) ومسرى (آب – أغسطس) وتوت (ايلول – سبتمبر) يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها على روابى أو تلال مثل الكواكب قد أحاطت المياه كل وجه فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض إلا فى الزوارق.. وأما المستكة السوداء فإن شهر بابه (تشرين الأول – إكتوبر) وهاتور (تشرين الثانى – نوفمبر) ، وكيهك (كانون الأول – ديسمبر) ينكشف الماء عنها وينضب عن أرضها فتصير أرضا سوداء، وفيها تقع الزراعات، والأرض روائح تشبه المسك.. وأما الزمردة الخضراء فى شهر طوبة (كانون ثان – يناير) وأمشير (شباط – فبراير)، وبرمهات (آزار – مارس) تلمع ويكثر عشبها، ونباتها، فتصير كالزمردة الخضراء.. وأما السبيكة الحمراء، فإن شهر برمودة (نيسان – إبريل)، بشنس (آيار – مايو)، وبؤنه (حزيران – يونيو) يبيض الزرع ويتورد العشب فهو سبيكة منظر ومنفعة [٩] ».

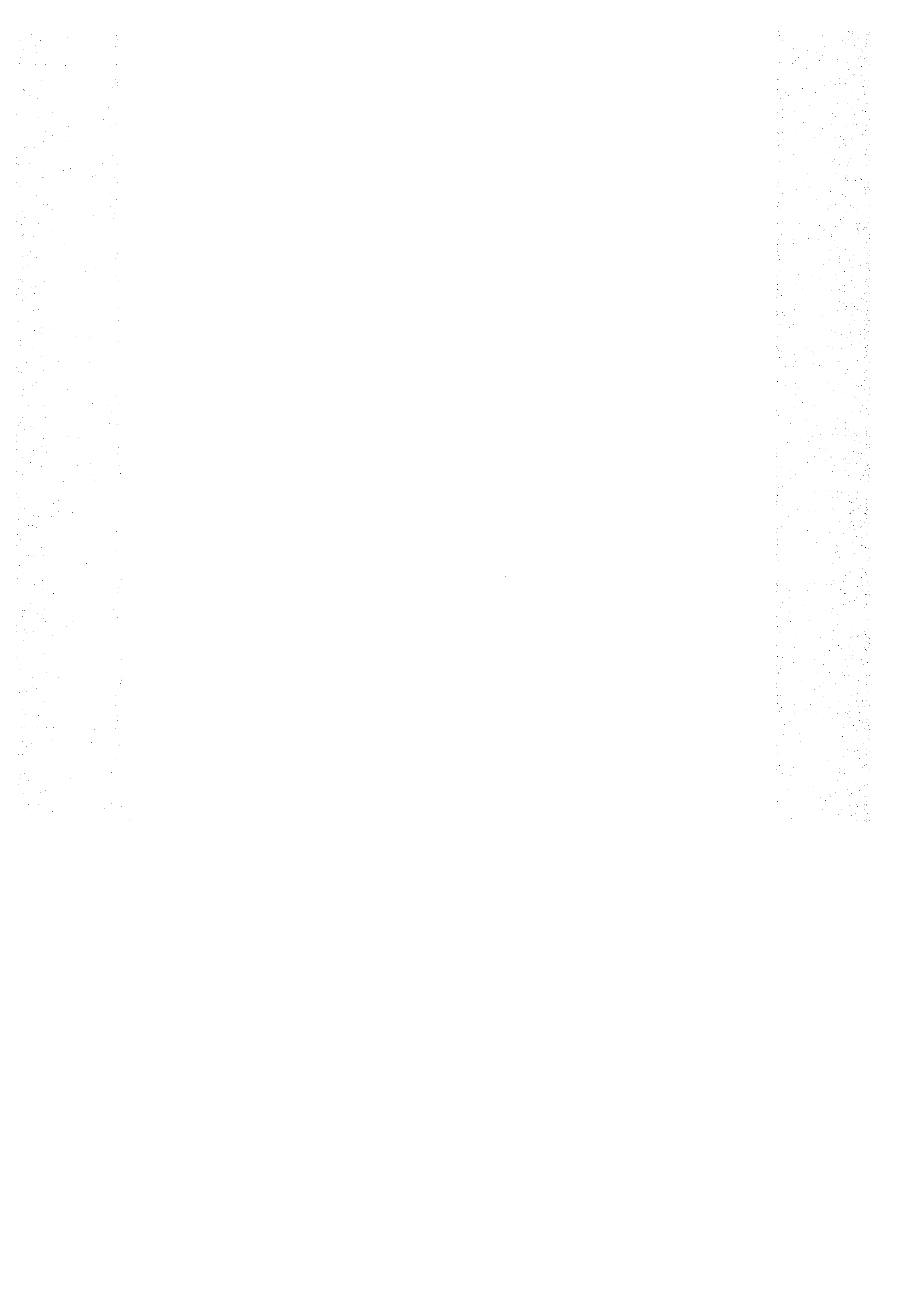
ذلك كله بفضل الله الذى جعل مصر هبة النيل.

---

(٩) المسعودى: مروج الذهب.



الدم المشترك بين اليهود والعرب



الدم المشترك بين اليهود والعرب

قد يكون صحيح عنوان هذا الحديث: تزييف تاريخ العرب والمسلمين على أيدى اليهود والمشركين. هو الصدق الذى نحن بصدد إبرازه. إذ ثبت أن أول جريمة نصب وسرقة فى تاريخ البشرية اقترفها اليهود فى حق شعب مصر، ويمكن لمن أراد أن يعود إلى تفاصيلها سيجدها مدونة فى كتاب «العهد القديم».

حين أمر موسى عليه السلام اليهود أن يخرجوا بليل من مصر هربا من فرعون وجنوده فاحتالت كل إمرأة يهودية على جارتها المصرية، طالبة أن تعيرها حليها ثم ترده إليها، لكنهن هربن بما يزيد على قنطارين من قطع الذهب المشغولة، وللآن لم يسترد المصريون منه لا قرطا ولا خاتما. وبانصرام الزمن عادوا إلى حياتنا بأساليب من الابتزاز والتزييف فى محاولة للسيطرة على قرائح العقول المصرية، وذلك مثبوت فى جلاء منذ ما قبل ظهور الرسالات السماوية حتى العصر الإسلامى.

إنهم ينامون بعيون تعج بالكراهية آملين أن يروا مصر مشلولة الإرادة حتى لا تلحق بركب المجد والتطور.. هكذا نصبح ونمسى فنلقى الحياة يلتف حولها ضلع أعوج، ولسان إذا حدث كذب، وإذا اجتمع معنا على اتفاق خان ونكث العهد، وحافظة التاريخ فيها الكثير والكثير، وفيها الوقائع، وفيها الشهود على أن هؤلاء يحذقون أساليب السطو على كل جميل خلفه لنا الجدود والآباء، كما يدعون أنهم بناة حضارة وادى النيل، وهم باقتضاب دائمى الإدعاء، والمزاعم، والهرف:

«لذلك تقلدوا الكبرياء، جحظت عيونهم من الشحم، جاوزوا تصورات القلب، يستهزؤن ويتكلمون بالشر ظلما، من العلاء يتكلمون، جعلوا أفواههم فى السماء وألسنتهم تتمشى فى الأرض [١]».

وما يثير الدهشة والاستهجان معا أن دول الغرب التى تتحدث عن الديموقراطية والعدالة هى نفسها الداعمة لمواقف اليهود على حساب قضايا الشعوب العربية العادلة. لأنها بسبب بسيط ترى فى استيطانهم لأرض فلسطين إمتدادا أفقيا لتوسيع خارطتهم الإستعمارية.

ولعلنا حين نعود لبؤرة الكراهية التى يكنها الصهاينة لشعوبنا العربية، سنجد من بين أسبابها ذلك الدم المشترك بيننا وبينهم، فنحن ساميون وهم ساميون.. من حيث العنصر والجنس، نحن من نسل خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وترجع العرب جميعا فى الإسم إلى يعرب بن يشجب بن نابتَ بن إسماعيل بن إبراهيم. وتوضح التووراة أسماء بنى إسماعيل حسب مواليدهم وهم: بنايوت بكر إسماعيل، وقيدار وادبئيل، وبيسام، ومشماع، وودومة، ومسا، وحدار، وتيما، ويطور، ونافيش، وقدِمه.

هؤلاء بنو إسماعيل اثنا عشر رئيسا حسب قبائلهم، وعن هؤلاء الأثنى عشر رئيسا تفرعت بطون وأفخاذ وعشائر وكلها من العرب سكان البادية.

ودانت العرب باليهودية والمسيحية وبعضهم عبد الأوثان كاللآت والعزى، ويعوث، ويعوق، وشمس، وجهار، وهبل، ونسر، وسواع، وود،

(١) المزمور الثالث والسبعون، مزمور لآساف.

وإساف، ونائلة، وذى الكفين، ومناة، وسعد، وذى الخلصة.

ومن حيث النسب، يعتبر سيدنا إسماعيل الأخ الأكبر لسيدنا يعقوب عليهما السلام ولد ابراهيم من زوجته السيدة سارة.

إذن، هل ينبغى أن يكون بيننا وبين هؤلاء ما يفسد على الجميع الحياة؟.. من هى الشخصية التآمرية التى تؤرث الخلاف، وتنفخ فى نار الكراهية والعداء؟.. هل نحن وهؤلاء تحكمنا ميول شخصية تنأى بالتنافر وتؤثر عدم الإقتراب من نقطة التماس؟

إذا عدنا لمصطلح الشخصية فى العلوم الإنسانية نراه يقصد به التنظيم الدينامى لسمات وخصائص ودوافع الفرد النفسية والفسيولوجية والجسمية بما يكفل له التوافق مع الآخرين:

«وفى هذا الصدد يعرف انجلش الطابع القومى بأنه «الخصائص الثابتة نسبيا والأكثر وجودا وانتشارا فى أمة معينة».

وبما أن العرب تضمهم جميعا قومية واحدة، لم يعد وجودها الواقعى محل شك، حيث اللغة المشتركة، فإن الشخصية العربية تفرض عندئذ وجودها حقيقة قائمة وواقعا ملموسا لا سبيل إلى نكرانه، وإن اختلف الناس بين مؤيد يريد تقوية هوية الأمة العربية، أو معارض يريد تقويضها وهدمها (٢)».

أما آن الأوان للعالم الحر لكى يؤب إلى رشده ويدرك أبعاد الشخصية الصهيونية المتآمرة التى نؤكد أنها تحيق به؟.. ألم يحن الوقت لكى ينظروا فى مستقبل أولادهم حتى لا يصبحوا ذخيرة آدمية لمدافع الشخصية

.(٢) د. فرج عبد القادر «علم النفس وقضايا العصر» دار المعارف، مصر ١٩٧٩ ص ١٨٠.

الشيطانية؟.. أم ترى أن المصالح المشتركة تجعلهم غير قادرين على غسل أياديهم من دماء البشر؟!

لقد صنع المصريون معهم كل جميل.. لكن بذور الأحقاد كانت تنمو فى صدور العبرانيين منذ أن استقبلتهم مصر وفتحت لهم الأبواب على مصراعيها.

هناك عاشوا بجوار المعابد، وامتلأت منهم الأسواق، وتحت ظلال شجرة العقيدة والعلوم فى حياة المصريين. حصل العبرانيون على قسط منهما، ولم تكد تمضى الأيام بهم حتى التبسهم الوهم وقالوا أن كل هذا من عندهم، وتناسوا أنهم قدموا إلى مصر من حياة البدو وليعيشوا فى كنف مصر الحضارة والإزدهار.

وحديثا يسودون الصفحات ويملؤنها بالزيف، وتكثيف الحملات لإقصاء فكرة نسبة السامية عن المصريين، بينما يسلم المصريون بأنهم ليسوا وحدهم الساميين:

«إن المجموعة السامية تنقسم فعلا إلى فرعين: يشمل الفرع الأول المجموعات الآشورية والآرامية والعبرية والفينيقية، ويشمل القسم الثانى المجموعات العربية أما الآراميون فهم أفقرها. ويقع العبرانيون فى منطقة متوسطة بين هذين العرقين [٣]».

إنهم إذا كانوا يعترضون على ما نزل على موسى من آيات الرب فى طور سيناء فكيف تصدقهم الشعوب إذا أشاعوا الشكوك حول محتدنا وأرومتنا؟ يدللون على صحة زعمهم بأن إسماعيل هو ابن جارية أهداها

(٣) راجع موسوعة بيرز ص ٥١٤-٦٤٧.

« أبيمالك » أو أبى مالك ملك مصر لسيدنا ابراهيم حين حل وعشيرته بها فى فترة الجدب التى أصابت ـ آنذاك ـ أرض فلسطين.

وما هو أشر من هذا وأمر. أنهم عكفوا على تلقين أولادهم مبادىء النزعة العنصرية، وأن أبناء الأغيار (الأمم الأجنبية) لا يعترف بهم، كأنهم أولاد غير شرعيين، وأن هاجر المصرية كانت جارية فى قصر فرعون. غير أن كتب التاريخ تؤكد أنها كانت أميرة مصرية، ولايزالون يرسخون فكرة أن من كانوا على شاكلتها فإن الله قد خلقهم ليكونوا أرقاء وعبيدا لليهود.

ومن الغرابة أن يكون لهم فى ذلك قصص، يطلون من خلالها ـ كنافذة على إسناد دينى عثروا عليه فى قصة « حامى » حين كشف الغطاء عن جسد أبيه « نوح » عليه السلام، وراح ينظر إلى عضوه التناسلى، ولم يكتف بالضحك عليه، لكنه نادى على أخويه « سام ويافث » لكى ينظرا فى عضوه ويضحكان مثله، وعندما انتبه نوح دعا على حام « كنعان » بأن يصبح أولاده عبيداً لأولاد أخويه :« سام ويافث ».

لا أحد يجيد سبك القصص الكاذبة فى حياتنا سوى اليهود. لقد دسوا هذه الحكاية بين إصحاحات العهد القديم حتى أضحت مبررا دينيا وأديولوجيا ثابتة يعتنقها اليهود على مر العصور، ومن نسيج هذه الحكاية. وجد المسيحيون الكاثوليك فى أوروبا ما يحفزهم على استعمال نظام الرق لعدة قرون.

لقد حذق اليهود أساليب الخديعة وتزييفهم للتراث يشهد على براعتهم فى تلبيس الباطل ثياب الحق، وفى ذلك يقول عالم الآثار الكندى « ردفورد »:

« انطلق الحديث من جديد عن موسى وآياته، وإن كانت الأسفار الخمسة لم نستدل منها على شيء من حياته، ربما بسبب فقدان اليهود لها، ولا ندعى أن يكون وراء ذلك هدف خبيث، وإن كان اليهود ـ عادة ـ فيما يختص بمصالحهم الدنيوية لا يتورعوا أن يكون وراء المقاصد المعلنة أهداف خبيثة غير معلنة.

من ذلك ما يشاع على صفحات الأسفار حيث تنسب إلى موسى كثيرا من الأوامر غير الشريفة التى تحض على النهب والسلب وإشعال الحرائق (٤) ».

ونحن لا نعرف شيئا من أسباطهم إلا ما دون بأيديهم فذكروا:

« إن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بنى اسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعدا، وأن يجعل كل سبط نقيبا منهم، السبط الأول: سبط روبيل لأنه بكر يعقوب، وكان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفا وخمسمائة، ونقيبهم منهم وهو: اليصور بن شد يئور، السبط الثانى سبط: شمعون، وكانوا تسعة وخمسين ألفا وثلاثمائة ونقيبهم شلوميئيل بن هور يشداى، السبط الثالث: سبط يهوذا: وكانوا أربعة وسبعين ألفا وستمائة ونقيبهم نحشون بن عمينا ذاب، السبط الرابع: إيساخر، وكانوا أربعة وخمسين ألفا وأربعمائة ونقيبهم نشائيل بن صوعر، السبط الخامس: سبط يوسف عليه السلام، وكانوا أربعين ألفا وخمسمائة، ونقيبهم يوشع بن نون، السبط السادس: سبط ميشا، وكانوا أحداً وثلاثين ألفا ومائتين ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور، السبط السابع: سبط بنيامين

(٤) راجع: سفر العدد ٣١ :١٨.

وكانوا خمسة وثلاثين ألفا وأربعمائة، ونقيبهم: أبيدن بن جدعون. السبط الثامن: سبط جاد، وكانوا خمسة وأربعين ألفا وستمائة، وخمسين رجلا، ونقيبهم: إلياساف بن رعوئيل، السبط التاسع: سبط أشير، وكانوا أحداً وأربعين ألفا وخمسمائة، ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن. السبط العاشر: سبط دان وكانوا إثنين وستين ألفا وسبعمائة ونقيبهم أخيعزر بن عمشداى. السبط الحادى عشر: سبط نفتالى وكانوا ثلاثة وخمسين ألفا وأربعمائة. ونقيبهم: الباب بن حيلون.

هذا نص كتابهم الذى بأيديهم والله أعلم (٥)».

ونشير بأن هذه الصحيفة لم يذكر فيها بنى لاوى فقد أمر الله موسى بأن لا يعدهم مع من سلف ذكره، لأنهم موكلون بحفظ قبة الشهادة: «قبة الزمان»، وضربها والمحافظة عليها وخزنها، ثم حملها عند الارتحال، وسبط موسى وهارون عليهما السلام، وكانوا يسيرون فى وسط بنى إسرائيل، وهم القلب ورأس الميمنة بنو روبيل، ورأس الميسرة بنو دان وبنو نفتالى.

وتعتبر التوراة كتابا تمت صياغته بجهود ذاتية، وهى تجميع لأساطير وأفكار الشرق الأدنى القديم. اجتر معظمها جامعو الأسفار من الذاكرة وصاغها كل واحد منهم حسب رؤيته التاريخية والتأريخية، وقد صيغت معظم الآيات التى نزلت على موسى فى طور سيناء بصيغة تحريفية.

ثم، ومن بعد، تنوعت فيها الأقلام، ومنها الترجمة السبعينية التى التف يهود الأسكندرية حولها على اعتبار أنها أول ترجمة باللغة اليونانية، وترجع

(٥) ابن كثير (قصص الأنبياء) دار الكتب الإسلامية ١٤٠١ هـ ١٩٨١م ص ١٨٩-١٩٠.

تاريخها إلى القرن الثالث ق.م، وهى مذيلة من قبل رواة التاريخ الشفهى بعبارات ناعمة، تزخر بقوة الخيال، وقد ظلت هذه الترجمة معتمدة حتى القرن السابع الميلادى.

ولعلنا من خلال هذه الكتابات نكون قد عرفنا أحجام أنبياء بنى اسرائيل حيث قسم مؤرخو «العهد القديم» أنبياءهم إلى أنبياء كبار وصغار ووضعوا على رأس الأنبياء الكبار:

«أشعيا» و «أرميا» و «حزقيال».

والأنبياء الصغار: هم:

«يوشع» و «يوئيل» و «عاموس» و «عويديا» و «يوثان» و «ميخا» و«ناخوم» و «حبقوق» و «صفنيا» و «حجاى» و «زكريا» و «ملاخى».

ثم قسموا أنبياءهم إلى قسمين:

أنبياء قبل السبى.

أنبياء بعد السبى.

من أنبياء قبل السبى:

«هوشع حوالى ٧٥٠-٧٢٢ق.م» وقد عاصر عزيا ويوثام وأحاز وحزقيال فى المملكة الجنوبية، وعاصر يربعام الثانى بن الملك سليمان فى المملكة الشمالية.

من أنبياء ما بعد السبى البابلى:

«حجاجى حوالى ٥٢٠ ق.م»، عاصر دارا ملك الفرس و «زكريا حوالى ٥٢٠-٥١٨ ق.م» وفى عصره عاش «عويديا حوالى ٤٥٠ ق.» و«ملاخى حوالى ٤٥٠ ق.م» و«يوئيل حوالى ٤٥٠ ق.م» و «حزقيال أيام نبوخذ نصر

الكلدانى ملك بابل » و« أرميا أيام نبوخذ نصر » .

ويلاحظ أنه لم يكن يوجد أى تباين فى مواقف هؤلاء الأنبياء الأوائل واللاحقين منهم. خاصة فى ما يتعلق منها بالدعوة إلى محبة الله الذى من ثمر أعماله تشع الأرض، وهو الذى (يسكب هوانا على رؤساء ويضلهم فى تيه بلا طريق) . . كل أنبياء اسرائيل اجتمعوا على هذا القول. بينما كانت آداة القتل تستعمل ضدهم بقوة مشاعر عدم الرضى والسخط على الأنبياء بعد أن شنوا حملة شعواء ضد جماعة يسرائيل لإنزلاقها فى الشرك والحلولية.

ما فتىء أنبياء بنى إسرائيل يطالبون الشعب بالعودة إلى التمسك بالفضيلة ونقاء الروح حتى بدأت ملامح التوحيد تظهر من جديد، ثم لاح فى أفق الزمان بزوع معالم مرحلة لم يعد الإله فيها حكرا على جماعة يسرائيل، وخاصة حين فتحت الدعوة المحمدية صدرها بالثناء، والشكر، و (الحمد لله رب العالمين) .

فى تلك الأوقات كان المسلمون لا يزالوان يتخذون من القدس قبلة لهم حيث توجد « قبة الزمان »، ولم يلبث الأمر غير مريح. خاصة وأنه بعد اجتماعهم على مشاركة اليهود فى قبلتهم. اتسعت دوائر حملات التشهير برسول الله ﷺ ورميهم إياه بما ليس من صفاته . . بعدئذ، كيف يُتجه لرب العالمين عن طريق قبلتهم؟ .

أدار النبى ﷺ عينيه فى السماء، وسرعان ما رأى استجابة الله حين أمره سبحانه وتعالى بتحويل قبلة المسلمين:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ

شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾(٦)».

فما هى حكاية «قبة الزمان» التى كانت قلوب المسلمين تتجه إليها فى صلاتهم؟

يقول أهل الكتاب:

أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاز وجلود الأنعام وشعر الأغنام، وأمر بزينتها بالحرير المصّبغ بالذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب، ولها عشر سرادقات، طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعا، وعرضه أربعة أذرع. ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمَقسْ مصّبغ، وفيها رفوف وصحائف من ذهب وفضة، ولكل زاوية بابان وأبواب أخرى كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره.

ويعمل تابوت من خشب الشمشاز يكون طوله ذراعين ونصفا. وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعا ونصفا، ويكون مضببا بذهب خالص من داخله وخارجه، وله أربع حلق فى أربع زواياه، ويكون على حافتيه كُروبيان من ذهب. يعنون صفة ملكين بأجنحة وهما متقابلان صنعة رجل اسمه «بصليال».

وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز طولها ذراعان وعرضها ذراعان، ولها ضباب ذهب وأكليل ذهب بشفة مرتفعة بأكليل من ذهب وأربع حلق من نواحيها من ذهب، مغرزة مثل الرمان من خشب ملبس ذهبا، وأن يعمل صحافا ومصافى وقصعا على المائدة، ويصنع منارة من الذهب دلّى

(٦) البقرة: ١٤٢-١٤٣.

فيها ست قصبات من ذهب . من كل جانب ثلاث سراج، وليكن فى المنارة أربعة قناديل، ولتكن هى وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب . صنع ذلك « بصليال » أيضا، وهو الذى عمل المذبح أيضا .

نصبت هذه القبة أول يوم من سنتهم، وهو أول يوم من الربيع، ونصب تابوت العهد (الشهادة، وهو ـ والله أعلم ـ المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

وقد بسط هذا الفصل فى كتابهم مطولا .

ومن الأقوال فى قبة الزمان : إنها تشبه إلى حد كبير مظلة الخلفاء الفاطميين التى وصفها المقريزى بدقة فى (اتعاظ الحنفاء ٢ / ٩٧) أما السفر الذى تذكر شرائعهم وأحكامهم من التوراة المتداولة فهو « سفر التثنية » وفيه شرائع وأحكام وصفة قربانهم، وكيفيتة، وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذى هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها، ويتقربون عندها وينزل عمود الغمام على بابها فيخرون عند ذلك سجداً لله عز وجل .

ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذى هو نور ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبين فإذا فصل الخطاب يخبر بنى إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهى .

وإذا تحاكموا إليه فى أمر ليس عنده شىء من الله فيه شىء، يجىء إلى قبة الزمان ويقف عند التابوت، ويعمد لما بين ذينك الكروبيين، فيأتيه الخطاب

بما فيه فصل الأمور .

في ذلك الوقت كان العرب يعظمون الكعبة ويدورون حولها في تقديس باعتبارها المعبد الذى يضم آلهتهم التى يعبدونها من الأصنام، ومع ظهور الإسلام، صارت الكعبة مقدسة بعد أن عاد النبى ﷺ إليها من المدينة، وحطم أصنامها التى بلغ عددها ٣٦٠ صناما لآلهة متفرقين، وفى ذلك أشار القرآن الكريم إلى الكعبة بعدة أسماء، منها :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾ «(٧)» .

وأخذت الكعبة اسم : «البيت العتيق» :

﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ «(٨)» .

واسم البيت المعمور :

﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ «(٩)» .

واسم البيت المحرم :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ «(١٠)» .

وبالعودة إلى المجازر التى راح ضحيتها أنبياء اليهود . نجد أن التوراة دونت أسماء بعض الأنبياء وملوك بنى اسرائيل ومن عاصروهم من ملوك مصر وآشور وبابل، مثل : رحبعام بن سليمان ملك يهوذا الذى ترك عبادة التوحيد وعاد إلى عبادة العجل الذهبى فى زمن الملك المصرى شيشاق (شاشانق فى

(٧) المائدة : ٩٧ . (٨) الحج : ٢٩ .
(٩) الطور : ١ . (١٠) ابراهيم : ٣٧ .
* : سفر الملوك الأول : ١٤ : ٢٥ .

اللغة المصرية القديمة (*).

وجاء الملك المصرى ترهاقة (تهروق أو تهارقة فى اللغة المصرية القديمة) كمعاصر للملك أحاز(**).

وذكر الملك المصرى نخو (بالمصرية نخاو) كمعاصر لليوشيا ملك أورشليم *** وجاءاسم حفرع (بالمصرية حح - ايب - رع) كمعاصر للنبى أرميا ****.

ومما هو جدير بالذكر فى العقيدة الإسلامية أن معظم الشخصيات التوراتية مقدسة، وأن المسلمين عامة لعلى يقين أن بنى إسرائيل من ذرية الأنبياء العظام: ابراهيم وإسحق ويعقوب، وأن اليهود - فى حياة موسى عليه السلام - شهدوا من آيات الله، . ونالوا الكثير من العطاء والنعم بما لم يحظ به غيرهم. لكنهم كانوا لا يقدرون هبات الله، ولا يقابلونها بالحمد، وإنما بسحل الأنبياء وقتلهم.

ومضوا فى ركب ملوثى الأيدى بالدماء، والنفوس بعماء الكبرياء، وفى زمننا المعاصر اختمرت فى أرواحهم مشاعر الشياطين فأسفر هذا كله عن نزعة التعصب:

« لا أقصد بالتعصب ذاك الذى قد نجده مدسوسا كالسم فى العسل فحسب.. ولكننى أقصد كافة أنواع التعصب حتى ذلك التعصب للعقل فى فهم العبارات العامة أو الغامضة أو غير المحددة وما ينشأ عنه من تعسف

** : سفر الملوك الثانى: ١٩.

*** : سفر الملوك الثانى: ٢٣ :٢٦.

**** : سفر أرميا ٤٣ :٨.

فى فهمها وفهم أركانها وشروطها، أو حتى التعصب للجنس البشرى فى فهم الكون، وما قد ينشأ عن ذلك من تفسير شبه مادى للتاريخ، أو التعصب للحاضر فى فهم الماضى وما ينشأ عن ذلك من نظرة جوفاء متعالية (١١)».

والتعالى آفة بشرية تنسج خيوطها اليهودية أو الصهيونية العالمية فترى أن الإنسان عاش أحقابا من الدهر وهو كالحيوانات العجماوات لا يتمتع إلا بعقل وأفكار العبيد.

تلك النظرة يرفضها الإسلام والمسلمون، ولا يقبل أحد منهم تلك المعالجات لحياة الأنبياء بالشكل الذى أوردته التوراة على وجه من النقائض والإختلاف عن ما ورد ذكره فى القرآن الكريم، الأمر الذى يشكل فى حياتهم طعنا فى الدين وحملة الرسالة.

لنأخذ على سبيل المثال لا الحصر شخصية سيدنا ابراهيم عليه السلام فقلوب المسلمين تعمر بذكره، وهو الذى رفع القواعد من البيت المعمور فيدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة:

﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [آل عمران: ٦٧].

والأحناف كانوا جماعة فى الجاهلية يستمسكون بالجانب السلوكى (الأخلاقى) ومن هذه الجماعة:

«قس بن ساعدة الأيادى، وزيد بن عمرو بن تفيل، وأمية بن أبى الصلت، وأرباب بن رئاب، وسويد بن عامر المصطلقى، وأسعد بن كرب

(١١) د. محمد الجوادى (أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى) دار الشروق - القاهرة ١٤١٥ هـ ١٩٩٥م، طبعة أولى، ص ٣٢، ٣٣.

الحميرى، ووكيع بن سلمة بن زهير الأيادى، وعمير بن جندب الجهنى، وعدى بن زيد العبادى، وأبو قيس صرمة، بن أبى أنس، وسيف بن ذى يزن، وورقة بن نوفل القرشى، وعامر بن الظرب العدوانى، وعبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة، وعلاف بن شهاب التميمى، والمتلمس بن أمية الكنانى، وزهير بن أبى سلمى، وخالد بن سنان بن غيث العبسى، وعبد الله القضاعى، وعبيد بن الأبرص الأسدى، وكعب بن لؤى بن غالب (١٢)» .

كان من بين هؤلاء من عاشوا فى الجاهلية، وكان منهم من أدرك الإسلام، وقد التقى هؤلاء - مع التفاوت الزمنى - على مبدأ رفض عبادة الأصنام وتعدد الآلهة والايمان بوجود إله واحد :

« وقد طاف بعضهم فى الأرض بحثا عن دين ابراهيم الحنيف، وأن منهم من كان قد قرأ الكتب السماوية وفهمها، وأنهم كانوا يتأملون فى هذا الكون، وأنهم تجنبوا الخمرة، والأعمال المنكرة ونصحوا الناس بالابتعاد عن الأصنام والتقرب من الله (١٣)» .

لم يكن البحث فى التوحيد، وفى خالق السموات والأرض وقفا على قدماء المصريين وحدهم، ولكن العرب كانوا يهتمون بالبحث عن موقف اعتقادى من العالم، يعطى دلالة بأن الإله ليس صنما، وهو موقف يختلف فى ذات الوقت عن موقف اليهودية والنصرانية، وقد ورد ذكر هؤلاء فى القرآن الكريم .

(وردت كلمة « حنيفا » بصيغة المفرد وبصورة وصفية مقترنة باسم

---

(١٢) جواد علي، ج، ص ٢٧

(١٣) المصدر السابق : ص ٧٥

« ابراهيم » فى خمس من السور القرآنية (البقرة : الآية ١٣٥) ، (آل عمران : الآية ٦٧–٦٨ ، النساء : الآية ١٢٥ ، الأنعام : الآية ٧٩ ، ١٦١ ، النحل : الآية ١٢٠ ، ١٢٣) .

ووردت غير مقترنة باسم « ابراهيم » فى سورتين (يونس : الآية ١٠٥ ، الروم : الآية ٢٠ ، ووردت كلمة « حنفاء » ـ بصيغة الجمع فى سورتين (الحج : الآية ٢١ ، والبينة : الآية ٥) .

فى سورة البقرة (الآية ١٣٥) : ﴿ **وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ .

هذا هو سيدنا ابراهيم عليه السلام فى جلاء .

غير أن كتبة التوراة عالجوا حياته فى سياق قصصى لا يرقى إلى مستوى السورة القرآنية ، وقيل فى ذلك أن الأمر يتطلب ضرورة الفصل بين الشخصيات الدينية الكبرى وبين الفصول المنتخبة من التاريخ ، وهو زعم ـ حسبما نرى ـ يُحَمِّل هذه الشخصيات الدينية من الأعمال البشرية بشكل بتناقض مع فضائل الصفات النبوية .

إن المعصومين من الشرور هم الرسل والأنبياء ، والأئمة ، إلا إذا دخل بعضهم فى وضع ابتلاء من الله ، نراهم قبيل الوقوع فى الزلل كيف يخرجون من المحنة بالشكر لله على ما أولاهم من العصمة والبرهان ، كما فى مثل :

﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ (١٤) » .

وفى هذا الشأن يستوقفنا رأى للدكتور عبد الوهاب المسيرى ، يقول

(١٤) يوسف : ٢٤ .

فيه :إنه عندما تدرس سيرة ابراهيم التوراتى، أو موسى التوراتى، أو يوسف التوراتى يجب أن نحاول فهم الشخصية أولا فى سياقها التوراتى، ثم فى سياقها اليهودى.

معنى ذلك أننا مطالبون ـ للتعرف على خاصية اليهود ـ أن نصطحب معنا كماً من التاريخ التآمرى حتى نسبر أغوار هذه الشخصية، دون أن نتوقع ـ بالضرورة ـ مطابقة النص المقدس بأحداث النص التاريخى.

إن الخطورة الناجمة عن وجود أكثر من نص لحالة واحدة بين أيدينا تكمن فى أنها تفتح الباب للتأويل. بحيث تصبح لكل واقعة فى حياة الرسل والأنبياء أكثر من رأى قد يلحق الضر لا بالأشخاص فحسب، وإنما قد يصل بأفنه وحمقه إلى حدود التطاول على جذور الرسالات السماوية، ثم العمل على إقصاء أوامر الله تحت ذرائع ما تمليه الضرورة وسنن التطور.

ويعود الأمر كله لأننا ـ تبعا لما تمليه علينا الشخصية اليهودية من تهيؤات وافتراضات ـ نجد أننا أمام سياقين يرتبطان بفيزيقية الشخصية اليهودية فهل حدث ذلك فى حياتنا لأن هذه الازدواجية هى خاصية من أهم مكونات الشخصية التاريخية اليهودية؟

من تلك المنابع، أوجد اليهود لهم قاعدة إستثنائية على العكس من النوع الإنسانى تماما، حتى صاروا حالة ملتبسة، تحتاج دوما للمؤازرة والتعاضد من خارج النص التوراتى، وبما أنهم ينطوون على يقين بتحريف ما نزل على موسى فصار من الطبيعى الأخذ بأسباب طلب ترميم الصدع فى حياتهم، والتلاعب فى صياغة الشخصيات الدينية (دون أن نتوقع بالضرورة مطابقة النص المقدس، وأحداث التاريخ).

بالنسبة لقصص الأنبياء فى القرآن الكريم تطالعنا إختلافات المستشرقين وانكارهم صحة ما جاء فيها، ويؤكد الدكتور محمد أحمد خلف الله بأن هؤلاء تنكبوا الطريق والصواب، وأخفقوا فى التمييز بين القصص التاريخى وما أريد به الموعظة والعبرة، وهما « حقيقة أدبية » أكثر منها تاريخية.

ويقدم خلف الله قسما كبيرا من دراسته للمسائل السيكولوجية (النفسانية) والسوسيلوجية (الإجتماعية)، ولم يخض فى المسائل الإلهية.

أما فى شأن الوحى الإلهى فيرى اليهود والنصارى إنها أسطورة، وصارت واقعية هذا الفكر لا تتناص مع حرف واحد من « المقدس الإلهى »، ثم تمخض ذلك عن أديولوجيا لهج أتباعها بلسان يشيع بأنه سيأتى فى كل جيل من يدينون بتحديث لغة « النص المقدس »، وهو ما كان يحاول أن يصنعه معنا الرئيس السابق « جورج بوش » حين أصدر « مشروع إصلاح وتطوير الشرق الأوسط »، ومعه مجموعة المسيحيون الجدد، وجميعهم أصروا على « تجديد » لغة القرآن آملين أن تُفرض علينا « لغتهم الحداثية » : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠] و: ﴿ كتب عليكم القتال كما كتب على الذين من قبلكم ﴾.

لقد صنعت الولايات المتحدة الأمريكية ذلك سلفا فى الكتب المسيحية، بالذات الأناجيل الأربعة مما أذاب الكثير من الخلافات بين اليهود، ومن يطلق عليهم المسيحيون الجدد، كأنها كانت تريد أن تقول للمسلمين ـ بالذات ـ لنكن معا شركاء على درب « الإصلاح والتطوير »!!

إن الديانات السماوية ليست رواية جيب يتسلى بقراءتها ركاب المترو أثناء الذهاب إلى العمل، وأنها ليست كتابا فى الفلسفة يمكن الحذف منه

أو إضافة نظرية جديدة، بينما الفرق يبدو جليا بين الفلسفة والدين فالدين هو مصدر المعارف وهو يعنى بالعقيدة والإيمان أى إيمان: «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، والإسلام لا يرغم أحداً على اعتناقه: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، أما الفكر والعلم فهما يقبلان الجدل والنقاش، ووجهات النظر المختلفة.

من ثم يصبح الأمر مُريعا بل وشاذاً بالنسبة للمسلمين حينما يرون العلاقة التى تربطهم بالأنبياء تتهددها الأقلام المسفة فى حق هؤلاء.

إن المسلمين يصدقون أن «ابرام» كان يعنى بالعبرية «الأب الرفيع»، ثم تغير اسمه من ابرام إلى ابراهيم حين رزق بإبنه إسماعيل، أما حين تعرفه الرواية التوراتية بأنه «أب الشعب اليهودى» فهو أمر يبعث على الاستهجان والإزدراء لأن اليهود يقصدون من وراء «أبى الشعب اليهودى» ألا يغرى ذلك أحد من الأغيار (*) فيزاحمونهم فى هذه الأبوة!!

ومن المعروف أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وصل وعشيرته إلى مصر فى عهد الهكسوس فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وأنه عاش حوالى ٢٥٠ سنة، أما بخصوص قصة الذبيح فقد كذب اليهود حينما يدعون أن الذبيح ليس اسماعيل عليه السلام.

لقد أسسوا من حادثة الذبيح قاعدة تدعم المؤامرة الكبرى ليشهدوا العالم أن الله ـ وليس البشر فحسب ـ قد ابتلاهم بأمر من عنده، وهم دائما على البلاء صابرون! وتجاوزوا التفسير العقلى والواقعى فى قول ابراهيم عليه السلام

(*) الأمم غير اليهودية.

لإبنه إسماعيل: ﴿ **إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الصافات: ١٠٢].

فى ذلك قال السدى قد اختلف جماعة من العلماء فى الذبيح فمنهم من قال إنه إسحاق وأهل التوراة يرجحون ذلك والأشهر إنه إسماعيل لقول بعض العرب للنبى ﷺ يا ابن الذبيحين وهما اسماعيل عليه السلام وعبد الله الذى فداه أبوه بمائة بعير. قال ابن عباس رضي الله عنه إن إبراهيم نذر فى سره إن ولد له ولد ذكر ليذبحنه قربانا إلى الله تعالى فلما تمادت عليه الأيام والليالى نسى ما نذره (قال) السدى إن ابراهيم رزق إسماعيل قبل إسحاق بثلاثين سنة فبينما ابراهيم نائم إذ رأى فى منامه قائلا يقول له يا ابراهيم إن الله يأمرك أن تفى بنذرك وهو ذبح ولدك بيدك فانتبه ابراهيم وهو مذعور فكان يرى تلك الرؤيا فى سبع ليالٍ متوالية فعزم على ذبح ولده. قال السدى لما قوى عزم ابراهيم على ذبح ولده ناداه إسماعيل خذ معك حبلا ومدية قال وما تصنع بهما يا أبت قال اذبح كبشا قربانا إلى الله تعالى فانطلق هو وابنه إسماعيل وسار به إلى شعب جبل عند وادى منى فبينما هما يمشيان إذ تعرض إبليس اللعين لإسماعيل بصورة شيخ فقال إلى أين تمضى يا إسماعيل قال ليقرب أبى قربانا إلى الله تعالى فقال إبليس أتدرى ما القربان الذى يقر به أبوك قال لا قال إنه يريد أن يذبحك وقد جئتك ناصحا فقال يا إبليس أيفعل هذا أبى من قبل نفسه أم بأمر ربه فقال إبليس بل بأمر ربه فقال اسماعيل إذا كان الذبح بأمر ربى فكيف أعصى ذلك فرجع إبليس خائبا فكان كلما يتبع إسماعيل يرميه بالحصى ففعل ذلك به سبع مرات فصار من يومئذ رمى الجمار سنة فلما وصل ابراهيم إلى شعب الجبل جلس وقال لإسماعيل إن الله تعالى أوحى

إليّ بذبحك وقد رأيت ذلك فى المنام سبع مرات فى سبع ليالٍ متوالية فقال اسماعيل ﴿ **يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الصافات : ١٠٢]. فلما رأى إبليس جلس على الجبل ليرى ما يكون من أمرهما ثم إن إبراهيم أضجع ابنه على جنبه الأيمن وشد يديه ورجليه بحبل فقال اسماعيل يا أبت لا تشد رجلى ويدى بالحبل لئلا تقول الملائكة قد جزع من أمر ربه فحله واستمر إسماعيل مضجعا على جنبه الأيمن من غير وثاق ثم إن ابراهيم عليه السلام وضع المدية على نحر إسماعيل وصار يحز بها مرارا فلم تؤثر فى نحره ولم تخدش شيئا فعندئذ ضجت من هذه الواقعة ملائكة السماء والأرض والطير والوحوش والحيتان فى البحر ونطق الكل بالابتهال إلى الله وصاروا يقولون إلهنا وسيدنا ومولانا إرحم هذا الشيخ الكبير وافدِ هذا الطفل الصغير فلما رأى إسماعيل أن المدية لا تقطع نادى يا أبت انخع بالمدية فى لبتى فنخعه بها فى لبته نخعا بليغا فغابت المدية فى نصابها ثم قال إسماعيل لأبيه يا أبت كبنى على وجهى فانك إذا نظرت إلى وجهى ترحمنى فكبه على وجهه ووضع السكين وحزبها فلم تؤثر فى ذلك كله فغض ابراهيم ورمى السكين من يده فأنطق الله تعالى السكين وقالت يا إبراهيم أنا بين أمرين فالخليل يقول إقطعى والجليل يقول لا تقطعى وإنى من الجليل لا من قبل الخليل وكيف أقطع فى نحر إسماعيل ونور محمد ﷺ فى جبهته يلمع ثم إن الله أوحى إلى ابراهيم ﴿ **أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الصافات : ١٠٤-١٠٧]، قال فبينما هو كذلك وإذا بجبريل أتاه ومعه كبش أملح وقال هذا فداء ولدك فخذه واذبحه فداء لإسماعيل وأدركه

بالفرج الجزيل (وأنشد فى المعنى) :

إنا سمعنا مقـالا قالـه فطـن   فى أضيق الوقت يأتى الله بالفرج

هذه قصة الذبيح فعلام يدعى اليهود بأن المسلمين ينسبون لأنفسهم ما ليس لهم الحق فيه؟.. أمام اللجاجة والزيف لا نملك سوى أن نعود إلى ما ذكر آنفا حول ازدواجية الشخصية اليهودية، ولنتذكر أن كل جميل وراق صنعته الشعوب منذ عهد قدماء المصريين ـ على المستوى الروحى والمادى ـ يزعم اليهود بأنه من عندهم، وأن كل الأشياء النبيلة والخالدة هم الذين قاموا بصناعتها... تماما، مثلما يزعمون أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل عليهما السلام، مع ذلك ورد صراحة فى التوراة :

« خذ إبنك وحيدك الذى تحبه [١٥] » .

ويرى المفسرون أن كتبة « العهد القديم » قد أقحموا اسم إسحاق فيما بعد (لأن الأمر بالتضحية جاء فى وقت لم يكن فيه لإبراهيم سوى ولد واحد هو إسماعيل، وبالتالى لا تنطبق على إسحاق صفة « الوحيد ») .

وليس الأمر قاصرا على قصة اسماعيل بل إن هناك العديد من الصور التى صيغت بأقلام الزيف اليهودى وهى وإن كانت تنال من الأنبياء والرسل فإن المسلمين يعتبرونها طعنا فى الدين

من ذلك ابراز صورتى داود وسليمان فى شكل دنيوى، وحشى، فداود الذى ألان الله له الحديد الذى فيه بأس شديد ومنافع للناس، وهو فى القرآن الكريم أول خليفة على الأرض بعد سيدنا آدم عليهما السلام، ولقد جاءت

---

(١٥) سفر التكوين : ٢٢ / ٢ .

توليته إدارة شئوون العباد عندما ناداه رب العالمين بقوله: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ** ﴾ [ص:٢٦].

ويتضح من تكليف الله سبحانه وتعالى وما يُلقى على كتفى داود من مسؤلية الرسالة ألا يكون خليفة فحسب، ولكن امتثالا لأمر الله حين قال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ** ﴾ [ص:٢٢].

فهل يُتصور أو يُتخيل عقل إنسان فى من يحكم بين الناس بلا شطط وتهور أن يطمع فى جسد إمرأة الجندى «يوريا الحثى» حسب ما هو مكتوب فى التوراة، ولأجل تحقيق هذه الرغبة قام بإرساله إلى جبهة القتال، ثم أوصى عليه قائد الجند بأن يجعله فى المقدمة لكى لا يعود فيحظى هو بامتلاك جسد زوجته؟! وتزعم بعض المرويات اليهودية أنه تزوج منها.

وعندما ننتقل إلى حياة الملك سليمان فى صورتها التوراتية نجد اليهود يرفعون إلينا صورته فى شكل إنسان مسكون بالمعاصى، ويجرون على لسانه شتى الرذائل:

«متع حياتك بالعيش مع النساء (*) فى جميع أيام حياتك (١٦)».

على الرغم من أنهم فى أحاديثهم الشفاهية عن سليمان يذكرون أنه كان فى حكمه يندد بالفساد والمفسدين، ولكنه ـ كما يصورونه ـ يقرظه فى واقع حياته.

«لقد عرفتُ أن ليس هناك أفضل من المتع والشراب وأن القناعة ليست إلا متاعب لا جدوى منها، مادام الناس يموتون كما تموت السائمة ومصير كليهما واحد (١٧)».

(*) كأنهم يريدون أن يقول: ما شابه أباه فما ظلم.

(١٦) سفر الجامعة. (١٧) سفر الجامعة.

وعلى ضوء الحبكة القصصية اليهودية يكون بالفعل سليمان إبنا لداود . وحتى تضلل البشرية . يشاع على ألسنة الناس : من شابه أباه فما ظلم (!!) .

لكن المسلمين يحبون أن يروا سيدنا سليمان النبى ، الملك ، الشاعر فى الصورة التى أخذوها عنه حينما كان يقول لإبنه :

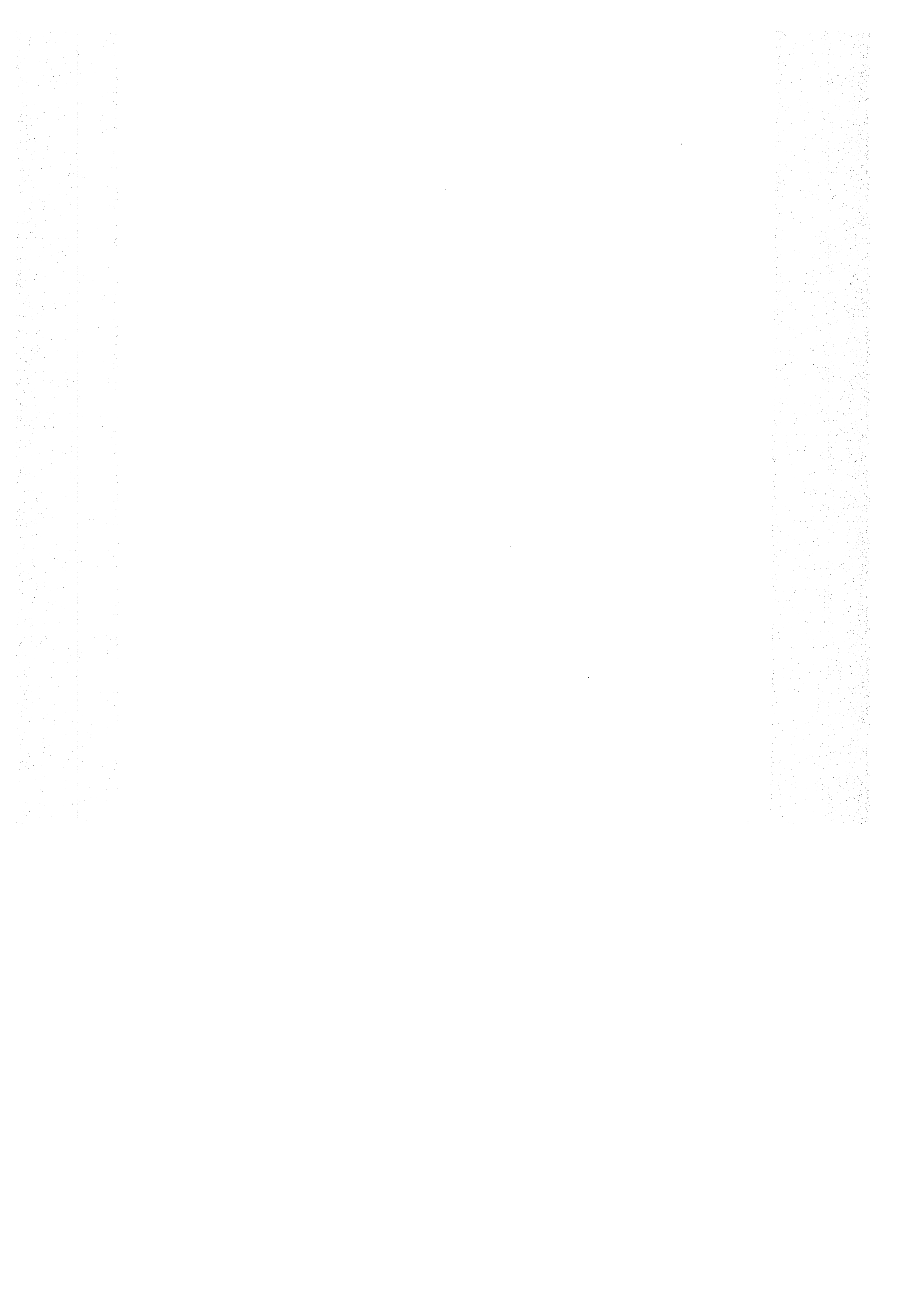
« يا أبنى ان قبلت كلامى وخبأت وصاياى عندك . حتى تميل أذنك إلى الحكمة ، وتعطف قلبك على الفهم ، إن دعوت المعرفة ورفعت صوتك إلى الفهم . إن طلبتها كالفضة ، وبحثت عنها كالكنوز ، فحينئذ تفهم مخافة الرب وتجد معرفة الله ، لأن الرب يعطى حكمة من فمه المعرفة والفهم . يذخر معونة للمستقيمين [18] » .

******

(١٨) سفر الأمثال / العهد القديم .



اليهود.. ظل يقتفى أثرنا



اليهود.. ظل يقتفى أثرنا

اللغة. هى المدخل الوحيد لمعرفة ديننا الحنيف ومعرفة أنفسنا.. بدون اللغة لا يعرف الإنسان شيئا من نفسه ولا من حياته.. إن اللغة هى التى تعرف أن تجيب إذا تساءلت: لماذا أصبحت مصر إسلامية؟.. إنها الأداة الوحيدة التى يمكن ـ لمن يصطبر عليها ـ أن تفض له مغاليق كل شىء، بحيث بتنا لا نندهش إذا عرفنا أن حياة كل شعب أو أمة من الأمم ـ جملة وتفصلا ـ لا تعدو أن تكون فصلا أو سطرا من كتاب الحياة.

ما عرفناه عن اللغة العربية أنها نحتت من صلابة الجبال، ووعورة الوهاد، وليونة الرمال، واخضرار المروج والروابى، وتفتقت جملة من معانيها أثناء المشى إلى الآبار.

ونحن إذا ما اقتربنا من مهدها ترغمنا حياة الجدود بالتوقف عند قتالهم الضارى منذ «عاد» أصحاب القوة والبأس، ومن أشار إليهم القرآن الكريم فى قوله:

﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ [الفجر: ٦، ٧].

تلفت انتباهنا صور الآية الكريمة إلى قوة الله الباطشة بمن عتى واستكبر، ومن خلال غبار المعارك يتناهى إلينا صوت «يعرب» مشتعلا بين منازل القبائل، كاشفا جانب القوة فى «بنى عاد» و «بنى قحطان»، ثم قال:

«يا بنى قحطان إن الله أعطى عاد أعظم الأجساد فقد أعطاكم الصبر والجلد فقاتلوهم».

تضمنت كلمة يعرب القصيرة معنى الصبر المحقون بشرايين الجلد، من يحصل عليه يمكنه أن يحقق النصر على ذوى الأجساد القوية، وبه تم الفوز

الذى أسفر عن لقاء المقاتلين فى موضع بأرض اليمن يقال له: « يارق » حيث هزمهم يعرب وشتت قوتهم.

آنذاك. كانت تنزل العربية على يعرب فى « تسعة وعشرين حرفا » فظهر اللسان العربى على جميع الألسنة، لأن كل لسان من الألسنة الأخرى: مثل السريانى والعبرانى. إنما هو اثنان وعشرون حرفا.

من هنا جاء تأكيد دارسى اللغات أن اللغة العربية هى أرقى اللغات السامية فلا تعادلها اللغة الآرامية ولا العبرية لأنها تمتاز بالمرونة وسعة الإشتقاق:

« فإذا قيس ما يشتق من كلمة عربية من صيغ متعددة لكل صيغة دلالة على معنى خاص، بما يقابلها من كلمة إفرنجية، وما يشتق منها، كانت اللغة العربية فى ذلك ـ غالبا ـ أوفى وأغنى، فمثلا اشتقوا من الضَرَّب: ضرَب، ويضرب، واضرِبْ، وضارِبْ، ومضروب، وسموا آلة الضرب مضرَبا، ومضرْابا، وقالوا: ضَارَبه، أى جالده، وتضَرَّبَ الشىء، واضطرب، تحرك وماج، وحديث مضْطرب، والضربية ما ضرَبتَه بالسيف وضاربه فى المال من المضارَبة (وهى أن تعطى إنسانا من مالك ما يتَّجر فيه على أن له سهم معلوم من الربح) واشتقوا منه مُضارِبا ومضارَبا).

من هذه المرونة والثراء اللغوى. تعددت الإشتقاقات والمجاز والقلب والابدال والنحت حتى استطاعت العربية أن تكون لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، وإلى ما لذلك من معان ترقى إلى السمو والرفعة، وما فيها من تشريعات إجتماعية لا عهد للعرب بها فى جاهليتهم، كما استطاعت ـ العربية ـ أن تكون أداة لكل ما نقل من علوم الفرس والهند واليونان وغيرهم:

« ومن المعروف أنه فى نحو ثمانين سنة من العهد العباسى كانت خلاصة كل هذه الثقافات مدونة باللغة العربية (١) » .

ويعود فضل اكتشاف اللغة إلى العقل المائز حيث تستجيب فى حرية لتحليق الروح، وحاجة الإنسان للبقاء والتقدم فيصبح المتخيّل ملموسا، وما لا يُرى ويستنبط يصبح تجسيدا مرئيا، وكانت كلما تتحرك آداة التعبير الإنسانى نجدها تكتشف أكوانا فى لغة تضيف إلى الأرصدة المعرفية ما لا حصر له، ثم نلمس فى إنطلاقها من الذات إلى حيز المفهوم العام كيف تتشابك وتتكاثر الدوال :

« ففى الثقافة العربية ـ تحديدا ـ اتخذت المفردة أنف واشتقاقاتها بعدا ثقافيا، مثلتة اللغة وعكست تموضعه الرمزى داخل المجتمع « فالسيد هو الأنف » وأنف كل شىء : أوله وأشده، والأنفه : الاستنكاف والامتناع عن صغائر الأمور (٢) » .

ومن عباءة التجار العرب فى شبه الجزيرة العربية خرج لون من نسيج اللغة مصحوبا بتعاريف تدور حول المكاييل والمعايير والأوزان وأجرومية البيع والشراء، يصاحب ذلك الأهازيج وانطلاق الأشعار من على صهوات جياد الشعراء، غير أن هذه الأجنحة المحلقة بالعقل والوجدان الإنسانى كانت فى مستهل نشأتها، لا تستطيع أن تفسر ظواهر الكون وما يطرأ على المجتمعات

(١) أحمد أمين (ضحى الإسلام) مكتبة الأسرة ١٩٩٧، ص ٣٠٩ .

(٢) لمزيد من التفاصيل، راجع : «القاموس المحيط» الفيروز أبادى، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثانية ص ١٠٢، ويراجع «العلاقة بين العقل فى اللغة والصفات البشرية» اللاوعى الثقافى ولغة الجسد. د. على زيعور - دار الطليعة. بيروت، ط ١، ١٩٩١ ص ٦٥ .

من مستحدثات الطبيعة. حتى اكتشف الإنسان اللغة التى تنأى به عن الانزلاق والابتعاد عن هوى النفس التى وضعت الاختلاف والتخلف مكان الاتفاق، والتقدم والشقاق مكان الوفاق.

من كل هذه الأمور وغيرها ارتفع اللسان العربى على غيره فنطالع أن اللغة العربية انزلت بحسب وهذه التفسيرات الغيبية على «عاد وصيلان بن عوض» فهما أول من تكلم العربية، بالإضافة إلى قبائل «جريس» و «ثمود بن جاسر بن إرم بن سام» و«عمليق» و «طسم» فيقال أنهم افترقوا على إثين وسبعين لسانا، يختص بنو سام باثنين وثلاثين لسانا.

مع إختلاف الألسنة صار المنطوق غريبا، ومع ذلك فإنه لم يبعد عن حقيقة العربية الواضحة إلا أنه أثار معنى التعدد فى لهجات الشعوب العربية حتى انحدرت هذه «العربية» القديمة فى يد الأجيال المتأخرة، ووصلت إلى درجة عامية فى «الآرامية»:

«ثم انحدرت هذه «السريانية» المتأخرة تمييزاً لها عن «سريانية» نوح. «أما العربية غير المنحرفة» فقد أوت إلى الجزيرة العربية. وبقيت فى جُرهم من بقايا العرب العرباء حتى جاءها إسماعيل وبنوه فكان له ولهم فى تأصيلها وإنمائها. وأخصابها. وتوسيع معجمها. وتنظيم اشتقاقها. وتوسيع آفاقها، وكانوا المنظمين لنحوها، وأنه فى أيام «عدنان» أو ابنه معد قد رصدت أوزان شعرها. ولابن فارس فى التنبيه إشارة إلى وجود ذلك القديم من «نحو العربية» ومن شعرها نص مشهور (٣)».

(٣) نجيب محمد البهبيتى (المعلقة العربية الأولى) أو عند جذور التاريخ - القسم الأول بتصرف، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص ١٨، ١٩.

وعندما افترق العرب على اثنين وثلاثين لسانا. توزع الباقى على بنى حام وبنى يافث، وفى شأن اللغة ظهر نوع جديد من السرد كان يناسب المناخ الذى شاء الله أن ينزل فيه على هود وقحطان صحيفة أمرهما فيها بالحج إلى البيت الحرام، وذلك قبل بناء الكعبة التى ينسب بناؤها لإبراهيم وابنه اسماعيل، ثم لحق بهما يعرب بن قحطان.

وتجددت اللغة عندما اهتم الشعراء والحكائيون بأن يظل مكان الكعبة محفورا فى الذاكرة قبل بنائها، وكان منهم فئة تحرص على أن تثبت طولها وعرضها بعد الفراغ من بنائها، وفى حديث «عبد الله بن ثرية الجرهمى» وصف مسهب لنزول قبائل البائدة إلى أرض الحرم، عقب أن طردهم الحميريين من اليمين، وكان يسكن مكة يومئذ العماليق أو العمالقة، وفى موضع الحجر شجر كثيف ظل لكثرته ممتنعا أن ينزل فيه إنسان (وأمر بالشجر قطع ونزل جرهم). وعندما سأل معاوية بن أبى سفيان محدثة «عبيد الجرهمى»: «هل كانوا يعلمون أنه حرام؟» قال عبيد: «نعم يا أمير المؤمنين».

ولعلنا من خلال متابعة حياة «يعرب بن قحطان» نعرف كيف كانت اللغة العربية ترتحل مع ما يثريها ويعضد متنها فنكتشف سبق هذه الهجرة السامية إلى اليمن وهجرة قبائل ابراهيم عليه السلام وآشور إلى قلب الشام وفلسطين، وما بين النهرين، ومن خلال هذه السيرة نتعرف على هجرات وحروب القحطانيين مما سهل عمليات تداول اللغة العربية بين منازل القبائل وأثر اللهجات المختلفة عليها فيتضح لنا من ذلك أن لغة الأنباط كانت الآرامية المختلطة باللغة العربية حيث أن الأنباط كانوا عربا فى الأصل ثم

انتحلوا اللغة الآرامية واستعملوا الخط العربى :

« وهناك اختلاف كبير بين لغة وخط الثموديين ولغة وخط الأنباط فاللغة الثمودية تنتمى إلى مجموعة اللغات الغربية الشمالية التى من بينها اللغة العربية الفصحى، والخط الثمودى ذى حروف منفصلة ترجع فى أصلها إلى الخط اليمنى القديم المسمى بالخط المسند الذى كتبت به لغات اليمن القديمة من سبئية، حميرية ومعينية وغيرها (٤) » .

لم يحل ذلك الأمر دون إثارة الجدل حول الأصل العربى الشمالى أى الثمودى للأنباط فرغم انتحالهم للهوية الآرامية إلا أنهم بتأثير أصولهم ارتدوا إلى الهوية العربية، والمؤكد :

« أن حضارة الأنباط عربية فى لغتها، آرامية فى كتابتها، سامية فى ديانتها، ويونانية رومانية فى فنها وهندستها المعمارية، وهى لذلك حضارة مركبة فى مظهرها الهلليني، ولكنها عربية فى أساسها وبقيت كذلك (٥) » .

فى هذه المناحى كان من الطبيعى أن تتأثر اللغة على قدر ما كان لها من تأثير فى معجم اللهجات المحلية، وإن ظلت العربية الفصحى هى الأم التى تمارس أدوارها فى اعتداد وثبات فهى يقينية حتى بعد أن صار المغرضون يحاولون تهشيم مركباتها ومفصلاتها العضوية، مع احتشادهم وراء أدلة تختلف عن الثبوت فى « التاريخ المقدس » بأدلة من زيف « التاريخ الزمنى » . وبالنظر فى « التاريخ المقدس » نجده لدى الأمم التى حظيت برسالة

---

(٤) د . عبد المنعم عبد الحليم (هل أثرت هذه المدن ؟ . . عاد وثمود فى النقوش الأثرية) جريدة أخبار الأدب ٤ محرم ١٤١٨ هـ ١١ مايو ١٩٧٧ ص ٢٨ .

(٥) المصدر السابق .

الأنبياء : يعنى الإيمان بمثيولوجيا الحياة، ومن بينها قصص الأولين فى محاولتها اسدال أثواب السعادة على النفوس، أو حين يحاول الإنسان أن ينسج حياته على منوال « قصص التاريخ المقدس »، (وهى قصص لا يشترط أن يقبلها العقل لأنها فوق العقل)، فهذه القصص لا تهدف إلى الصدق التاريخى :

« وإنما تهدف إلى إبراز المغزى الأخلاقى دون إعتبار كثير لحقائق التاريخ المادية والواقعية، ولذا فمحاولة النظر إلى هذا التاريخ المقدس باعتباره تاريخا فعليا يعكس حركة التاريخ وجدليته ينتهى إلى لىٍّ عنق كل الحقائق والمعنى .

فإذا أضيف إلى ذلك إعادة نسخ كتابات بعض الكتب المقدسة بصياغات يحكمها الحذف وتهميش بعض الأحداث فتكون النتيجة الإسفاف بالمقدس وانحطاطا به فى خدمة السلطة الزمنية، وستصبح عملية التاريخ والتأريخ ساحة لسوء الظن الذى لا يسفر عنه فى النهاية سوى الشك فى « التاريخ المقدس » و« التاريخ الزمنى (٦) » .

لا يختلف أحد حول تعريف (الصدق التاريخى) : إنه الذى كان يعتمد فيه الباحث على الأدلة والشواهد إن وجدت أكثر من الاعتماد على الأدلة الواردة فى التوراة، ومن ظلال الأقلام المتلاعبة بالمعانى والأقلام التى جعلت كل همها رصد شتى المعانى تفجرت من خلال الصدق التاريخى قضية جعلت الاتفاق حول نصوص التوراة من الأمور المستحيلة .

ولا غرابة بعد ذلك إذا كثرت الآراء فى القضية الواحدة حتى تشعب

---

(٦) د. عبد الوهاب المسيرى (أنبياء التوراة تحركوا فى مرحلة سديمية غير محددة تاريخيا) جريدة أخبار الأدب، القاهرة ٣٠ رجب ١٤١٨ هـ ٣ نوفمبر ١٩٩٧ ص ٢٦ .

الجدل إلى حد التطاول على معانى اللغة والأفكار المقدسة ذاتها، ومن أسف أن بعض الأقلام عاضدت هذا الاتجاه التخريبى للديانات السماوية، وارتفعت نبرة التصدى ضد كل من يحاول كبح جماح النشاط العقلى، وطالبت بالمحافظة على استقلالية الجدل تحت دعاوى أن لكل زمن سياقاته وسردياته، وهو الذى يقع ـ لا محالة ـ بما يتفق مع المصالح السياسية، ومع دلالات الجنس . . اللون . . اللغة.

وتبعا لما تستدعيه هذه التداعيات برزت أعمال الكهنة والسحرة كقوة مبتكرة يحتاجها المجتمع للوصول إلى ما يضع حداً للقلق الطبيعى والوجودى والإجابة عن كنه الكون الغامض وأسراره.

من هنا كان تأثر اللغة بهذا الجانب السحرى، وانطوى جانب منها على ألغاز يحار العامة فى معرفة رموزها وفك شفراتها منذ ظهور مملكة سليمان عليه السلام، ثم أصبح لها أركان يدعمون بيت السحر والكذب.

لننظر فى كلام الربيع بن أنس حين يقول:

إن اليهود سألوا محمد ﷺ زمانا عن أمور التوراة لا يسألونه عن شىء من ذلك إلا أنزل الله سبحانه وتعالى ما سألوه عنه فيخصمهم فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا، وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾ [البقرة:١٠٢] وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك فدفنوه تحت كرسى مجلس سليمان، وكان عليه السلام لا يعلم الغيب فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك وخدعوا الناس وقالوا: هذا علم كان

سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه فأخبرهم النبى ﷺ بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد حزنوا أدحض الله حجتهم.

ومن حديث لابن جرير، قال: حدثنا القاسم. حدثنا الحسين بن الحجاج عن أبى بكر عن شهر بن حوشب قال: لما سلب سليمان عليه السلام ملكه كانت الشياطين تكتب السحر فى غيبة سليمان فكتبت من أراد أن يأتى كذا وكذا فليستقبل الشمس وليقل كذا وكذا فكتبته وجعلت عنوانه: هذا ما كتبه آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود عليهما السلام من ذخائر وكنوز العلم، ثم دفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان عليه السلام قام إبليس لعنه الله خطيبا فقال: يا أيها الناس إن سليمان لم يكن نبيا وإنما كان ساحرا فالتمسوا سحره فى متاعه وبيوته ثم دلهم على المكان الذى دفن فيه فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحرا هذا سحره بهذا تعبدنا وبهذا دلهم على المكان الذى دفن فيه، وقال المؤمنون: بل كان نبيا مؤمنا فلما بعث الله النبى محمد ﷺ جعل يذكر حتى ذكر داود وسليمان، فقالت اليهود: انظرو إلى محمد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الأنبياء إنما كان ساحرا يركب الريح فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا** ﴾ [البقرة: ١٠٢] واتبعته اليهود وكان السحر شائعا قبل ذلك فى الأرض، فهذه نبذة من أقوال ائمة السلف فى هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها، وإنه لا تعارض بين السياقات.

والحقيقة من وراء ابراز هذه القصص هو الوصول إلى محنة اللغة وما جرى لها على أيدى اليهود قرناء الشياطين، إذ حينما تختلط لغة الشياطين بلغة الإنسان فنعتقد أن ذلك لا يرجح كفة الخير.

ونلاحظ أننا كلما حاولنا الابتعاد عن هؤلاء وجدناهم كحجرة عثرة ضد أعمال الإنسانية جمعاء، وكأنهم مثل سيف مسلط على رقابنا منذ ما قبل الميلاد فتضطرنا أعمالهم أن نظل فى حالة استنفار دائم لكشف خباياهم ودحض ما جاء فى الإسرائيليات وخاصة ما نشرته بشأن توريط الإله فى أعمال ليست من صنعه حيث يدعى سحرة اليهود أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه محمدا ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان عليه السلام مما يخلوه من السحر من عمل الشياطين، وقد انكب على هذه الأعمال حتى الإتقان جماعة من اليهود، وأن اللذان يعلمونهم ذلك رجلان: اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت، ومن هؤلاء جميعا اختلطت الألسنة، خاصة وأن اليهود الذين خرجوا على شريعة موسى كانت لهم مصلحة منذ بدء الخليقة فى الدس والعبث بالكلام حتى تصاب العقول بالبلبلة.

وحول كلمة «الساحر» ومعناها، نادى كهنة مصرسيدنا موسى فقال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ** ﴾ [الزخرف: ٥٠] فى قولهم ﴿ **ا أَيُّهَا السَّاحِرُ** ﴾ يقصدون: العالم.

«قاله ابن جرير، وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر فى زمانهم مذموما عندهم فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم فى زعمهم، ففى كل مرة يعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بنى

اسرائيل وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه [٧]» .

ونحن لسنا من الذين كلما حطت عين أحدهم على كوب من الماء فلا نرى منه إلا نصفه الفارغ . . النصف الممتلىء غالبا لا يلفت الأنظار؛ من ثم لا يمكن الزعم بأن الوجود مليىء ـ فقط ـ بأعمال الشياطين وشرور السحرة، وإذا سلمنا بوجود الأشرار فإن الحياة مليئة بأعمال الأخيار ومن عالجوا مشاكل انحراف اللغة وتبلبل الألسنة :

« وخوفا من عودة البلبلة من الألسنة العربية كما حدث سلفا فى عهد مدينة بابل فإن المؤمنين قاموا بتدوين اللغة العربية بضبطها بكتب وضعوها لحفظ المفردات وتصانيف صنفوها بوضع قواعد لضبطها كعلوم فن الصرف والنحو وكان ذلك فى صدر الإسلام بعد انتشار العرب فى بلاد العجم واختلاط العجم بالعرب .

كادت الألسن تنحرف وكثر التغيير فى التعبير على غير قانون اللغة فقام الإمام أبى الأسود الدؤلى مهرولا لأمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه قائلا : يا أمير المؤمنين نخشى أن تضيع اللغة العربية فيضيع الكتاب المجيد وتضيع السنة السنُية فيضيع الدين بضياعها فضع لنا قواعد تحفظه، فوضع الإمام بعض القواعد وأعطاها للإمام أبى الأسود الدؤلى، وقال : انحُ نحو هذا يا أبا الأسود فتتم القواعد فسمى ذلك نحوا لمقالة الإمام له إنح نحو هذا [٨]» .

---

(٧) ابن كثير، الجزء الرابع، الطبعة الأولى - مكتبة الإيمان بالمنصورة ٢٠٠٦ ص ١٦٥ .
(٨) ابن قيم الجوزية (هداية الحيارى من اليهود والنصارى) - بتصرف، ص ٧ .

ولكن يبدو أننا مبتلون فى كل العصور بشياطين اليهود الذين كلما حاولنا معالجة شأن من أمورنا سارعوا فى دس الأحاديث ضدنا بلغة ملفقة، ومع أنهم كانوا يعيشون بين ظهرانينا إلا أنهم كانوا لا يدينون بالولاء لأية أمة عاشوا على أرضها.

وحين نتوهم أنهم ينقسمون على أنفسهم فإن شياطن الصهيونية العالمية وهم يخططون لتجزئة قوتهم إنما كانوا يسعون لتوزيعها على أجنحة الماركسية والحركات الثورية والتنظيمات اليسارية وغيرها، وبحيث تكون لكل قوة منها تاكتيكا مختلفا، يأخذ فى الظاهر شكل التضارب فى المواقف والأهداف، إلا أنهم يتفقون جميعا على معنى المفهوم القومى المؤسس على طرد شعب فلسطين من وطنه، واقامة كيان صهيونى دينى على غرار ما هو موجود حاليا فى الفاتيكان، وأن يلتف حوله الصهيونيون انتظارا للمخلص، مع أنهم هم الذين أعطوا ليهوذا القطع الفضية الثلاثين ونادوا بقتل المسيح بعد أن وسمهم بعبادة المال، ثم طاردهم بسوطه ليخرجهم من الهيكل وهو يندد بأعمالهم، قائلا: «كان هذا الهيكل بيتا للرب.. ولكنكم حولتموه إلى مغارة للصوص».

وتؤكد حوادث الأيام أن الله سبحانه وتعالى حين بعث النبى محمداً ﷺ كان أهل الكتاب صنفين: أهل الكتاب وزنادقة لا كتاب لهم، وكان أهل الكتاب فيهم صنفين من البشر، صنف من هؤلاء مغضوب عليهم وضالون وهم اليهود قتلة الأنبياء وأكلة السحت ومن يروجون لأعمال الربا، وفيهم بيوت السحر ومحاربة العقائد، إلى الدرجة التى حدت بموسى بن عمران أن يصون التوراة عنهم:

« لكنه سلمها إلى عشيرة أولاد لاوى، ولم يُبد موسى من التوراة لبنى إسرائيل إلا نصف سورة وقال موسى عن هذه السورة: « وتكون لى هذه السورة شاهدة على بنى اسرائيل » وأما بقية التوراة فرفعها إلى أولاد هارون وجعلها فيهم وصانها عمن سواهم، فالأئمة الهارنيون هم الذين كانوا يعرفون التوراة ويحفظون أكثرها فقتلهم بختنصر على دم واحد وأحرق هيكلهم، ومن الفصول التى يحفظها الكهنة ملفق منه هذه التوراة التى بأيديهم، ومن هنا ما يقولونه فى صلاتهم اليوم فى العشر الأول من المحرم فى كل سنة: يا أبانا أملك على جميع أهل الأرض لتقول كل ذى نسمة الله إله اسرائيل قد ملك ومملكته فى الكل متسلطة، وسيكون لله الملك وفى ذلك اليوم يكون الله واحدا واسمه واحد، ويعنون بذلك أنه لا يظهر له كونه واحد إلا إذا صارت الدولة لهم فأما ما دامت الدولة لغيرهم وأنه تعالى خامل الذكر عند الأمم مشكوك فى وحدانيته مطعون فى ملكه (٩) ».

فالتوحد يكون لديهم قائما ورهنا بوجود مملكة يهودية « متسلطة »، وبذلك يتحول إله العالمين عند اليهود إلى إله إقليمى ذى نزعة عنصرية، وبين الانتماء العرقى والانتماء « القومى » تفقد الرسالة عالميتها وانسانيتها:

« ولذا فإنا نجد أن فكرة تبليغ كل البشر برسالة الإله الواحد إله العالمين المنزه عن الطبيعة والتاريخ ليست مطروحة بل تظل النبوة شأنها عرقيا قبليا قوميا (حلوليا وثنيا) مقصورا على جماعة يسرائيل وحدها من إله قومى إلى شعب مختار يرتبط بالإله بعقد خاص، ولا يستهدف البشر كلها (١٠) ».

(٩) ابن قيم الجوزيه (مصدر سابق) ص ١٠٤ و ١٠٥.
(١٠) د. عبد الوهاب المسيرى (مصدر سابق) ص ٢٦.

لا يعبر ذلك إلا عن شعور بالنقص والأنانية فإله العالمين خلق للبشر السمع والبصر والفؤاد وشاء أن يضع عنصرى الهواء والماء بين عناصر التراب ليخلقنا من نفس واحدة:

« وجعل الإله رؤوسنا مستديرة لتشبه الكرة الكونية العامة، التى هى أجمل ما فى الجسد الإنسانى، بل هى فيه بيت القصيد، أما بقية الأجزاء فى الجسم فأكبر وظائفها أنها تحمل الرأس كما تحمل العربة الإنسان [(١١)] ».

ويدمغ الواقع جماعة يسرائيل باقتراف المعاصى والرغبة الدائمة فى الإستحواذ على الطبيعة بمواردها الغنية، وعلى الإله، وعلى العربة البشرية، وفى نفس الوقت لا يقدسون فى حياتهم سوى المادة، ودائما الأنبياء فى حياتهم مستهدفين للطعن، حتى موسى عليه السلام لم ينج من شرورهم.

ولا يذكرون بخير وامتنان أن موسى تربى فى قصور أعظم ملك في العالم لذلك العهد: « منفتاح الأول بن رعمسيس » .. ﴿ **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** ﴾؟ [الشعراء: ١٨]، وتناسوا أن أولى خطواته فى الحياة اتسعت فى دروب مصر، وإنه كان يحمل أسما مصريا صميما وليس يهوديا .. (مو) أسم الماء، و (سى) تعنى: ابن فيصبح موسى ابن الماء، أو البحر.

وتناسى اليهود أن موسى عليه السلام شب على حب السيادة، والقيادة، وكانت فرص تلقى العلوم فى القصور الملكية المصرية متاحة وميسرة فأخذ من هناك العلوم والآداب وأصول الدين:

« إن مصر القديمة هى التى أنشأت الثقافة الدينية ثم أذاعتها عن طريق

(١١) محمد غلاب (مشكلة الألوهية) القاهرة: دار احياء الكتب العربية ١٩٧٤م، ص ٤٠.

اليهودية التى انتقلت أسسها إلى المسيحية، ثم إلى الإسلام. ففكرة الحساب والنار والعقاب. والقيامة والسراط والميزان، والخير والنار هى إبتكارات العقلية الدينية والحضارة المصرية القديمة كاملة، وقد انتقلت إلى الأديان الأخرى فى الشرق الأدنى كما هى تقريبا وما أدخل إليها من إضافات كان تعديلا طفيفا لا يتناول الأساس، وأن لفظ «الله» هو تحريف للفظ (هليو) وهو أسم الشمس إله الفراعنة، وقد انتقل إلى اليهودية حتى أن السيد المسيح - على حد رواية الأنجيل - صاح وهو على الصليب: ايليا.. ايليا.. لماذا تركتنى. و(ايليا) هو هليو الذى أصبح فى العربية (الله) [(١٢)]».

وفى علوم مقارنة الأديان شهادة تحسب لها حيث توصلت إلى أن الشريعة التى جاء بها موسى أكثرها موافق لشرائع المصريين. الأمر الذى كان له بالغ الأثر على مفهوم فلسفة التاريخ والوعى بمصادر العقائد ونشأتها.

على طاولة هذا البسط نؤكد بأننا مدينون لسلسلة التضرعات التى خلفها الفراعنة، ولولاها لما تمكننا من مقارنة «اخناتون» لربه والمزمور ١٠٤ من التوراة.

تقول أنشودة «الليل والإنسان»:

حينما تغيب فى أفق السماء الغربى فإن الأرض تظلم كالموت، فينامون فى حجراتهم ورؤوسهم ملفوفة ومعاطسهم مسدودة، ولا يرى إنسان الآخر، فى حين أن أمتعتهم تسرق وهى تحت رؤوسهم لا يشعرون.

---

(١٢) فتحى رضوان (عصر ورجال) الجزء الأول، سلسلة ذاكرة الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ ص ٢٦٤-٢٦٥.

المزامير

تجعل ظلمة فيكون ليل فيه كل حيوان الوعر «المزمور ١٠٤–٢٠».

ونظمها بعض النصارى:

تجعل ظلمة فذا	ك الليل أسدلا
والحيوان عند ذا	يدب في الفلا

الليل والحيوان: موازنة الأنشودة:

وكل أسد يخرج من عرينه (ليفترس)، وكل الثعابين تنساب لتلدغ والظلام يخرج والعالم يكون في صمت في حين أن الذى خلفهم باق في أفقه.

المزامير

الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها (المزمور ١٠٤–٢١).

ونظمها بعض النصارى:

تزمجر الأشبال كي	تخطف ما تراه
كذا لكي تلتمس الـ	طعام من الله

الليل والنهار: موازية الأنشودة

والأرض زاهية حينما تشرق في الأفق عندما تضيء بالنهار مثل (آتون) فإنك تقصى الظلمة إلى بعيد، حينما ترسل أشعتك تصير الأراضى في عيد والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم عند إيقاظك لهم، وبعد غسلهم لأجسادهم يلبسون ثيابهم ثم يرفعون أذرعتهم تعبداً لطلعتك ثم بعد ذلك يقومون إلى أعمالهم في كل العالم.

المزامير

تشرق الشمس فتجتمع، وفى مآويها تربض، الانسان يخرج لعمله وإلى شغله إلى المساء (المزمور ١٠٤-٢٢-٢٢٣).

ونظمها بعض النصارى قائلا :

إذ تشرق الشمس ترا	ها اجتمعت للحين
ثم انــزوت رابضــة	فى وســط العريــن
فيخرج الإنســان للـ	دخول فى الأعمـال
ويبقى إلى المساء فى	دوائــر الأشغـــال

ولعلمـاء المصـريات رأى فى النصـوص التى نقلهـا مـوسى من الأصل الفـرعـونى، وأن ليس فى ذلك شـذوذا خـاصـة وأن القـاعـدة العـامـة أن يتـأثر الانسان بالمحيط والمعاش، وأن إثبات أى نص آخر فإنه يفسد السياق لأننا لسنا بصـدد من أخـذ عن من، كل مـا نبـغيـه من وراء هذا السـرد هو رصـد الظاهرة فى شكلها العام، وبعيدا عن التشكيك حسبنا ما ذكره فريق من فلاسفة الهاسكلاه : « أن الكتاب المقدس » ليس من صنع الله بل هو وثيقة من صنع الإنسان ».

ومن هنا اتسع الفتق على الراتق كما يقول العرب حيث ظهر النص المحقق العبرى للتوراة، ثم ظهر النص المحقق (الماسورى) والنص الذى استخدم جزئيا على الأقل فى الترجمـة إلى اليـونانيـة (النص المعروف بالسامرى، أو أسـفار موسى الخمسة)، وفى القرن الأول ق.م، ظهر اتجاه نحو تدوين نص واحد، غير أنه لم يتم تدوين نص الكتاب المقدس إلا فى القرن الأول بعد الميلاد :

« وكانت هناك أربعة مصادر تسمى بالأسماء التالية : الوثيقة اليهودية، والوثيقة الألوهيمية، وسفر التثينة، والنص الكهنوتى .

١ـ تقع الوثيقة اليهودية فى القرن التاسع ق.م، وقد حررت فى مملكة الجنوب .

٢ـ أما الوثيقة الألوهيمية فهى أقرب تاريخا وقد حررت باسرائيل .

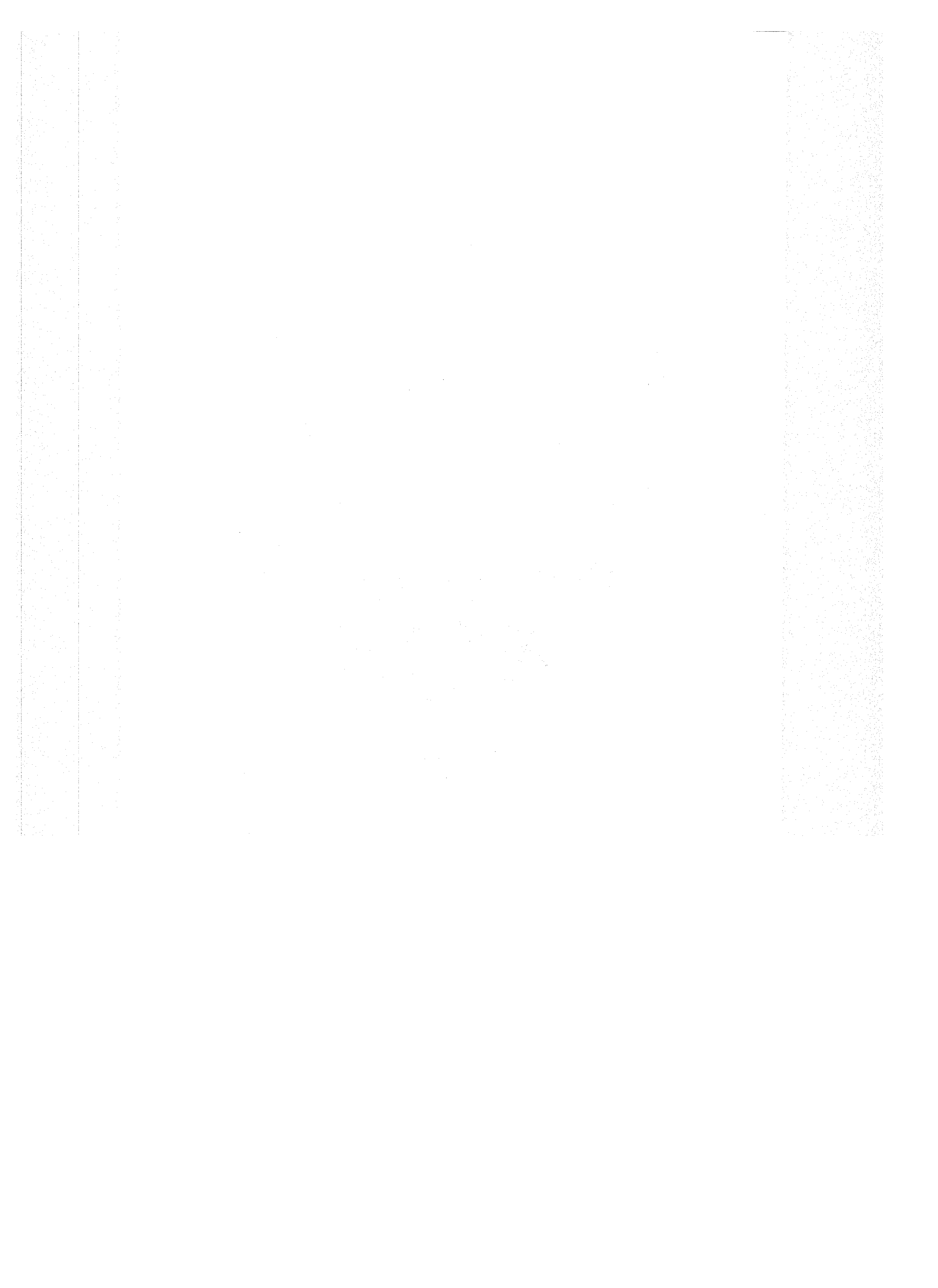
٣ـ أما سفر التثنية فينتمى إلى القرن السابع ق.م .

٤ـ أما النص الكهنوتى فينتمى إلى عصر النفى أو ما بعد النفى . أى السادس ق.م (١٣) » .

******

(١٣) موريس لوكاى (دراسة الكتب) المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة) .


يوسف
على خزائن مصر



يوسف على خزائن مصر

حدثت فى حياة الأمة المصرية طفرات نوعية كثيرة، يختلف كل منها إجمالا وتفصيلا فى قيمته وشكله حسب كل ظرف وزمن، وما كان يصاحبها من عظائم الأمور، بين الصعود وبين الهبوط، ولم يكن التغير الديموغرافى والإثنوغرافى هو الأول من نوعه فقد عاشت هذه البلاد مرة ومرات عهودا تتضاد، وتختلف، ثم تتفق فى انسجام بعد أن تستسيغ فى حوصلتها وتهضم مختلف الأحقاب، بما لها، وما عليها:

« فى تلك الحقبة من الدهر قامت هجرة عظيمة انحدرت من آسيا الصغرى ومن شمال البحر الأبيض المتوسط، وكان غرضها غزو بلاد الشرق الأوسط والاستيلاء على مصر، وتدل شواهد الأحوال على أن هؤلاء الأقوام. قد أتوا من جزر البحر مثل صقلية وسردينيا ومن أوربا، فكان هذا أول اختلاط لمصر بالأوربيين، وقد زاد الطين بلة، وعقد الأمور أن قام أهل « لوبيا » الأصليون يساعدهم قبائل « المشوش » بالزحف على مصر حتى وصلوا إلى أرض الدلتا، يساعدهم فى ذلك أقوام البحار فأخذ رعمسيس الثالث للأمور أهبته، وتقابل مع اللوبيين والمشوش فى مواقع طاحنة انتهت بفوز مصر [1] ».

وما تكاد تستقر الأمور حتى تهب من جديد عواصف الرياح، ولا يكاد يمر يوم بمصر إلا وكان فيه من تلاطم الأمواج، وجيشان نهر النيل مما جعلها

(١) سليم حسن (موسوعة مصر القديمة) ج ٧ مكتبة الأسرة ٢٠٠١.

محط عين الجميع فقصدها لصوص وأفاقون، وشعراء، وعلماء، وأنبياء، ومن كانوا يحلمون باعتلاء كرسى ملكها، وإن كانت هناك ملحوظة صغيرة فى ما يتعلق باللوبيين فقد كان اختلاطهم بالمصريين يدفع الفرعون للاستعانة بشبابهم للخدمة العسكرية فى الجيش، إلى جانب أنه لم تكن هناك حدود فاصلة بين البلدين.

أما الأمر بالنسبة للهكسوس ومن نزحوا إلى مصر فى عهود ما قبل الميلاد وما بعد الميلاد فإن الأوضاع تغرى بالنظر فيها ومعرفة أصول هؤلاء.

يقال أن الهكسوس من العرب الحميريين العمالقة ملوك اليمن، وقد جاءوا إلى مصر من ناحية آسيا الجنوبية على طريق السويس فملكوا الوجه البحرى كله وأعملوا فى البلاد حالة من الفوضى والتخريب فهاجر ملوك مصر ومن تبعهم إلى الصعيد.

ومن الهجرات التى سيظل التاريخ يذكرها مدى الحياة تلك التى قام بها خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة مع نفر من عشيرته إلى مصر فى عهد «طوطيس بن ماليا» أحد ملوك الهكسوس وتذكر كتب التاريخ ومن بينها كتاب «العهد القديم» إن ملك مصر آنذاك كان يدعى «أبيمالك»، أو أبى مالك، وهو عربى المحتد.

كما جاءت إلى مصر العائلة المقدسة حين كان يسوع عليه السلام طفلا صغيرا على صدر أمه، ووصل إليها يوسف الصديق، وفى خروج يوسف على أرض مصر طالب الرب أن يهتف الشعب لإله يعقوب:

«إنفخوا فى رأس الشهر بالبوق عند الهلال ليوم عيدنا، لأن هذا فريضة لإسرائيل حكم لإله يعقوب، جعله شهادة فى يوسف عند خروجه على أرض

مصر، سمعت لسانا لم أعرفه، أبعدت من الحمل كتفه [٢]».

لقد جيء بيوسف إلى مصر ليباع فيها مثل العبيد لمن ورد ذكره فى القرآن الكريم بإسم «العزيز» فى عهد ملك الهكسوس «الريان بن الوليد بن اسلادس» المشهور بعدله بين الرعية، وقد بلغ خراج الأرض فى زمانه ألف دينار، وفى حالة إصابة الأرض الزراعية بآفة كان يسقط عن الفلاحين خراج ثلاث سنوات.

فى عهد ذلك الملك دخل العبرانيون ـ بنو يعقوب ـ على أخيهم يوسف الصديق فأسكنهم الريان أرض غسان المعروفة برأس الوادى.

ويذكر العبرانيون ـ ولا أقول اليهود ـ عندما اقترب يعقوب من بوابة مصر خاطبه الرب قائلا:

«يا اسرائيل أن سمعت لى، لا يكن فيك إله غريب ولا تسجد لإله أجنبى، أنا الرب إلهك الذى أصعدك من أرض مصر، افغر فاك فأملأهُ، فلم يسمع شعبى لصوتى وإسرائيل لم يرض بى، فسلمتهم إلى قساوة قلوبهم، ليسلكوا فى مؤامرات أنفسهم، لو سمع لى شعبى وسلك اسرائيل فى طرقى، سريعا كنت أخضع أعداءهم وعلى مضايقهم كنت أردُّ يدى [٣]».

كان سيدنا يعقوب تزوج راحيل ابنة خالته فأنجب منها ولدين: يوسف وبنيامين. وجاءت ولادة يوسف حين كان أبوه غائبا فى الشام.

قال وهب بن منبه وهو من اليهود الذين دخلوا فى الإسلام: فنزل عليه

---

(٢) المزمور الحادى والثمانون ٣ :٧.

(٣) المزمور الحادى والثمانون لإمام المغنين ٨ :١٥.

جبريل، وقال: يا يعقوب إن الله تعالى وهبك ولدا لم يرزق مثله لأحد من الناس وأعطاه الله الحسن والجمال، ففرح بذلك، وذبح ألف قربان من الغنم لأجل يوسف شكرا لله تعالى وفرقها على الفقراء، ثم ماتت أمه وهو فى السادسة من عمره.

وفى جمال يوسف قال السدى: إن الله تعالى قسم الحسن عشرة أجزاء فأعطى الناس جزءا واحدا وخص يوسف بالتسعة الأجزاء الباقية، وقيل أنه نظر إلى وجهه ذات يوم فأعجبه حسنه فقال فى سره لو كنت مملوكا ما قدر أحد على ثمنى، فسلط الله عليه إخوته فباعوه بثمن بخس لا يزيد على سبعة عشر درهما:

﴿ **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ** ﴾ (٤)».

اشتراه عزيز مصر «قطفير» وحرص على معاملته بحب وأن يرعاه رعاية الأب لإبنه:

﴿ **وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾ (٥)».

وتفسير ذلك أن الرجل كان على خلق وصلاح، وهناك فى قصة يوسف نكتشف وضع مصر الحضارى وما كانت عليه أوضاع الحياة المصرية فى ارتقائها المادى، ويملؤنا هذا الوضع يقينا منذ النظرة الأولى إلى قلب البيت المصرى، حيث ظهرت النسوة المترفات اللآتى قطعن أيديهن بالسكاكين، وهن جالسات فى إحدى قاعات القصر الملكى، على فرش ناعمة، ومتكأ

(٤) يوسف: ٢٠.

(٥) يوسف: ٢١.

مريح، وكن يستعملن الأطباق والسكاكين لتقطيع ثمار الفاكهة، وذلك منذ أكثر من ٤٠٠٠ عام.

أثار جمال يوسف من حوله جدلا أفضى به إلى ما أصابه من بلاء، فقد اشتهته زليخا زوجة قطفير عزيز مصر، ثم قلبت الأوضاع عليه بسبب صدوده واعراضه، وبمزيج من الكبرياء واشتعال الرغبة التى لم تقوْ على كبح جماحها انفجرت قائلة:

﴿ **ولَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ «(٦)».

فى ذلك الوقت، رأى الملك الريان بن الوليد فى المنام كأن النيل غاضت مياهه، وطلع منه سبع بقرات سمان، ثم عقبهن سبع بقرات عجاف أى ناحلات ضعيفات أكلن البقرات السبع السمان، ثم طلع سبع بقرات خضر وسبع صفر على حين التفت السنبلات بالسنبلات الخضر فأيبستها فى الحال فقام الملك من نومه مرعوبا وأمر بإحضار المفسرين، وجميعهم:

﴿ **قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ** ﴾ «(٧)».

ولم يهنأ بال الملك إلا بعد ما سمع عن يوسف الذى خرج من غيابة الجب ليُلقى به فى ظلام السجن: ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى** ﴾ «(٨)». وجىء بيوسف من السجن لينظر فى ما رآه الملك.

دخل عليه مسلما بالعربية.. بدت الدهشة على وجه الملك حين سأله: ما هذا اللسان؟.. قال يوسف: هذا لسان عمنا إسماعيل بن ابراهيم خليل الرحمن.

(٦) يوسف: ٣٢.

(٧) يوسف: ٤٤. (٨) يوسف: ٥٤. (٩) يوسف: ٤٦.

وكان الوليد بن الريان يتكلم بسبعة ألسن، وكلما تكلم بلسان أجابه يوسف به. حتى قال الملك:

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ (٩).

قال يوسف موضحا الأمر ومفسرا:

ستأتيكم سبع سنين مخصبة يأتيكم من بعدها سبع سنين مجدبة.

سأله الملك:

وما التدبير فى ذلك؟

أجاب يوسف:

إزرعوا زرعا كثيرا فى السنين المخصبة، ثم احصدوه وذروه فى سنبله وقصبه، وكذلك جميع الحبوب وابنوا له مخازن فسيكون القصب علفا للدواب والحب قوتا للناس. سأل الملك:

ومن يتولى هذا الأمر؟

أجاب يوسف:

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ (١٠)» أى مصر.

فى التو. أجلس الملك الريان يوسف على كرسى قطفير الذى صار شيخا طاعنا فى السن، وأصبح يوسف يركب فى حاشية كبيرة، وفى خدمته الأمراء والوزراء والحجاب، ومعه من العسكر نحو الألف:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (١١)»، وقيل فى المعنى:

---

(٩) يوسف: ٤٦.
(١٠) يوسف: ٥٥.
(١١) يوسف: ٥٦.

وراء مضيق الخوف يتسع الأمن ... وأول مفـرج به آخـر الحـــزن
فلا تيـأس فالله مَلَّك يوسفـــا ... خزائنه بعد الخروج من السجن

قلبت خطة يوسف أساليب الزراعة القديمة.. إنسحب أثرها على مختلف الأجهزة الإدارية والتنفيذية حتى شارفت البلاد على الدخول فى مرحلة جديدة، ولأنها كانت نقله نوعية، فأضافت على الخبرات الزراعية السابقة وضعا فريدا، خاصة فى مجال جنى المحاصيل مع الاهتمام بالتوسع فى بناء مخازن وصوامع الغلال.

قال ابن لهيعة فى أخبار مصر إن يوسف عليه السلام هو الذى بنى مدينة الفيوم ودبرها بالوحى عن جبرائيل، وكانت أرضها مغايص فدبرها حتى أخرج منها الماء وجعل بها عشر قناطر، وعمل عليها أبوابا من الحديد، وبنى بها من جهة الشمال إلى جهة الجنوب حائطا طوله مائتا ذراع بذراع العمل وحكمه ليرد الماء إذا زاد النيل اثنى عشر ذراعا وكان على خليج المنتهى عدة طواحين تدار بالماء.

قال العزيزى وكان انتهاء العمل منها فى سبعين يوما فتعجب الملك من ذلك وركب هو ووزراؤه ورأوا ما صنعه يوسف فتعجبوا من ذلك وقالوا هذه الطواحين كانت تعمل فى (ألف يوم) فسميت من ذلك اليوم الفيوم، وكانت محكمة على ثلاثمائة وستين قرية، كما بنى مخازن الغلال وسماها الأهرام، ولا تزال هذه المخازن باقية إلى الآن فى جهات الفيوم وغيرها.

وقيل فى السبع سنين العجاف:

« حدثنا الحُميَدُ حدثنا سُفْينُ عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عبد الله رضي الله عنه أن قريشا لما أبطؤا عن النبى ﷺ بالإسلام قال اللهم اكفنيهم بسبع كسَبع يُوسفَ فأصابتهم سنة حصَّبتْ كلُّ شيء كلَّ شيء حتى أكلوا

العظام وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها مثْلَ الدخان قال الله فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين قال الله إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة وقد مضى الدخان ومضت البطشةُ (١٢)».

وعلى خلفية ما جرى لمصر فى سنواتها العجاف نكتشف:

«أن يوسف الصديق باعهم القمح فى أول سنة بالذهب والفضة والنحاس حتى لم يبق شيء من ذلك ثم أنه فى السنة الثانية باعهم القمح بالجواهر والحلى ثم باعهم فى السنة الثالثة بالمواشى والدواب حتى لم يبق لأحد شيء ثم باعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والجوارى حتى لم يبق شيء وفى السنة الخامسة باعهم بالضياع والأملاك حتى لم يبق لأحد شيء ثم باعهم فى السنة السادسة بالأولاد والنساء حتى لم يبق شيء ثم باعهم فى السنة السابعة بالنفوس جميعا حتى لم يبق من رجل أو إمرأة إلا صاروا فى رق يوسف فعندئذ اجتمع يوسف بالملك الريان وقال له: إنى اشهدك إنى اعتقت جميع ما صار إلىّ بالرق من أهل مصر، ورددت عليهم أموالهم وضياعهم وأملاكهم جميعا (١٣)».

قد لا يصدق البعض ما جاء على لسان يوسف من رده على المصريين أموالهم وممتلكاتهم، ولرب متسائل يسأل: ما العبرة فى أن يبيعهم الغلال بحريتهم ورجالهم ونسائهم ثم يردها عليهم؟.

أياً كان الأمر فإن الواقع الذى لا يختلف أحد عليه يؤكد أن فلاحى مصر

(١٢) رواه البخارى - ج السادس - المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٣١٤ هـ ص ٧٧.
(١٣) ابن أياس (بدائع الزهور فى وقائع الدهور).

انحنت قاماتهم على تنفيذ خطة يوسف، ومضى الملك يراقب باعجاب تنفيذ الحلم ـ واقعيا ـ على مراحل فى زمن لا يتجاوز سبع سنين.

والخطة الزراعية ذات التوجه الإنسانى لا ذنب ليوسف إذا جاءت بعض الشرائح الإجتماعية من بعده لتنحرف بها بعيدا عن الصالح العام خدمة للخاصة ومن يستثمرون مجاعة الشعوب وفقرها المدقع لإفساح المجال أمام أشكال الإحتكار حتى ترسخت ثقافة الكمبودورين ومن أخضعوا البلاد ـ بمساعدة العسكريين ـ تحت سطوتهم.

إن العيش على زراعة وفلاحة الأرض فى مصر لا تزال تجر على الفلاحين وبالا من نكال ومع ذلك فهم لا يفضلون غيرها عليها، ولا يقدرون على الابتعاد عنها، فمنها كانت الحياة، وفيها الفناء، ومنها يبعثون فأى عذاب يطالهم لا قيمة له إذا قيس بقضاء يوم واحد فى نعيم الآخرة.

وبما أنهم كانوا يدخرون قلوبهم بغير إحن ومقت وكراهية لأحد فلا أهمية لصنوف العذاب وكؤوس الشقاء التى يتجرعونها منذ أن تأخذ سنابل القمح فى النمو وتميل للإصفرار حيث يتقاطر السادة كالجراد على الأرض ومعهم الكتبة والمساحون ورجال الشرطة وما يكاد المساحون يقومون بعمل مسح الأرض ويقدرون كمية الحبوب حتى يقوم الكيالون بأداء واجبهم، ويكون الأمر موجبا وملزما على ضوء هذه النتائج بأن يقدم الفلاحون الحصة المقررة عليهم، وحين يعجز أحدهم عن سداد حصته يقع عليه العقاب فى حضور ممثلى الأجهزة الإدارية والتنفيذية (وما سجله مؤرخو عصر الرعامسة كان يتكرر فى العصر المملوكى والعثمانى)؛ ثم ظهرت منذ منتصف القرن الخامس الهجرى داخل المجتمعات الإسلامية أوضاع تحاكى ما كانت عليه

الأحوال فى عهد يوسف عليه السلام، وعزيز مصر، والملك الريان، وكأن الأزمنة تنتظم فى عقد يلتف حول أعناق المصريين بحبال مفتولة من أنفاس مختلف الطغاة الذين أخضعوا البلاد وتاجروا فى الأقوات، ولن نعجز عن رصد نشأة الإحتكار وبداية الإنهيار:

«إن تاريخ أى شعب بلا استثناء يبدأ بفن الكتابة، وبعد أن يبلغ ذروة مجده الثقافى يمر بفترات من السيطرة الأجنبية، وحين يتعرض للهزيمة يمتص ويذوب فى غيره من الأجناس.

وفى منتصف فترة حياته على وجه التقريب أى بعد حوالى ١٥٠٠ سنة أو نحوها يبدأ بمرحلة يدين فيها للعسكريين. ويعود ثانية إلى الحضيض، ويتبوأ بعدئذ مكانة عظيمة جديدة، ثم ينهى تاريخه بعد ثلاثة آلاف عام على وجه التقريب (١٤)».

ومن ثم يعود ممارسة العسف والطغيان على المصريين فى العصر الهيلليني من قبل المحتلين الأغارقة، والرومان، والفرس، والبيزنطيين، وقد أصبحت المساحات من الأراضى الزراعية فى مصر العليا تباع، وتشترى، وترهن، وتوهب لأقارب الحكام والسادة، وأعطيت الأرض فى عهد البطالمة للجنود المرتزقة، وخاصة الإغريق، وكانت هذه الحيازات تنتقل بالوراثة.

وبات من الطبيعى أن يتمخض عن هذه الأحقاب التى يُستثمر فيها تجويع الكادحين، سلوكيات تصيب فى الصميم المثل والأخلاق، دون أن تتوقف عند هذا الحد، وإنما تمتد بشكل سرطانى لتورث الأجيال القادمة

(١٤) د. لستر (الماضى الحى).

وجوها من الغشاشين، والمداهنين، ومدعى التدين، ومن ليس لديهم من يكبح غرائزهم الدنيوية، وقد يذهب هؤلاء إلى عرض الوطن للبيع؛ بالجملة والقطاعى. :

« وذلكم نتيجة إبتلاء بنظم عسكرية إقطاعية فتتدهور إلى حد عموم المجاعات والقحط، واختفت الطبقات الوسطى التى تقود حركة التطور وتفاقمت النعرات العنصرية والنزعات الطائفية، ودخلت الثقافة العامة طور « الانحطاط » على حد تعبير ابن خلدون (١٥) » .

والمفارقة فى هذا الصدد أن المجتمع الذى استغرقته تلك الحالة من التلوث البيئى قد صار الحكام فيه يأخذون بتلابيب هذه « الخطط »، على الرغم من أن أحدا منهم، لم ير ـ فى المنام ـ لا سبع بقرات سمان، ولا سبع بقرات عجاف!!

ويا ليت السنوات السبع العجاف عاد فى أعقابها إخضرار السنابل واتسعت أبواب « فك الأزمة »، بل استرسلت الطوابير فى امتداد طوال اليوم أمام أكشاك بيع الخبز، واحتلت الإنسان أزمنة القهر حيث أصبحت فيها الوجبات اليومية التى تقدم لحمار فى اصطبلات الأمراء الجدد ـ من أعلاف وفول وشعير ـ لا يستطيع أى إنسان أن يحلم ـ مجرد حلم ـ فى الحصول على حفنة منها .

لكن كتب التاريخ تعطينا أملا فى البشارة والمستقبل، حين تؤكد زن

---

(١٥) د. محمود اسماعيل (جدلية التأثر والتأثير) كتاب مؤتمر شرق الدلتا الأدبى السابع ٢١ / ٢٣ مايو ٢٠٠٨ ص ١٤ .

قبضة الظلم لم ترفع عن شعب مصر إلا بعد سقوط دولة الهكسوس، وتولى «أحمس» طردهم، بعد أن مكثوا فى مصر زهاء ٥٠٠ سنة، أمامن أطاع «أحمس» وفضل الخدمة تحت تاجه فقد سمح لهم بالعيش على شاطىء بحيرة المنزلة.

كل ذلك إلا فقار الروحى، والمادى، والمعنوى دخل فى السياسة المصرية عقب صورة مقبضة رآها جلالة الملك أثناء نومه، فى مدة لا تستغرق فى زمن الحلم سوى عدة ثوان فجاءت خطة تجنب أهوال المجاعة مصحوبة بأساليب وسلوكيات اجتماعية، كانت أسوأ من كوابيس الأحلام التى جثمت على صدور المصريين طوال ٥٠٠ سنة.

حديثا، صارت سياسة التجويع تأخذ شكلا يتفق عليه المسؤلون مع الإدارة الأمريكية ففى تصريح للمهندس أحمد الليثى وزير الزراعة السابق نشر على صفحات جريدة «الدستور» فى ٢٤ فبراير ٢٠٠٨ يؤكد فيه أن مصر بعدما كاد إنتاجها الزراعى يفى باحتياجات الشعب، أصبحت تستورد من أمريكا سنويا ما يتراوح بين ٣ و ٥ ملايين طن من القمح، أى ما يقرب من ٧٠٪ وبسعر ٤٠٠ دولار للطن الواحد، وأضاف: «إن عدم تحقيق مصر للاكتفاء الذاتى من القمح يرجع إلى أسباب سياسية وليس إلى أسباب زراعية».

معنى ذلك أن سياسة تصحير الأراضى الزراعية مشروع «حكومى» يرعى مصالح الرأسمالية الطفيلية، والإحتكاريين، ومن ليس لهم مصلحة فى تطبيق الخطط التنموية الجادة، وأن ذلك إذا حصل ستنتعش أحوال المواطنين، وهم إذا شبعوا سيتعملقون مثل مارد جبار، لا يستطيع أحد السيطرة عليه.

فهل على الشعب أن ينتظر مرور ٥٠٠ سنة من التجويع مثل التى قطعها الأسلاف فى الحقبة الفارسية والرومانية؟:

« لما لاحظ كتاب معينون هذه الظاهرة، جعلوا تفسيراتهم تحوم حول نظرية « الرجل العظيم »، التى لا يحسب فيها للشعب حساب، ولا يزيد دور أبنائه عن دور أصغر حجارة فى لعبة الشطرنج. وينزل الله أو المصادفة والبخت من حين لآخر بينهم أبطالا لهدايتهم وانقاذهم أو ربما أوقعهم فى حروب يفنون فيها بالملايين (١٦) ».

إزاء ذلك كله. لا أحد يستطيع الجزم. وفى ظل الأنظمة المعلوماتية والتقنية رفيعة المستوى بأن شيئا من الماضى لا يعود، بل أن كثيرا من الأمور الراهنة تسير كماحدث ـ إن لم يكن أسوأ ـ فى عهد يوسف عليه السلام، وفى ما أعقبه من عهود فراعين مصر وارستقراطية ملاك وسادة النظام الإقطاعى فى العصر الوسيط.

ولا يخفى على أحد أن ٥٠٠ سنة استعباد قضاها المصريون تحت نير الإستعمار الهكسوسى، و ٥٠٠ سنة أخرى من الإستعباد الفارسى، و ٥٠٠ سنة من الاستعباد الرومانى لابد أن تكون هذه القرون مجتمعة قد غرست فى نسيج الشخصية المصرية جينات غير سوية، بل وشائهة، مع تدفق حركة النازحين إلى مصر من أحباش، وأرناؤد، وجراكسة، وشركس، وأرمن، وشوام، على درب الهجرات، إما للعمل، أو للإنتظام فى سلك جيش الفرعون، أو الملك والسلطان، حتى تحولت الشخصية الحاكمة ـ أيا كان

---

(١٦) ج.ب. بيورى (فكرة التقدم) ترجمة د. أحمد حمدى محمود، مراجعة أحدخاكى، المجلس الأعلى للثقافة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ ص ١٦.

إسمها وصفتها - إلى مصاف الآلهة القدامى، بيدهم المبسوطة بالأقوات يمدون فى أعمار الخلق، وبيدهم المنقبضة يميتون!!

من هنا وهناك.. من خلاصة المزج وفعاليات الإختلاط والمعاشرة كان من الطبيعى أن تتكاثر الأغاليط فى حق الوطن وتتخلق سمات تجمع ملامحها وطبائعها بين أخلاق السادة وبين أخلاق العبيد فجاء هذا التنوع غنيا بالأضداد ليشكل علامة بارزة بين حركة الإرتقاء الروحى وبين تصحر الضمائر والعقول.. بين من ينشدون العدل والحرية، وبين من يولدون بجينات تورث الإنحراف، والخنوع، واللآمبالاة.

ليس معنى ذلك أن هذا الوطن بات متدثرا بالسواد، ومن غير المعقول أن ندع المجال لسيادة روح التشاؤم، فالطبيعة التى ترعرع الإنسان بين أحضانهاهى هى على الدوام، والكواكب تتبع نفس نظامها القديم، والناس يخلقون من التراب، ويعودون إلى التراب، وليس هناك ما يحول دون سيادة المُثل إلا المعرفة المبتذلة من التجربة الحياتية، حين تسوق لنا فصولا من التاريخ تفتقر إلى روح الصدق وأمانة البحث، لأن من غير المرغوب فيه، بل ومن الإستحالة على الباحث فى علوم التاريخ والأجناس أن ينأى عن التعرض للقبائح والموبقات التى تردى فيها الجنس البشرى.

وما دمنا قد بدأنا الحديث بيوسف عليه السلام فيحسن أن نختم به، وعلى الرغم من أمر زليخا معه وكيدها له، ثم ذبول جمالها وفقدها لبصرها فقيل أنها وقفت أمام موكبه، وهى تصيح: سبحان من جعل العبيد ملوكا بطاعتهم والملوك عبيدا بمعصيتهم.

عرفها يوسف فى ألتو. أمر بإيقاف موكبه عن السير. سألها عن جمالها

وحسنها. قالت: ذهب كل شيء، ثم سألها عن محبتها وهو يعلم أن عزيز مصر - زوجها - مات.. أجابت بأن المحبة باقية، وقال لها: ما تريدينى منى؟:

« وإذ بجبريل عليه السلام يقول يا يوسف إن الله تعالى يأمرك أن تتزوج بزليخا فقال له يوسف كيف أتزوج بها وهى عجوز عمياء فقال جبريل إن الله تعالى يرد لها حسنها وجمالها وبصرها فعادت أحسن ما كانت عليه فوجدها بكرا ثم أن زليخا قعدت مع يوسف الصديق أربعين سنة ورزق منها بولدين وهما إفرائيم وميشا (١٧)».

وأخيراً.. نتمنى على الله ألا يخرج علينا صوت من متطرفى اليهود ويقولوا مثلما قالوا سلفا فى يعقوب ومعناها (ليته يحمى) ثم غير إسمه إلى إسرائيل (يسير إيل = إيل يحكم) مفضلين إياه على أخيه التوأم «عيساو» ثم تسمى «عيساو» باسم آخر هو إدوم (أحمر)، ونخشى ألا يعترفوا بولدى يوسف: إفرائيم وميشا من زوجه المصرية (زليخا) مثلما تم حذف «عيساو» من مجرى حياة العبرانيين، وقد ظن أن مثله كان كمثل «إسماعيل» عليه السلام ابن ابراهيم عليه السلام من السيدة «هاجر» المصرية.

لقد تجرع المصريون على أيدى اليهود كؤوس الذل والهوان، قبل الميلاد وبعد الميلاد، وحين نتوقف عند محطة «الفاطميين»، وعلى التحديد فى قاهرة المعز لدين الله الفاطمى نجد البلاد أصبحت نهبا لليهود وساحة يملؤنها بمسائل التشكيك والتلبيس والسيطرة الكاملة على رأس الخليفة العزيز «٣٦٥ - ٣٨٦ هـ - ٩٧٥ - ٩٩٦م» عقب تمكنهم من الإستيلاء على أخطر

(١٧) ابن أياس (بدائع الزهور فى وقائع الدهور).

شريانين بمصر: «الخزانة المالية والأراضى الزراعية»، ففى عهد الخليفة العزيز تم تعيين «منشا» اليهودى والياً على الشام، كما عين الخليفة العزيز وزيرا يهوديا يدعى «يعقوب بن كلس» وفى عهد الخليفة «المستنصر» صدر قرار بتعيين المدعو «التسترى» وهو يهودى ليدير أراضى ومزارع جناب السيدة والدة أم الخليفة.

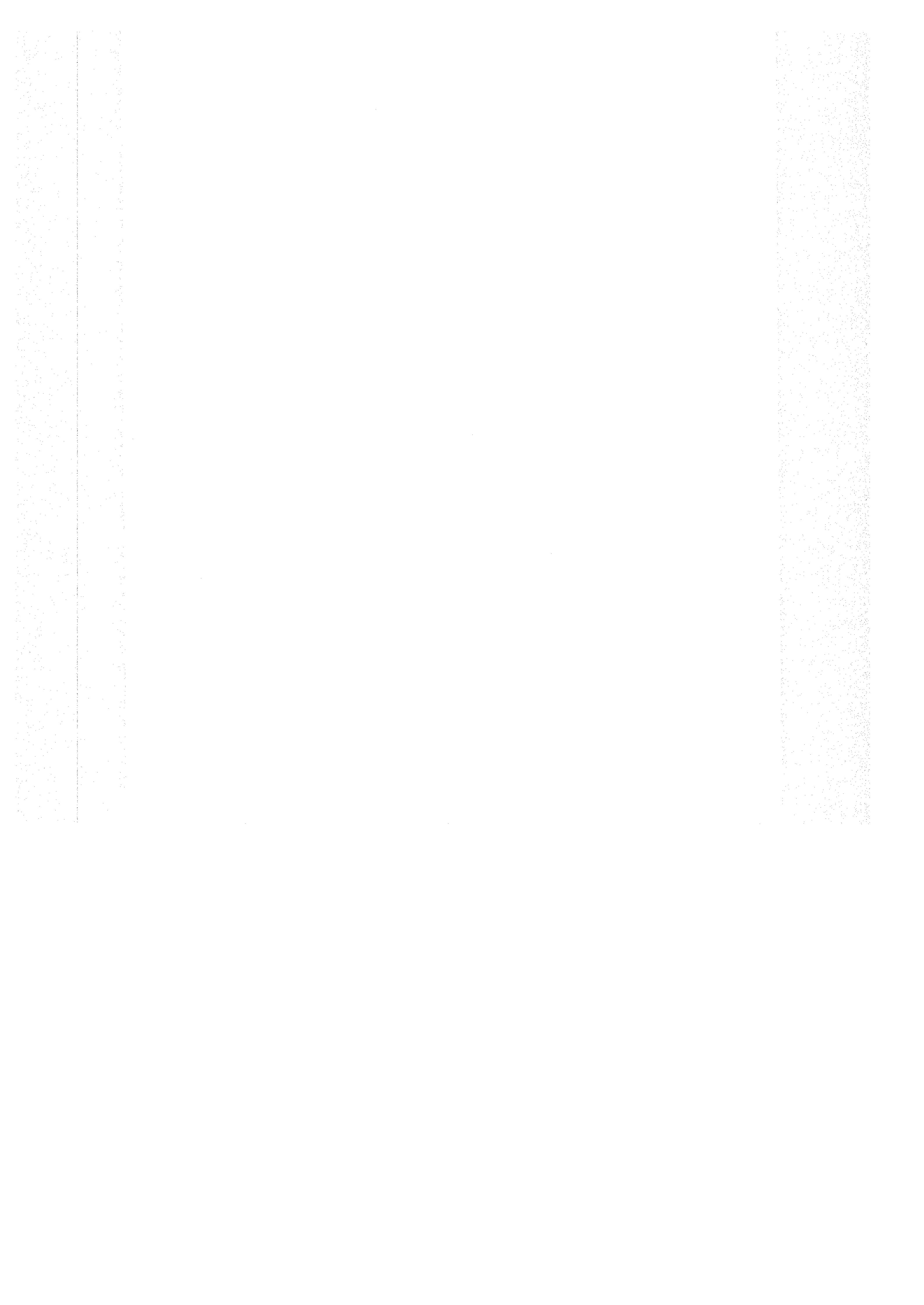
لعلنا لا نزال نذكر ملابسات الرؤية التى قام بتفسيرها يوسف عليه السلام ولقد تحمَّل المصريون تبعاتها وعالجوها بدفع أغلى ما لديهم، لكن الكوابيس التى تجثم على صدورهم حتى وقتنا الراهن، من يستطيع أن يجد تفسيرا واحداً لها؟!

إن الفكر الصهيونى ثعبان يلتف حول أعناق البشرية منذ نشأة الكون، وإزاء مصائبه وتداعياته ليس أمامنا من مطمح سوى الإعتماد على الأخلاق وعلى الفيزياء والإيمان بوجود هوية بين التاريخ والتقدم، وإدراك المدلول الإجتماعى للدين، لأن التسلح بهذه الأدوات هى القيمة المثلى التى تدفعنا فى موكب التقدم للأمام بعيدا عن الهيمنة الصهيونية، وحتى لا يستمر عمل خبرائها فى المالية، والزراعة، والسياحة بين ربوع الوطن العربى.

وعلى الرغم ما تطلقه الصهيونية من أقوال تستند فى تنفيذ خططها اللاإنسانية على ما تدعيه بالتراث الدينى، إلا أن مصر ستظل مادامت الأيام هى الشرفة التى تطل منها على العالم تعاليم ابراهيم عليه السلام، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وعيسى ومحمد صلوات الله عليه فهؤلاء بذرة الشجرة ذات الجذور الضاربه فى أعماق الأرض وفروعها فى السماء.

بقى علينا أن ننظر إلى تلك الوشائج، وإخراجها من المطلق إلى المحدود.. إنها ما يتبقى للإنسانية، وهى عزيزة على أفئدة المسلمين.


يموت الفلاحون
في حب مصر



يموت الفلاحون فى حب مصر

فى ذلك الوقت لم تندلع فى قرى مصر أى شرارة ترهص بالثورة. ربما لأن الفلاحين المصريين تميزوا بالقدرة على احتمال الشدائد. والتعامل مع الواقع فى صبر وجلد، وبغطاء من التكيف.

لكن حين يبلغ السيل الزبى وتحتدم فى النفوس مشاعر القهر والإضطهاد، وبدلا من تحويلها إلى طاقة، وتفعيلها بشكل يفضى إلى حتمية التغيير. نراهم يبتكرون نوعا من الأدوات المهذبة، كما حدث فى قصة «الفلاح الفصيح» حيث جسد الآمه فى شكوى رفعها إلى المسئول فى ضراعة وأدب لا تزال تحفظها لنا البرديات.

وصار من المألوف والشائع على الصعيد الوطنى أن الفلاحين فى قراهم ألفوا ألوان الظلم لدرجة أنهم:

«ما كانوا ليسحوا بذلك، أو ليألموا به، وقد تعودوه كما تعوده آباؤهم من قبلهم [1]».

وعلى الرغم من الفجوة الكبيرة الواقعة بين حياة القرى وبين الحياة فى المدينة، إلا أن أهل القرى كانوا يجدون فى قريتهم الطريق المفضى إلى نعيم الآخرة. لاختلافها مع عقلية أهل المدن وجشعهم:

قريتى صاحبة الفضل

وأنا..

---

(١) محمد حسين هيكل: «زينب» ص ٢٢.

لا أحب الجشع المستولى على أهل المدينة
وأتوق
إلى حياة المراعى
وقريتى الخضراء
هناك يقع وطنى ذى القلب الطيب
هناك.
لا يصيح فى أحد .....:
أشتر وردا
وطنى يمنحنى كل شىء فى سماحة
أما تلك المدينة
فهى تكاد تلتهمنى عندما تلقانى قائلة:
كل ما فى جرابك نحن نشتريه
بينما كنت ألوذ بالفرار

نحن أمام صورة شعرية فريدة. رسمها وجدان فلاح مصرى، وهى تفضح بصدقها علاقة أهل المدينة بالقرويين، ولا تحتاج منا لتعليق، ما يمكن قوله أن القرويين ظلوا يؤدون عملهم فى حب وتقديس دون معاضدة من أحد، بينما كان الفرعون يصعد إلى عرشه فيصبح إلها يحاط بمجموعة من الكهنة، ومن كانواهناك دائما يشتغلون فى حياكة المؤامرات، وبمجموعة أخرى جعلت جلّ اهتماماتها: قياس الزمن ووضع بيانات التكهن بما سوف يحصل فى فصول الزراعات وغيرها.

كان الكهنة مشغولين بمطالعة عقائد البلدان الخاضعة تحت السيطرة

المصرية فاكتشفوا أن أوجه الإختلاف بينهم وبين هؤلاء لا يزيد عن بعض التحويرات فى الطبيعة المشتركة، وفى أداء بعض الشعائر، ثم أخيرا، هناك التجانس فى بعض الأحوال، والتباين فى بعض الأحوال الأخرى.

إلى جانب قوة الكهنة فى الحياة المصرية كانت تسطع حياة رجال الجيش وقادته، ورجال الأمن العام، وهؤلاء نجدهم دائما يحظون بالرتب والألقاب والوجاهة الإجتماعية، فى مختلف العصور وفى مختلف الحكومات، سواء كانت حكومات عادلة، أو مستبدة.

ولا تكتمل حلقة البلاط الفرعونى إلا فى وجود نفر من شريحة المثقفين الذين يتمتعون برعاية الملك «الإله»، ومعهم مجموعة من الأطباء والسحرة والعرافين ومن أنيطت إليهم مهمة المحافظة على حياة جلالته، واظهاره للرعية ـ دائما ـ فى ثياب الصحة والعافية.

لأجل هؤلاء. شيدت القصور والصروح العظيمة، وانشئت الضواحى ذات النسق الهندسى البديع، ومن الطبيعى أن تنعكس هذه الأشكال الثرية على واقع حياة أهل المدن، وبما يصاحب ذلك من مظاهر الرفاهية وما يتمخض عن المنجزات الفكرية وقرائح العقول من آثار يفترض فى صناعتها أنها تفتح آفاق المعرفة، ويكون المستهلك والمستفيد منها هم أهل المدن، الأمر الذى لا يتاح لمن أقصاهم المجتمع بعيدا عن سقف حياتهم، حيث ينحنون طوال أعمارهم على قبضات الفؤوس والمحاريث، والعيش فى ظلام الكهوف والأكواخ.

ويفترض أن العيش فى وسط دينامى يتيح لأهل المدن إستحداث عقلية متجددة، بيد أنه لم يكن هناك من يصنع التوازن بين أبناء الوطن الواحد، وكأنه

كتب على شعب مصر أن تلتف حلقات الشقاء حول حياته منذ فجر التاريخ.

لا شيء في حياته يتجدد، حتى قصور الفرعون لا تزال تقام على أرباض المدن، ويعمق هذه الفجوة بين الرعية والراعي مساحات شاسعة، يراعي مهندسو ومخططو المدن أن تشغل قطعة منها مجمع المعبد فلابد أن يكون المعبد موجودا في كل العصور، وبجواره تنبسط خضرة الحدائق المخصصة للتسرية وإمتاع العيون بمظاهر الطبيعة التي لابد أن تكون حاضرة في مختلف الفصول، يلي ذلك قصور نبلاء البلاط الملكي، وقادة الجيوش، ثم رؤساء رجال الشرطة، وعلى القرب من هؤلاء تقع بيوت موظفي البلاط الملكي، ويمكن من هذا المكان رؤية إسطبلات الخيول الملكية وبيوت العمال، وهي جمعاء تقع في خدمة وقبضة النظام المدعم بالدين والراسخ بقوة سواعد العلاقة الأبوية والحكم الطبقي الذي ساعد على ترسيخه بيروقراطية حاكمة، وتعتبر نفسها أنها الجهة الوحيدة المسئولة عن الوطن والمواطنين، من صحة، ورعاية، وتعليم.. ألخ.

لكن ذلك لا يعني مطلقا أن كل الفراعين كانوا نسخة مكرورة من سابقيهم، أو يعيشون في أبراج عالية بعيداً عن مواطنيهم، بل كان فيهم من خبروا الزمن وقدسوا الإله، وقدموا التعاليم الصادقة للبشر حتى يفوزوا بنعيم الآخرة.

حين نطالع أعمال الملك «مار كاري» في العصر الوسيط الأول نراه يسوق إلينا بحكمته خلاصة القول لمن يريدون الا تفتنهم الحياة الدنيا فعلى هؤلاء ألا يثقوا في طول السنين لأن قضاة الموتى يرون فترة الحياة كساعة واحدة، وهي الساعة التي تعادل في الآخرة عمرا مديدا من حياة المتوفى على الأرض: (حيث تتخذ فترة الحياة شكل ثعبان عملاق منقوش باللغة

الهيروغليفية، كمرادف لفترة الحياة، وبهذا المعنى الذى لا ينضب للزمن الذى توقره الحياة الآخرة مشروح بوضوح).

ويشير مشهد آخر فى كتاب «البوابات» إلى مختلف الأوقات التى يظهر فيها الزمن كحبل مزودج، مجدول، غزله إله بفمه:

« تبين النجوم التى فوق الإلتواءات الساعات القائمة بذاتها كوحدات قياس للزمن، وفى هذه تعبير عن كل من البداية ومرور الزمن وبتطور الزمن منبثقا مما هو خفى، ومن أعماق مقدسة للخليقة فى متصل بهيكل تنظيم واضح ليس به ثغرات، ثم ينتهى إلى الأعماق التى انبثق منها أولا، وتولد كل ساعة وتبتلع بمجموع الزمن الذى حده الأقصى هو الخلود [٢] ».

وبين المنظور الإجتماعى أو ما يسميه الأنثربولوجيون «الانثربولوجيا الثقافية»، وأيضا البعد الإقتصادى والنفسانى مع التسليم بأن المجتمع نسق دينامى الحركة، تتفاعل فيه الظواهر السلبية مع الظواهر الإيجابية، يمكن للبحث التاريخى أن يعيد النظر فى التصورات المثالية، أو ما يطلق البعض عليه: رواسب من صور الخرافة والشخصية المصرية.

وما نؤكد عليه. إن المصريين منذ ولادتهم فى كنف الشقاء وهم يعرفون العديد من صور العقل، والعديد من صور اللاعقل، كما عرفوا كيف تولد الحياة المضيئة سواء كان ذلك فى عالم الفكر الإجتماعى، فلسفيا، لاهوتيا، أو كان فى عالم التعامل على أرض الواقع، إذ أن كل واقع فى حياتهم الدنيا

---

(٢) أريك هونتج (حياة سرمدية وحلم عابر .. الزمن والخلود عند الفراعنة) ترجمة حسن حسين شكرى، جريدة أخبار الأدب - القاهرة ٩ رجب ١٤١٨ هـ ٩ ديسمبر، ص ١٦.

له واقع آخر فى عالم الروحانيات، ومن بيت هذا القصيد، ظهر مدى شغف المصريين باقتناء الحكمة والكتب بشكل عام.

يطالعنا فى إحدى مقابر الجيزة بيان الألقاب التى تلى اسم عظيم من عظماء الأسرة الخامسة، ومنها أنه كان أمين دار الكتب الملكية، وهو مدون على الجدران منذ نحو سبعة آلاف سنة مما يدعم الإعتقاد بملكات المصريين المتعددة، وكان اهتمامهم بالمؤلفات لدرجة أنهم أقاموا لها دار خاصة وموظفا يتولى أمر العناية بها.

فى عام (١٩٥ - ١٨٠ ق.م) عين أرسطو فانيس أمينا عاما لمكتبة الإسكندرية، وعلى الرغم من اهتمام مصر بالثقافة إلا أنه لم يصلنا من الأدب اليونانى إلا قدرا ضئيلا، كما يتبين من الإشارات العديدة والإحالة إلى بعض من الكتاب القدامى كأثينايوس وستوبايوس، والقصاصات البردية الكثيرة التى وجدت فى مصر.

وعندما جاء ماركوس انطونيوس إلى الإسكندرية أهدى لكيلوباطرا مكتبة «بييرجامون» التى قالوا فيها إن أثرها ذهب إلى التعليم فى روما نفسها.

وحين اتخذ «بطليموس - سوتر ٢٢٣ - ١٨٥ ق.م» من قلعة الاسكندرية مكانا لحكمه إهتم بإنشاء المتحف الذى ما لبثت أن أصبح جامعة هلللينينية تنافس المدارس اليونانية القديمة، وقد أصبحت الكتابة لدى المصريين شرفا لا تقارن بها أية مهنة إجتماعية أخرى:

«قال الأب لإبنه: لقد بلغنى أنك هجرت الكتابة، وانهمكت فى الملاهى، وصممت على العمل فى الحقل، وأدرت ظهرك لكلمات الإله، ألم تفكر فى حال الفلاح عندما يسجل المحصول، لقد أكل الدود نصف القمح

والتهم فرس النهر وما تبقى.. فويل للفلاح. إن الكاتب هو الذى يرأس أعمال جميع الناس، وهو معفى من الضريبة لأنه يدفع الجزية من الكتابة ولا يكون مستحقا عليه شيء، فأفطن إلى ذلك. أيها الكاتب انزع من فكرك أن الجندى أحسن حالا من الكاتب (٣)».

ومن مقالة للكاتب الملكى «دوا وور – سى – خاردا» نستدل من خلالها على تعاليم الآداب وكيفية تلقينها للنشء. إذ كانت شرفا عظيما يفوق مختلف المهن، وبعد مقدمة وجيزة شرح لنا ما كان يكابده مواطن مصرى فى تعليم ابنه. يقول لإبنه:

لقد رأيت جميع المهن ولكنى حببتك فى الآداب أعرض لك بهاءها أمام وجهك فهى أهم من جميع المهن وما هى بكلمة هباء، إن من يعمل على الاستفادة منها منذ صغره يكون محلا للإجلال فيوفد للقيام بالمهام، أما الذى لا يصيب شيئا منها فيبقى فى الفقر والشقاء.

ثم أضاف قائلا:

وأنا إذا كنت وجهتك إلى «خناعى (*)» فلستُ محمولا إلا بدافع من حبى لك لأن اليوم الذى تستفيده فى المدرسة يبقى إلى الأبد وتبقى الأعمال فيه بقاء الأجيال، فبادر ثم بادر لتعرف بين الناس وتحسب منهم.

هذه ومضة خاطفة من الأساليب العلمية المصرية فى تربية الناشئة منذ أن كانت الكتابة اكتشافا جديدا حيث صممت الهيروغليفية بوجه خاص لتنقش فى الحجر، أو لترسم على جدار، بينما وضعت الكتابة

(٣) الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء.

(*) خناعى: مدينة بالوجه القبلى مشهورة بمدارسها العلمية والأدبية.

« الهيراطيقية » المكتوبة بأحرف متصلة على ورق البردى، أو على الصلصال.

ولكى يحافظ الإنسان على كينونته، طفق ينقش أشكال الطيور وغيرها وما يعتمل فى رأسه ويجيش به صدره على أعمدة المعابد، وباكتشاف آليات الكتابة أدرك ـ مبكراً ـ محدودية الادراك والوعى.

وحين أراد أن يصوب أدوات المعرفة على طريقها الصحيح. وجد خطواته تنتهبها طرق غير معبدة، وأنساق ومفاهيم جديدة تتشعث بين الاقبال عليها والإدبار بعيداً عنها حتى جاء الوقت الذى باتت فيه رغبات الإنسان الدنيوية تتبلور فى صيغة من العقائد، وأصبحت كل عقيدة بشرية دينا يدافع عنه المؤمنون به.

ويقينا، أن الروح الدينية ليست واحدة على اختلاف العصور واختلاف أنواع الثقافة والأمكنة، فعقلية أهل الأسكيمو وتصورها للحياة تختلف عن بلاد تغرق الشمس أرجاءها طوال العام، وأن عقلية من يعيشون فى مجاهل استراليا وإفريقيا تختلف تماما فى النوازع والمشارب، ومع ذلك يمكن القول أن العقول تحتوى على بعض العناصر المشتركة (فلايزال الشعور « بالقداسة » كامنا فى قرارة كل عقيدة دينية، ولا يزال كامنا فيها كذلك شعور بالتسليم والإتكال).

وأياً كانت العقائد، ومهما قيل فيها، فإن العقيدة ستظل الرادع القوى للتهاون الأخلاقى والإنحدار صوب بالوعات المباءة والفساد، وإن انكار العقيدة معناه الخلاص من أقوى قيد يكبح جماح الجانب الشرير من الطبيعة البشرية.

هذا عن ظهور فجر الكتابة وما شاكلها من نوازع، وما استولدته من ومضات عقلية، ثم لم يكد يمضى ركب الحياة حتى ظهرت النقود ويصبح

للمال سلطان يعبر عن عقيدة وجدت من يستقبلها فى ترحاب، ومن يأنف من التعامل بها، وكان التجار ومن يجوبون بقاع العالم من أجل الترويج للسلع يقولون بأنها ظهرت لتعالج مشاكل المعاملات التى استجدت بإتساع رقعة الأسواق، وأصبحت أهميتها تزداد عند أهل المدن، لكنها لم تلب الضرورة والحاجة فى حياة الفلاحين لأنهم كانوا يرتاحون لتقاليد المعاملات وقضاء الحوائج عن طريق المقايضة وتبادل السلع. ووجد مجتمع المدينة نفسه هو المحتكر الوحيد لأساليب الكتابة وتداول النقود، حتى باتت قوتها تكمن فى الاكتناز، وأصبح فائض القيمة يربو على حجم القيمة ذاتها، الأمر الذى فتح أبواب الشراهة على اتساعها، وذلل العقبات أمام الرغبة فى السيطرة:

« وقد زادت من عدد الأشياء التى يمكن أن تقال وأن يجرى التفكير فيها، والتى تشترى وتباع، زيادة هائلة، نتيجة لهذا أصبحت الحياة فى المدينة أبعد عن الطابع الشخصى من حياة القرية، لكنها أكثر دينامية وأثارة منها (٤) ».

القرية .. المدينة.. إسمان يقف كل منهما على حافتى نقيض، بينهما جسر تقع تحته مستنقعات نفسية، ظلت ردحا من الزمن لا يسهل اجتيازها.. كانت هناك هوة بحجم الآلاف من سنين القهر والعبودية اللذين ينتميان إلى مخلوقات شاع بينهم أسلوب عدم التقدير وسوء الفهم المتبادل، من ذلك:

(٤) كافين رايلى (الغرب والعالم) ترجمة د. عبد الوهاب محمد المسيرى و د. هدى عبد السميع حجازى، مراجعة د. فؤاد زكريا - سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٥ - ص ٧٩.

« أن المدينة حكمت الريف بأخلاق الإقطاع، وتعاملت مع الريف على أنه ملكية خاصة وليس عضوا فى المواطنة له الحق الكامل فى كل خيرات بلاده على قدم المساواة [٥] » .

ومن سوء الظن لدى أهل المدينة بالريف، ذلك الإعتقاد بأن فى مقدورهم شراء كل شيء فى الحياة بالنقود، وهى لعنة أصيبوا بها جراء إبتكار الأسواق داخل المدن، وما استجلبته إليها من سلع متنوعة .

بينما ظلت القرية حريصة على الوفاء باحتياجاتها دونما عائد مادى، فعن طريق دعم أواصر المحبة وتقوية لروح الزمالة والمعاضدة، كانت جهود المشاركة التى ترسخت قاعدتها فى نفوس الجميع، تستطيع أن توظفها فى خدمة المصلحة العامة، والمصلحة الخاصة، وبهذه الروح كانت تتصدى لجبروت الفيضان، حين كان النيل يتدفق فى معاده من كل عام، ليغرق الحرث والنسل والماشية، ولكن بفضيلة المشاركة يمكن قضاء كل الحوائج، ويمكن لأى فلاح أن يجنى محاصيله الزراعية بمساعدة أهل قريته، وقد سعد الجميع بهذا الأسلوب لأنه يحدث بينهم بالتناوب، ودونما تقصير من أحد .

فى بداية القرن الثامن عشر رصد علماء الحملة الفرنسية عدد القرى المصرية بنحو ٣٦٠٠ قرية، وكان متوسط عدد السكان ٥٨٤ نسمة.. فى آخر تعداد بلغ عدد القرى ٤٣١٠، وبلغ متوسط سكان كل قرية مع توابعها ٦٢٧٤ نسمة تقريبا، واتضح أن قرى الوجه القبلى أقل عددا وأكبر حجما من قرى الوجه البحرى .

---

(٥) عبد الفضيل السروى (شخصيات ريفية) .

تجسدت القرى المصرية فى نوع من الأشكال التى كان يعرف بالقرى المتكتلة، وهو النمط الذى كان مألوفا للقرية الريفية، حيث بدت ملامحها تتضح فى بيوت الطين المتلاصقة مع بعضها البعض، وظهر أن الحاجة لهذا النوع من القرى له فوائد جمة:

« والقرى الكبيرة ضرورة إجتماعية واقتصادية، ذلك لأن كثيرا من صور التنظيم الإجتماعى بالنسبة لأعمال الزراعة واستئناس النهر تحتاج لعدد كبير من السكان، ومع ذلك شهدت مصر أيضا القرى المتناثرة أو الصغيرة إما كتوابع للقرى الكبيرة، أو فى المناطق المعزولة التى تندر بها الموارد (٦) ».

إلى جوار القرى الكبيرة كانت توجد التوابع التى تمثل صورا للعمران على شكل تجمعات تحيط بالقرى المركزية، وتعرف أحيانا بالكفور والنجوع والعزب، بمعدل خمسة توابع لكل قرية، وتكثر التوابع فى محافظات الدقهلية، والشرقية، والبحيرة، وتنخفض نسبتها فى محافظة الغربية.

ولا ندرى لماذا استولى الذعر على أهل المدينة وتجلى ذلك فى روح عدائية على أقلام وألسنة من أوهمونا بأنهم مهتمون بالشأن العام فحين امتدت أسلاك الكهرباء إلى القرى، وهو حدث فريد بدد العتمة التى رانت على البيوت لعدة قرون، وأتاح لأهلها متابعة برامج التليفزيون: التعليمية .. الإخبارية.. الترفيهية.. الدينية، راح هؤلاء يدعون بأن الكهرباء أفسدت أخلاق القرويين، وأنهم باتوا يسهرون كل ليلة إلى ما بعد منتصف الليل، وكانت النتيجة ـ بنظرهم ـ أن التليفزيون علمهم الكسل والتراخى مما كان له

(٦) المصدر السابق، ص ١٩.

بالغ الأثر على قدرة الأرض الإنتاجية.

ومن شاء العودة لمطالعة جرائد ومجلات نهاية السبعينات من القرن الماضى سيجدها تفرد لهذا الموضوع الصفحات الطوال، وما يثير العجب أن أحدا من هؤلاء لم يهتم برصد أحوال القرى حين وقعت تحت اجتياح عتيد، حتى تتخلى عن خصائلها القديمة فيرتدى أبناؤها الجينز والتشيرتات، وهو تحول وصل إلى درجة لم يعد بعدها - فى المدينة الأصلية - ما يبهر أهل القرى، فكل الأنتيكات والمعلبات المستوردة والملابس العصرية الجاهزة، ومعارض بيع السيارات، ومحلات بيع قطع الغيار والدراجات البخارية ومحلات الموبايل وبيع أطباق الدش.. كل ذلك حول القرية إلى أسواق للبيع بالنقد، وعلى أقساط.

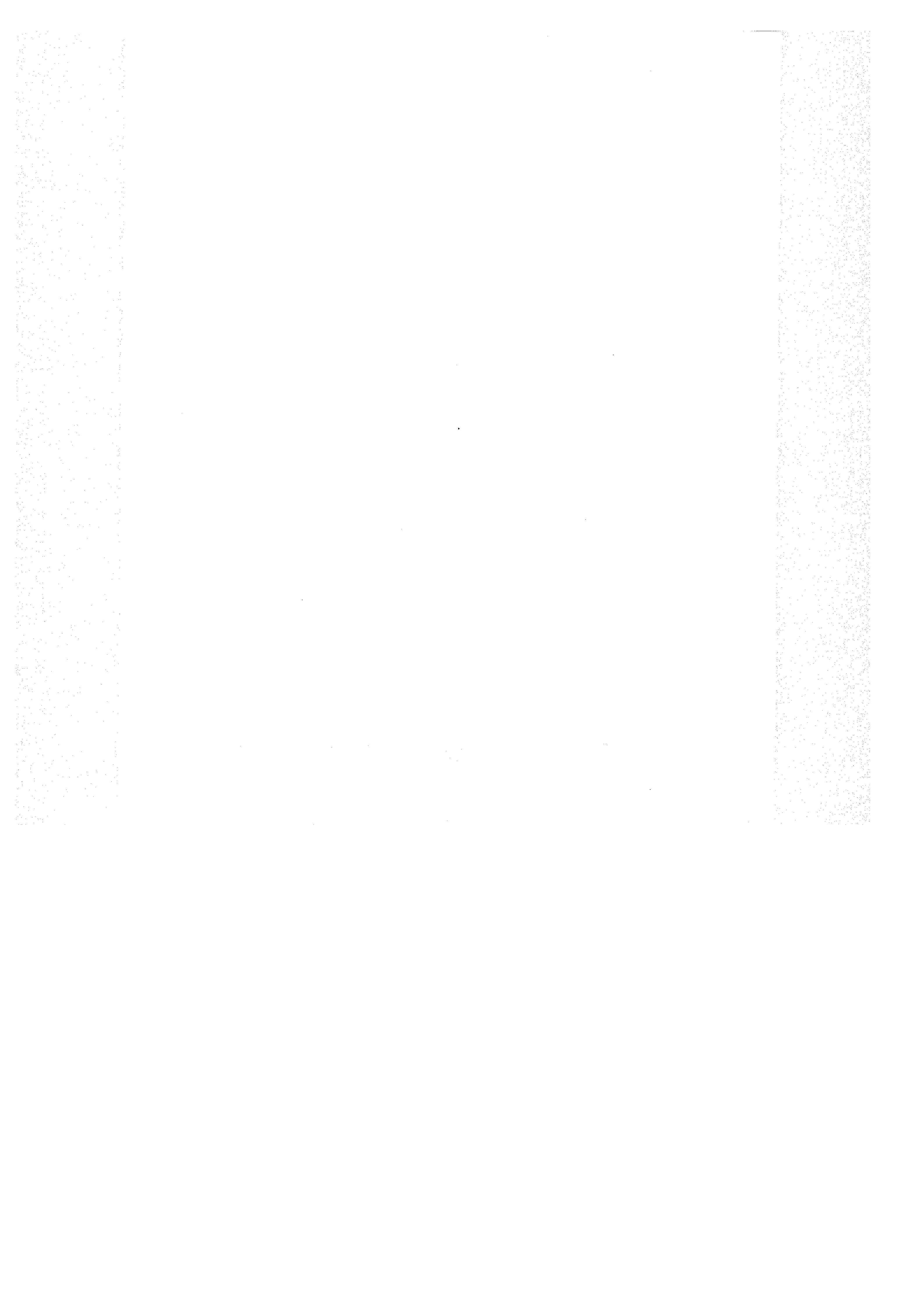
تعيدنا صور النهب العصرى والسطو المقنن إلى ما كانت عليه الدولة العثمانية حين تعجز عن دفع رواتب جنودها، إذ لم تمانع فى إطلاق الأيدى لنهب القرى والإستيلاء على الحبوب والماشية، وكل ما كان يمكن الحصول عليه تحت تهديد السلاح، كذلك فعل المماليك بأهل القرى، ثم جاء الإنجليز ليستولوا على ما فى بطن الأرض وما على سطحها.

ثم لا يزال السائد لدى أهل المدن أنه عندما يأتى ذكر القرية على الألسنة فإن اللعاب يسيل من فرط الصور الغنية بالحليب، وما تكتنزه المُخيلة من روائح الفطير المشلتت المحشو بالعسل والقشدة، وهى جميعها مأخوذة من أشكال فاتحة للشهية، وقد خَصَّبها النيل فى حياة المصريين، وبما كان يخلعه على مختلف القرى من ثراء، منذ فجر تدفقه من الجنوب إلى الشمال.

ومن عـجب أن النيل لا يزال يحـافظ على تلك العـلاقـة المتناقـضـة بين القـرية وبين المدينة فـفى جـانب يوجـد قـوم لا يعـرفـون سـوى أن يزرعـوا ويحـصـدوا، بينمـا على الجـانب الآخـر قـوم يسـتـمـتـعـون بما تنتـجـه الأرض، وينعمون بكل وسائل الرفاهية.

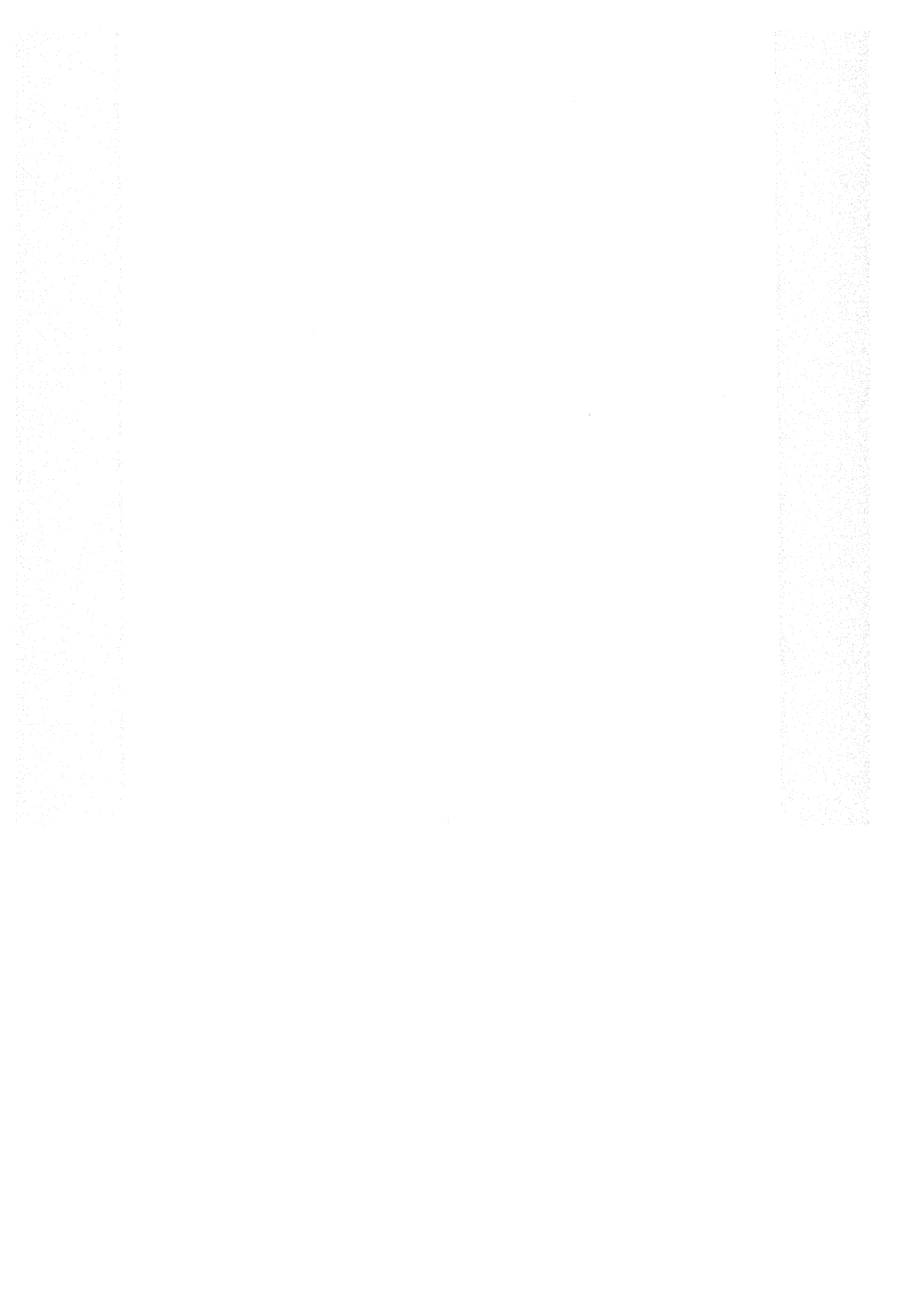
فهل لا يزال للنيل دخل فيما يجرى على ضفتيه؟

*****





عقائد تقدس البقر وعقائد تعبد البشر



عقائد تقدس البقر وعقائد تعبد البشر

بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ١ :٦] . . صدق الله العظيم .

بهذه المعانى الرفيعة حدد القرآن الكريم نهج الهداية وحرية الإختيار **﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾** [الكهف : ٢٩] ، ومع حرية العقيدة التى كفلها الإسلام كان يحث الإنسان على إعمال العقل ، ومع أنا لا نود الدخول فى حلبة المقارنة بين العقائد والأديان إلا أننا وجدنا أنفسنا بعد أن ذهب عن دين المسيح (روح المسيح) ، نقف أمام حقيقة تؤكد : (لا دخل للعقل فى دين النصارى) وأن الأصل الأول للنصرانية كما ذكر الأمام الشيخ محمد عبده فى كتابه « الإسلام والنصرانية » : « الخوارق » والأصل الثانى للنصرانية : « سلطة الرؤساء » والأصل الثالث : « ترك الدنيا » ، والرابع : « الإيمان بغير المعقول » ، والأصل الخامس : « أن الكتب المقدسة حاوية لكل ما يحتاج إليه البشر فى المعاش والمعاد » . والأصل السادس : « التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الأقربين » .

من هنا إندلع الخلاف بين المسلمين والنصارى وقد انحصر فى ألوهية عيسى بن مريم العذراء ، وهو ذات الخلاف الذى أدى إلى صراع دام بين « الملكانيين » وأتباع الكنيسة البيزنطية وبين الكنيسة الأرثوذكسية المصرية والذى أدى إلى إضطهاد النصارى وفرار الأنبا « بنيامين » إلى صحراء مصر هربا من بطش « هرقل » ، وتولية المدعو « كوش » على مقعده الكنسى .

وفى بيان أن الله لا شريك له وأنه تعالى منزه عن الولد نهتدى بقوله جل شـــأنه: ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا** ﴾ (١).

وبعد أن أشاعوا منكرا من القول وزورا قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ..** ﴾ [مريم: ٣٥].

كانت الكنيسة الكاثوليكية والأرذثوكسية كنيسة واحدة حتى القرن الحادى عشر، ثم حدث الانشقاق: «لأن الكاثوليك أضافوا إلى قانون الايمان كلمة، فأصبح النص الأرثوذكسى هو الأصل من القرن الرابع أن الروح القدس منبثق من «الآب» أما الكاثوليك فأضافوا الروح القدس منبثق من الآب والابن) وهو ما يميز الإيمان الارثوذكسى عن الكاثوليكى (٢)».

ومن أعلى بقعة فى جبل المقطم اتخذ الأب ماكسيموس مكان إقامته، وهو المكان الذى يعتبره «كنيسة» لكى يحرر - حسب زعمه - الكنيسة الأرثوذكسية من قبضة البابا شنوده الذى يعتبره ديكتاتورا، وقرر أنه سعى بالفعل لتحقيق عدة انجازات تتلخص فى يمين الشراكة مع الكنيسة

(١) الأنعام: ٨٨-٩٥

(٢) ماكسيموس: عصر البابا شنودة هو الأسوأ فى تاريخ أقباط مصر المعاصر - حوار أجراه شريف الدواخلى وهانى سمير، جريدة الدستور، القاهرة ٨ ابريل ٢٠٠٩ ص ١١.

البرازيلية والمجلس الأعلى للكنائس الكاثوليكية الرسولية، وأنه أصبح مقررا للجنة التجديد اللاهوتى فى المجلس العالمى للكنائس الكاثوليكية.

والتجديد اللاهوتى حسب رأى الأب ماكسيموس يعنى إعادة صياغة تفسيرات جديدة للنصوص تتمشى مع روح العصر وقواعد الآباء، أى التفكير بطريقة عصرية مع الالتزام بالتراث.

وحول الحوار مع الآخر، أضاف الأب ماكسيموس:

«أنا كقبطى اتخذت من المسيح طريقا للرب، ومخلصا لى، وأخى المسلم اتخذ من الدعوة المحمدية طريقا له لدخول الجنة، وعلى كل منا احترام أفكار الآخر دون محاولة لاقناع كل طرف بصحة وجهة نظره وخطأ الآخر، وإنما يجب على كل فرد أن يقبل معتقدات كل منا وليس أن يقتنع بها لأنه لو اقتنع بها فمن الأفضل له أن يترك دينه ويتحول للدين الآخر، بما يعنى إلغاء الديانات والابقاء على ديانة واحدة، فمثلاً عندما يقول أخى المسلم إن نبيه نزل عليه الوحى من السماء وانه سيشفع له فى الآخرة فلا نعلق على الأمر ونقبله من باب التعايش وان لم نقتنع به، لأننا يجب أن ننظر لكل دين باعتباره حقيقة كامنة فى حد ذاته، وعلى الضفة الأخرى للنهر يجب أن يحترم المسلمون مثلث الأقانيم الذى تؤمن به جموع القبط وفكرة الإله الواحد مع عدم الدخول فى أية تفاصيل [٣]».

إن مصادر الاختلاف وتضارب الآراء حول الدين المسيحى لم تكن منذ بدايتها بين مسلمى مصر والنصارى.

(٣) المصدر السابق.

ونحن نذكر أنه فى عام ٢٠٠٦ تصاعدت أصوات المطالبين بإصدار تشريع دولى يجرم انتهاك العقائد. الجميع ذكروا اسم العقائد تاركين الباب مفتوحا على التلبيس والإبهام، لأن هناك عقائد كثيرة غير سماوية.

فى هؤلاء من يعبدون البقر، ومن لايزالون منكبين على عبادة الأصنام والشيطان.. فهل يشمل التشريع الدولى هؤلاء كعقائد تحظى بالاحترام؟.. والمطلوب من المسلمين ألا يمسوا مشاعر المسيحيين خاصة فى ما يتعلق بفكرة « تأليه المسيح ».

إن المسلمين يحفظون عن ظهر قلب الحديث النبوى« « لا إله إلا الله » فيما قاله ابن حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل(٤)».

وحين يقرأ المسلمون آيات الله يخرون له ـ سبحانه ـ ساجدين: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴾ [الزخرف: ٨١]. يقول تعالى: ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد إن كان للرحمن ولدا فأنا أول العابدين» أى لو عرض هذا لعبدته على ذلك لأنى عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرنى به ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا كما قال عز وجل:

(٤) متفق عليه: البخارى (١٣٩٩، ١٤٠٠، ٢٩٤٦) ومسلم (٢٠ و ٢١)

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٥)» .

هذا ما جاء فى التنزيل وهو المعجزة التى نزلت على صدر محمد ﷺ ، ولسنا فى وضع المقارنة إذا قلنا أن الشائع من المعجزات أن عيسى عليه السلام كان يكلم الناس فى المهد .

هناك آخرون من خلق الله تكلموا وهم على أثداء أمهاتهم، فعن أبى هريرة رضي الله عنه . عن النبى ﷺ قال : «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم، وصاحب جُرَيح، وكان جُرَيجُ عابدا، فاتخذ صومعة فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلى فقالتْ : يا جُرَيحُ، فقال : ياربَّ أمى وصلاتى فأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته وهو يصلى، فقالت : يا جُريجُ، فقال : أى ربِّ أمى وصلاتى . فأقبل على صلاته، فقالت : اللهم لا تُمته حتى ينظر إلى وجوه الموسمات، فتذاكر بنو إسرائيل جُريحا وعبادَتهُ، وكانت امرأة بغىٌّ يُتمثل بحسنها، فقالت : ان شئتمُ لأفتننَّهُ، فتعرضتْ له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعيا كان يأوى فى صومعته، فأمكنته من نفسها فوقع عَلَيَها . فحملت، فلما ولدت قالت : هو من جُريج فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربُونه، فقال : ما شأنكم؟ قالوا : زنيت بهذه البغِّى فولدت منك . قال : أين الصبى؟ فجاءوا به فقال : دعونى حَتَّى أصلى فصلى، فلما انصرف أتى الصَّبىَّ فطعن فى بطنه وقال : يا غلام من أبوك؟ قال : فلان الراعى،

---

(٥) الزمر : ٤ .

فأقبلوا على جُريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا: نَبْنى لك صومعتك من ذهب. قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا. وبيننا صَبىٌّ يرضع مِنْ أمه، فمر رجل راكبُ على دابةٍ فارهةٍ وشارةٍ حسنةٍ فقالت أمه: اللهم اجعل ابنى مثل هذا فترك الثدى وأقبل إليه فقال: اللهم لا تجعَلْنِى مثله، ثم أقبلَ على ثديه فجَعَلَ يَرْتضعُ (٦)».

المؤمنون يصدقون ما وراء العقل، ومدعو العقل يشكُّون.

فى العصر الحديث أحدثت الإنسانية تفوقا فكريا، وتقنيا، وماديا، وانتهى هذا التاريخ بسيادة موجة الشك الديكارتى فى مختلف أرجاء أوربا.. هناك اختلف العلم اللاهوتى، وكان السؤال القلق:

هل يمكن التوفيق بين مذهب ديكارت وتعاليم الكنيسة؟:

«جاءت إجابة اليسوعيين بالنفى، أما آباء «الأوراتوارى» فردوا بالايجاب، وتحمس «اليانسنيون» فى بور رويال للديكارتية (٧)».

بينما كان اليسوعيون يضطلعون بمهمة تيسير المسيحية وتقديمها بشكل يربط الناس بحل وسط يجمع بين الدنيا والدين، وارتفعت نبرة مذهب اليانسنية فى سخط حين صوبت سهامها ضد ما لحق بالإيمان والأخلاق من فساد:

«وقررت عدم وجود حل وسط مع العالم، فلا توافق بين الافتائية

---

(٦) أبى هريرة (٨ / ٢٥٩).

(٧) ج.ب. بيورى (فكرة التقدم) ترجمة د. أحمد حمدى محمود - مراجعة أحمد خاكى - المجلس الأعلى للثقافة - ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م ص ٧٨.

والأخلاق، لأن الإنسان فاسد بطبعه، والجوانب الفاسدة موجودة حتى فى أفضل أفعاله (٨)».

وساد صوت الجدل ذى النزعة الديكارتية وارتفعت نبرة من يقولون: كانت الديكارتية نبيذا قوى المفعول، ومن ثم تعذر سكبه فى زجاجات قديمة» بما يعنى أن الفقه الكنسى غير قادر على التعامل مع العقل الأمر الذى دفع «ماكيافيللى» لأن يدلو بدلوه فى إذكاء روح الجدل ضد موقف الكنيسة، حيث زعم بأنه لا يمكن أن يتحقق أى نظام حسن للمجتمع إلا إذا اعتمد على تصميم حصيف لمشروع حكيم، فما صور الحكومات والأديان إلا مبتكرات شخصية لعقل فرد بالذات، ولن يتحقق أى دستور يدعو إلى الرضا، ولن يتيسر لأى دين البقاء لأى فترة من الزمان إلا إذا قمعت بلا هوادة أى نزعات تهدف إلى الانحراف عن التصورات الأصلية لخالقها.

وعلى الرغم من ذلك لا تزال التصورات (لخالقها) تنقسم حول ألوهية المسيح المخلوق من روح الله، وقد أكد الذكر الحكيم ما يقطع بقول الله فى هذه المسألة:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (٩)».

(٨) المصدر السابق: ص ٧٩.

(٩) آل عمران: ٥٨-٦٣.

وفى هذا يقول البخارى :

« حدثنا صدقة بن الفضل، أنبأنا الوليد، حدثنا الأوزاعى، حدثنى عمير بن هانىء، حدثنى جَنَادة بن أبى أمية، عن عبادة بن الصامت، عن النبى ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » .

إن الله خالق كل شيء فكيف يكون له ولد ؟.. والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا نظير له ولا شبيه، ولم يتولدعن شيء قبله، ونظير له فى ذاته والذى اتصل بمريم هى نفحة من الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم :

« وهى مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقال : بيت الله وناقة الله وعبد الله، وكذا روح الله أضيف إليه تشريفا لها وتكريما، وسمى عيسى بها من غير أب وهى الكلمة أيضا التى عنها خُلق وبسببها وجد (١٠) » .

وقال سبحانه وتعالى لعيسى :

« قضيتُ يوم خلقت السموات والأرض أنى مثّبت هذا الأمر على يد عبدى محمد واختم به الأنبياء والرسل، ومَوْلده بمكة ومهُجَره بطيبة وملكه بالشام، ليس بفظ ولا غليظ ولا سَخَّاب فى الأسواق ولا يتزين بالفحش ولا قوال بالخنا، أُسدده لكل أمر جميل وأهب له كلَّ خُلقٍ كريم، وأجعل التقوى ضميره، والحكم معقوله والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته

(١٠) ابن كثير (قصص الأنبياء) تحقيق عبد القادر أحمد عطا. الجزء ٢، ١٤٠١ هـ ١٩٨١، دار الكتب الإسلامية ص ٣٨٧.

والاسلام ملته، أسمه أحمد، أهدى به بعد الضلالة وأُعلم به بعد الجهالة، وأُغنى به بعد العائلة، وأرفع به بعد الضَّعة، أهدى به وأفتح به بين آذان صم وقلوب غُلف وأهواء مختلفة متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إخلاصا لأسمى وتصديقا لما جاء به الرسل، ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل فى مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلون لى قياما وقعودا وركعا وسجودا، ويقاتلون فى سبيلى صفوفا وزحوفا، قرباتهم دماؤهم وأنا جيلهم فى صدورهم وقربانهم فى بطونهم. رهبان بالليل ليوث فى النهار، ذلك فضلى أتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم (١١)».

وحول نزول الكتب المقدسة. قال أبو زُرعة الدمشقى:

« حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى معاوية بن صالح، عمن حدثه قال: أُنزلت التوراة على موسى فى ست ليالٍ خلون من شهر رمضان، ونزل الزبور على داود فى اثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، ونزلت بعد التوراة بأربعمائة سنة وأثنتين وثمانين سنة، وأنزل الانجيل على عيسى بن مريم فى ثمانية عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاما، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ فى أربع وعشرين من شهر رمضان.

وذكر ابن جرير فى تاريخه أن الانجيل نزل على سيدنا عيسى وهو ابن ثلاثين سنة، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

وأنزل الله فيما أيد به عيسى وعصمه من مكائد اليهود قرآنا ناطقا يذكر

(١١) ابن كثير (مصدر سابق) ص ٤١٠ و ٤١١.

نعمته على عيسى: ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ .... ﴾ [المائدة: ١١٠]».

وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد: كان عيسى يقول: اعبروا الدنيا ولا تعْمرُوها، وكان يقول: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع فى القلب الشهوة.

وقال أبو مصعب عن مالك: قال عيسى بن مريم عليه السلام: «لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم، فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى فأرحموا أهل البلاء وأحمدوا الله على العافية».

هذه المسيحية حين أرادت الخير للبشرية بذكر الله والابتعاد عن اقتراف المعاصى فى بلاد كان أهلها لا يعرفون شمالهم من يمينهم، وبين أجناس يحدها فواصل عرقية شائكة، وترضخ أعمالها لقيم وأخلاق الربويين والصيارفة، بحيث لا يستطيع أحد الإدعاء بأن ما يتألف من أجناس الأرض الآن ما يصح تسميته بالمملكة البشرية الحرة؛ أو المتحدة.

وحين عالجت الفلسفةالغربية هذه الأمور تناولتها بوجه سافر فى إملاء تصوراتها على مشيئة الله خاصة منها فيما يتعلق بالدين، والفرد، والمجتمع، وتزعم هذه الفلسفة:

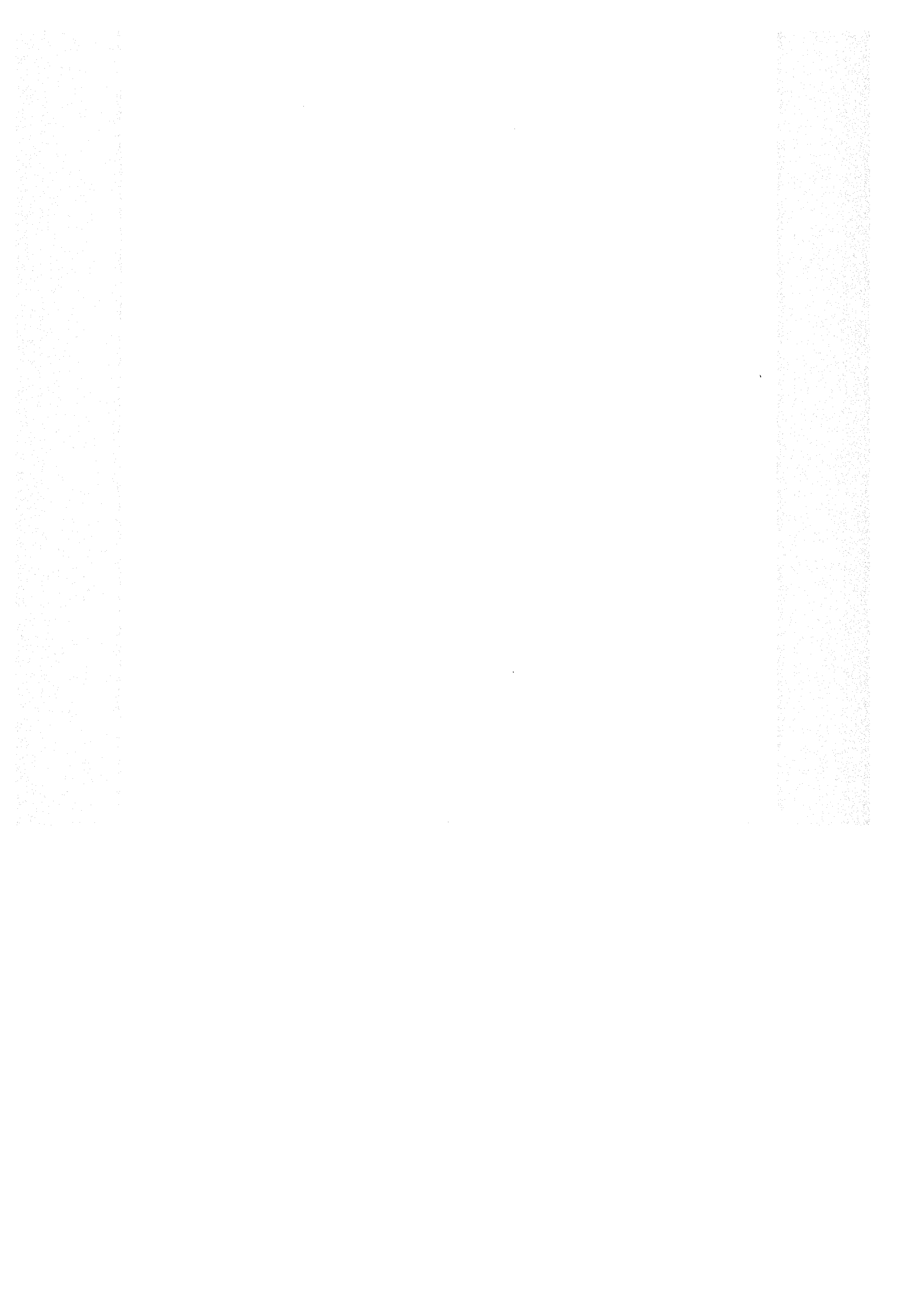
«بأن الخالق كان سيهتدى إلى نتائج أفضل لو أنه اعتمد على سبل أخرى، ورأى «مالبرانش» أن واجبنا عند الحكم على العالم يدعونا إلى عدم

الإكتفاء بمراعاة النتيجة، فعلينا أن نعنى ايضا بالسبل المتبعة فى تحقيقها، وفى رأيه أن أفضل عالم يمكن خلقه بالإعتماد على سبل عامة بسيطة، والسبل العامة البسيطة هى أكملها، ووحدها الجديرة بالخالق، فهو يقدم بعض العزاء للكائنات التى تعانى من أوجه النقص الفعلية الموجودة فى العقيدة التى شبوا عليها، بعد أن يقال لهم بأن العالم ربما استطاع التحرر من هذه النقائص، ولكن ما سيحدث فى هذه الحالة؟!

إنهم مهمومون فى كل الأوقات، وغارقون فى ذواتهم، ولم يدركوا بعد أن حرية كل « ذات » مهما بلغت فسيظل أفقها محدودا بمختلف المقاييس. إذ أن من حق كل « ذات » أن تكون حرة. وأن يكون لها أفق. لكن مهما ارتفع سقفه فإنه فى النهاية يُفصح عن مدى الانتقاص من مجموع التنوع وتضارب البُنية الرؤيوية. وحسبنا فى ذلك الأمر أن كل ذات تعتبر وجودها هاما وسديدا على النحو الذى يدفعها إلى إغماط حق الآخرين: « وبناء على ذلك تصبح ماهية الحرية قيمة استعمالية، وتقررها الذات لنفسها. وتتباين بتباين الذوات. وتختلف حقيقتها من فرد إلى آخر.. فليس ثمة خاصية هى خاصية جوهرية مطلقة لشىء واحد. إذ أن نفس الخاصية التى أراها ماهية الشىء فى مناسبة ما تصبح قسمة غير جوهرية [١٢] ».

******

(١٢) شوقى جلال (الوعى بالذات وسنوات الرشد والقلق) مجلة القاهرة فبراير ١٩٩٣ ص ١١٠.





لماذا ينحاز المسلمون إلى عدالة الله؟

لماذا ينحاز المسلمون إلى عدالة الله؟

ارتفعت أصوات المسلمين في المساجد بقول الله تعالى : ﴿ **مَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾(١) » .

ورتل القوم في إيمان بأن الجهاد ليس ممارسة عدوانية ضد أي جنس وانما هو رهن بذلك الموقف الذي توضحه الآية : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ (٢) » .

وعلى ذكر المعتدين يتناهى إلينا صوت « جورج بوش » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق في مسعاه من أجل بناء شرق أوسط جديد فطلب إلى حكام العرب والمسلمين أن يكونوا أكثر « إعتدالا » وحثهم على حذف أو تعديل الآيتين السابقتين، لأن مضمون ﴿ **وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ لا يريح الغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، في ذات الوقت التي كانت فيه القوات المتعددة الجنسيات بقيادة أمريكا تدمر المدن العراقية .

ونحن لا نرى المعتدين في « الآخر » الذي ليس من جنس العرب والمسلمين فحسب، وإنما في « نحن » ومن يشكلون بجمودهم موقفا طاعنا لا يصدر إلا من أعداء الإسلام، وجميعهم موظفين على درجات حكومية

(١) النساء: ٧٥.
(٢) البقرة: ١٩٠

ويشغلون مقاعد رجال الدين.

حين اجتمعوا فى القاهرة عام ٢٠٠٤ م لبحث الحلول التى تدفع عن الشعب العراقى الجرائم التى ترتكب ضده على أيدى قوات المارينز.

انتفضوا فى نبرة « مسيحانية » يلوحون براية التسامح (!!) وبدلا من رفع راية الجهاد فى وجوه العتاة والمعتدين، راحوا يناشدون المسلمين فى شتى بقاع الأرض بأن يخفضوا جناح الرحمة حتى يظهروا أمام العالم فى شكل « حضارى » :

« وتجاهل هؤلاء العلماء أن رسول الله فعل ذلك من موقع القوة وليس من موقف الضعف، وقالها من منطق العفو عند المقدرة وجيوش المسلمين تطبق على مكة من جهاتها الأربع، وبعد أن كسر أنف الطغاة فراحوا يلتمسون الصفح، وما كان يقولها رسول الله وجيوش العدو تغتصب الأرض، وتهتك العرض، وتسلب المال، وتخرب الديار [٣] ».

هؤلاء الذين ينافقون حين يستشهدون بأحاديث رسول الله ﷺ ويذهبون بها إلى غير وجهتها الصحيحة، قد قال الرسول فيهم: « إن أخوف ما أخشى عليكم بعدى منافق عليم اللسان »، ونحن نذكرهم بما جرى للرسول خلال صلح الحديبية.

ففى العام الذى أطلق عليه عام الحديبية. خرج صلوات الله عليه وسلامه مع أصحابه لزيارة البيت المعمور ومعه من الهدى سبعين بدنة فاعترضتهم قريش ظنا منها أنه جاء لقتالهم على رأس سبعمائة رجل:

(٣) جمال بدوى (يا علماء المسلمين.. اتقوا الله) مقال - جريدة الوفد ٢٠٠٤.

خرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى فقال: يارسول الله هذه قريش، قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل (*) قد لبست جلود النمور يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عَنوة أبدا، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم.

وكما أشرنا سلفا. لم يكن الرسول ﷺ يمضى إلى هناك للقتال وانما للزيارة وملاقاة الجموع لنشر الدعوة بينهم فقال لبشر بن سفيان الكعبى: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر الناس؟ فإن أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله تعالى دخلوا وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله عز وجل أو تنفرد هذه السالفة».

ثم عادت قريش وأرسلت للرسول ﷺ بديل بن ورقاء فى رجال من خزاعة فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان الكعبى فأرسلوا إليه مكرز بن حفص، وكلمه الرسول ﷺ بنحو مما تكلم مع أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بقول رسول الله ﷺ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكنانى وهو يومئذ سيد الأحابيش، وأعقبه عروة بن مسعود الثقفى، والمغيرة بن شعبة، ثم سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل».

وهناك جرى أمر أثناء الإعداد لتوقيع الإتفاقية لو لم يعالجه الرسول بحكمته وحصافته لانقلبت الأحوال إلى غير صالح الدعوة ونشرها. إذ أنه

(*) المطافيل: الإبل بأولادها.

حين التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب والتوقيع عليه، وثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأتى أبا بكر رضي الله عنه فقال:

– يا أبا بكر أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟

أجاب:

– بلى.

قال عمر:

– فعلام تعطى الدنية فى ديننا؟

قال أبو بكر رضي الله عنه:

– يا عمر إلزم غرزه حيث كان فإنى أشهد أنه رسول الله.

فقال عمر رضي الله عنه:

– وأنا أشهد.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال:

– يا رسول الله أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟

قال ﷺ: بلى.

– قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟

– فقال ﷺ: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرى أن المسلمين الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وهم على قاعدة التوحيد الراسخة. لا يجب أن يتنازلوا استجابة لرغبة المشركين ويوقعوا معهم على كتاب، وفى ذلك أوضح له الرسول خير ما يتبع فقال عمر رضي الله عنه: مازلت أصوم وأصلى وأتصدق وأعتق من الذى صنعت

مخافة كلامى الذى تكلمت به يومئذ، حتى رجوت أن يكون خيرا.

مرة أخرى نقول لمن ينافقون فى المؤتمرات التى تمولها الدولة وتصرف عليها من جيوب البسطاء ودافعى الضرائب: ما الهدف من وراء مداهنة قوى الشر والظلام؟ .. لماذا أسقطوا من رؤوسهم قول الله تعالى: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ ؟[البقرة: ١٢٠]، واكتفوا بترديد: ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾؟ [فصلت: ٣٤].

فى بيان أصدروه عقب إنفضاض مؤتمرهم.. قالوا: إن الإسلام عندما يكون مضطرا إلى حرب، فإنه لا يكتفى برد العدوان، بل يحارب العداوة فى نفوس الأعداء فإذا بهم ينقلبون أصدقاء».

يا سبحان الله.

يا لنا مما نلاقيه من شيوخ يجتهدون فى تلبيس الحق ثياب الباطل واستعماله فى أغراض لا تخدم شرع الله وعدالة السماء. إذ ليس من الدين استعمال آية يحرفها القوم عن ما وراء القصد ووضع الدلالات البعيدة عن الأصول وفى غير محلها:

«إن الآية التى أوردوها نزلت فى مكة يوم لم يكن للمسلمين قوة ولا عتاد، وكان الغرض منها تربية المسلمين على التسامح فى إطار العلاقات الشخصية والتآلف الإجتماعى فتتحول الإساءة إلى حسنة، وينقلب العدو صديقا، ولم تكن تنزل فى المدينة بعد أن صار للمسلمين دولة وقوة بأس وجيش منظم، وعندئذ يكون رد العدوان بالدفع والمقاومة، ولا يكون

التسامح حسنة تحسب للمسلمين، بل سؤة واستخذاء ومهانة وتهاونا مع الذين قاتلونا وأخرجونا من ديارنا، وظاهروا على اخراجنا (٤)».

هؤلاء ـ قد يكونوا من حيث لا يعلمون ـ بمنطقهم هذا، إنما يخدمون أهدافا صهيونية، صليبية، وهم يقتحمون قلاع التاريخ:

«إن صلاح الدين عفا عن الصليبيين، بعد أن دخل القدس، وهذا الكلام يمثل نصف الحقيقة، والحقيقة بالكامل أن صلاح الدين لم يصفح عنهم إلا بعد أن حطمهم فى حطين، فأذل كبرياءهم وأذاقهم وبال أمرهم وشتت جماعتهم فدخل القدس دخول المؤمن القوى الذى يأبى سفك الدماء، وقتل الضعفاء (٥).

وأورد المؤتمرون فى بيانهم موقف الرسول ﷺ من أهل مكة الذين أذاقوه الأمرين فعندما حقق الله له النصر على جنودهم، لم ينل منهم وأطلق أمراً إهتزت له كل الأرجاء: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وتناسى هؤلاء أن اقتطاع آية من جسد أحداث لها مواضعاتها وظروفها لإستغلالها فى مناسبة غير مشابهة، بل وليست من جنسها لا يستفيد منه سوى أعداء الإسلام، لأنهم يميلون عند التطبيق إلى ما وراء القصد فتنحرف وتسف اللغة التى يفترض فيها أنها أفضل أداة للتعبير والإتصال. ودعونا نسوق لهؤلاء واحدة من آلاف الوقائع المأساوية التى لحقت بالمسلمين على أيدى مسيحى الغرب.. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [ابراهيم: ٢٥]:

«لما أجلى العرب سنة ١٦١٠م اتخذت جميع الذرائع للفتك بهم فقتل

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

أكثرهم وكان مجموع من هلك من العرب على يوم من أيام فرديناند إلى ميعاد الجلاء ثلاثة ملايين من الناس. في حين أن العرب لما فتحوا أسبانيا تركوا السكان يتمتعون بحريتهم الدينية محتفظين بمعاهدهم ورئاستهم غير مكلفين إلا بدفع الجزية، وقد بلغ تسامح العرب طوال حكمهم في أسبانيا مبلغا قلما يصادف الناس مثله في هذه الأيام [٦]».

وفي مصر يمكن لشعبها أن يصوب الخطو حتى تستعيد البلاد عافيتها على درب تيار التاريخ، لا ضده:

«وقد تتخذ هذه العودة إلى الكمال، صورا شتى، أجل إنها قد تتخذ صورة العودة إلى الإسلام التي تعرض على المؤمنين، كما قال عباس محمود العقاد، شكلا لا «فصام» فيه، ولا تجزئة لقوة العمالة، ولقد احتفظت الكتلة الغالبة من الأمة بايمانها، وقد يجد الرجل السياسي نفسه منجذبا إنجذابا كليا، نحو العودة إلى هذا الشكل الأثير من أشكال التكامل، ولعل الخطأ في هذا الافتراض، على جميع الأحزاب التي تدعي الولاء له، والاذعان لمتطلباته، يكمن في أن يخطيء الإنسان فيعتبر دروب الماضي، دروب الأصالة الخلقية، والضبط الاجتماعي، ولا يحقق الافتقار للواقعية أي شيء للانسان، وها نحن نرى أن المعاني في الشرق الأوسط، تتخذ الآن وبصورة متزايدة، صورا محددة، ولابد لأي شعار يود الاحتفاظ بتأثيره أو بحيويته أن يتطابق مع متطلبات الناس وأن يتفق مع قوانين الحياة، ونحن نرى الآن رفض الكثير من المواقف القديمة، على أنها صورة من صور التهرب، والباطنية،

---

(٦) جوستاف لوبون (حضارة العرب).

والتبرير، وقد يكون من الصعب على الإسلام، كما من الصعب على أى دين من الأديان الأخرى، أن يعرض نفسه فى صورة مستقبل مادى فى نفس الوقت الذى يتمسك فيه بالتفوق، والإيحاء السماوى، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا عن طريق «اجتهاد» جديد، ومحاولات تبذل لتحقيق التجديد العقائدى والتعصير الاجتماعى [٧]».

مرت ظروف تجديد الفكر العربى فى حياة المسلمين بمشاكل كادت تعصف بحياة الأمة بدلا من أن تصلح من شأنها.

كانت مشاكل المجتمع العربى «من الأمة إلى الإصلاح» مدار جدل طويل على طاولة «مرصد الإصلاح العربى» بمكتبة الإسكندرية. فى بداية عام ٢٠٠٦ اجتمع فريق الإصلاح لتقييم معدلات التقدم فى الميادين المختلفة، السياسية، والإقتصادية، والإجتماعية، والثقافية.

وتولى أعضاء المرصد مناقشة «قضية العدالة الإجتماعية» فلقى من الصعوبة ـ على ضوء التفاوت الطبقى، ثقافيا، وماديا ـ الوصول إلى صياغة مستحدثة للاتفاق عليها.

وتحدث المسئول عن الجوانب الإجتماعية والثقافية فى مرصد الإصلاح العربى بمكتبة الإسكندرية عن «الإشكاليات والمؤثرات»:

«ينطلق هذا التشخيص من نظرية أساسية مبناها أن هناك ثلاثة عوامل أثرت على الأزمة التى يواجهها المجتمع العربى، وهى ظروف التحول الإجتماعى وتأثير الحالة الإستعمارية ومتطلبات عملية التحديث، بعبارة

---

(٧) جاك بيرك (العرب تاريخ ومستقبل) تعريف خيرى حماد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - ١٩٧١ ص ٣٥٩.

أخرى اقتضى تطور المجتمع العربى الانتقال من صيغة المجتمع الزراعى والبدوى إلى صياغة المجتمع الصناعى، ومعنى ذلك تفكيك نظم المجتمع التقليدى لبناء مجتمع حديث، غير أن عملية التفكيك، كما يقرر تقرير المرصد الأول، إن كانت قد تمت غير أن عملية بناء المجتمع الحديث لم تكتمل، لأنه قابلتها صعوبات متعددة، بعض هذه الصعوبات يعود إلى نوعية الأنظمة السياسية العربية الحاكمة والتى لم تقبل التحول من الصيغ التقليدية لممارسة السلطة، وبعضها يعود إلى الأنساق الإقتصادية والإجتماعية السائدة والتى مارست أنواعا شتى من مقاومة التحديث (٨)».

إن تحديث المجتمع إستجابة لما يطرأ من أمور هو إصلاح ينقذها من خطر يتهددها، والتحديث فى حد ذاته مشروع اجتماعى ليس وليد اليوم، فالسابقون فى الإسلام كانت لهم ريادة الاجتهاد.

لم يكن فى اجتهادات الخلفاء فى الرأى خطأ فيما يتعلق بالشرع، وكان الخليفة عمر بن الخطاب مصيبا حينما ألغى تشريعا كان على عهد النبى ﷺ، وهو ما نصت عليه الآية: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ** .... ﴾ [البقرة: ٦٠].

قام عمر رضي الله عنه بإلغاء حصة المؤلفة قلوبهم من الصدقات (وهم الذين كان النبى يعطيهم من أموال الصدقة ليتألفهم على الإسلام لضعف إيمانهم أو لدفع شرهم،أو لعلو منزلتهم فى قومهم)، وما كان - من العقل - ليجرى ذلك بعد أن قويت شوكة الإسلام:

«إن تسجيل هذه الظاهرة «الإجتهادية» يضع أمامنا إشارة التحرك فى

(٨) السيد ياسين (المجتمع العربى من الأزمة إلى الإصلاح) مقال، جريدة الأهرام ٢٣ مارس ٢٠٠٦.

الفكر العربى على هذا الشكل، لنراقب تطوره بعد عهد الخلفاء الراشدين وانتقاله من المناخ التشريعى المحض إلى مناخ التفكير فى العقائد الإيمانية نفسها، بعد أن كان الأمر فى عهد النبى أن يقول هو كلمة الوحى « فلا يستطيع مؤمن أن يجد عنها محيصا » وأن لا يظهر خلاف بين المسلمين إلا « قضى الأمر فيه برده إلى رسول الله » (٩) » .

نعود من ثم إلى ما ذكر حول حدِّ العلم عند العلماء والمتكلمين، وما جاء فى شرح المعانى عند ابن عبد ربه، لعل التقليديين يقلعون عن السير وراء من يرون رأيه مهابة خلافه :

فإن من يستنصح الأعادى   يردونـــه بالغـــش والفســاد

لكن يبدو على أولياء الأمور أنهم أدمنوا اقتفاء أثر الأعادى ووجدوا أن ذلك لا يمنع من الدعوة بين وقت وآخر إلى لغة الحوار، والاهتمام بتبنى إقامة عقد المؤتمرات التى تدعو فى ظاهرها إلى عرض وتحليل مشاكل الإسلام والمسلمين، وخاصة تلك التى تقف فى وجه تجديد الفكر الإسلامى .

فى عبارة ناصعة البياض . يعزو الدكتور أحمد أبو المجد عدم القدرة على اثراء قضية تجديد الفكر الإسلامى إلى الأمة الإسلامية لأنها تعيش محنتين كل منهما تكفى لهدم عشرات الأمم، وأرجع الدكتور أبو المجد الأحوال المتردية للأمة إلى الأمة نفسها أولا : (حيث لم نعد نعرف من أين نبدأ ولا كيف، بل صرنا نقول ولا نفعل) .

واستدل على صحة كلامه بموضوع التجديد الذى يناقشه المؤتمر

---

(٩) حسين مروه (النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية) الجزء الأول، الطبعة الرابعة ١٩٨١ دار الفارابى للنشر - بيروت ص ٤٣١ .

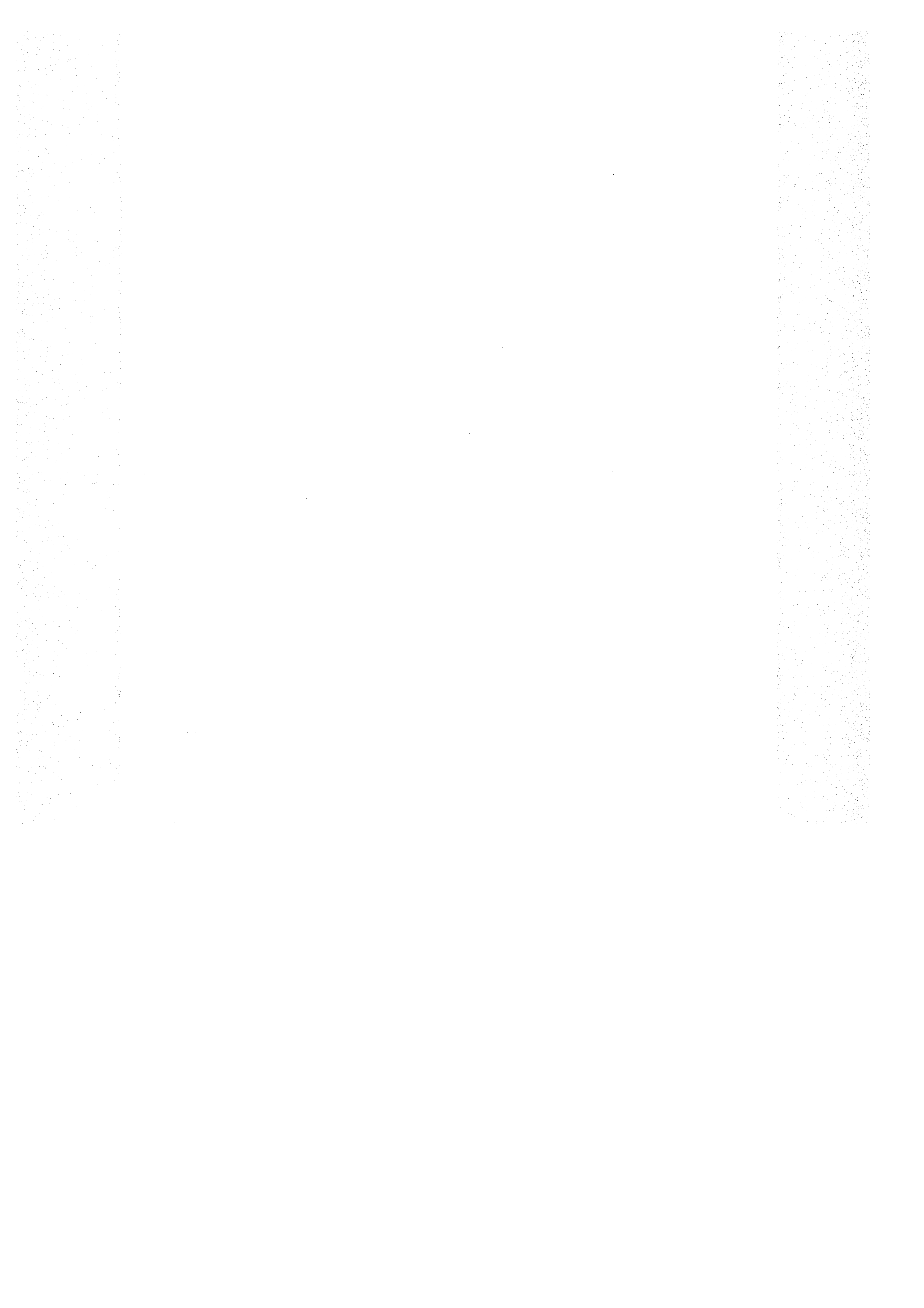
الإسلامى الذى عقد فى القاهرة يوم ٧/٣/٢٠٠٩ : (فموضوع التجديد المطروح على المؤتمر نتحدث فيه منذ عشرين عاما ولا شىء يحدث عمليا، ونعلن عن فتح باب الإجتهاد ولا يدخله أحد، وقد يتكرر ذلك عشرات السنين) .

فهل أصبحنا أمة فقدت الإحساس بالزمن؟

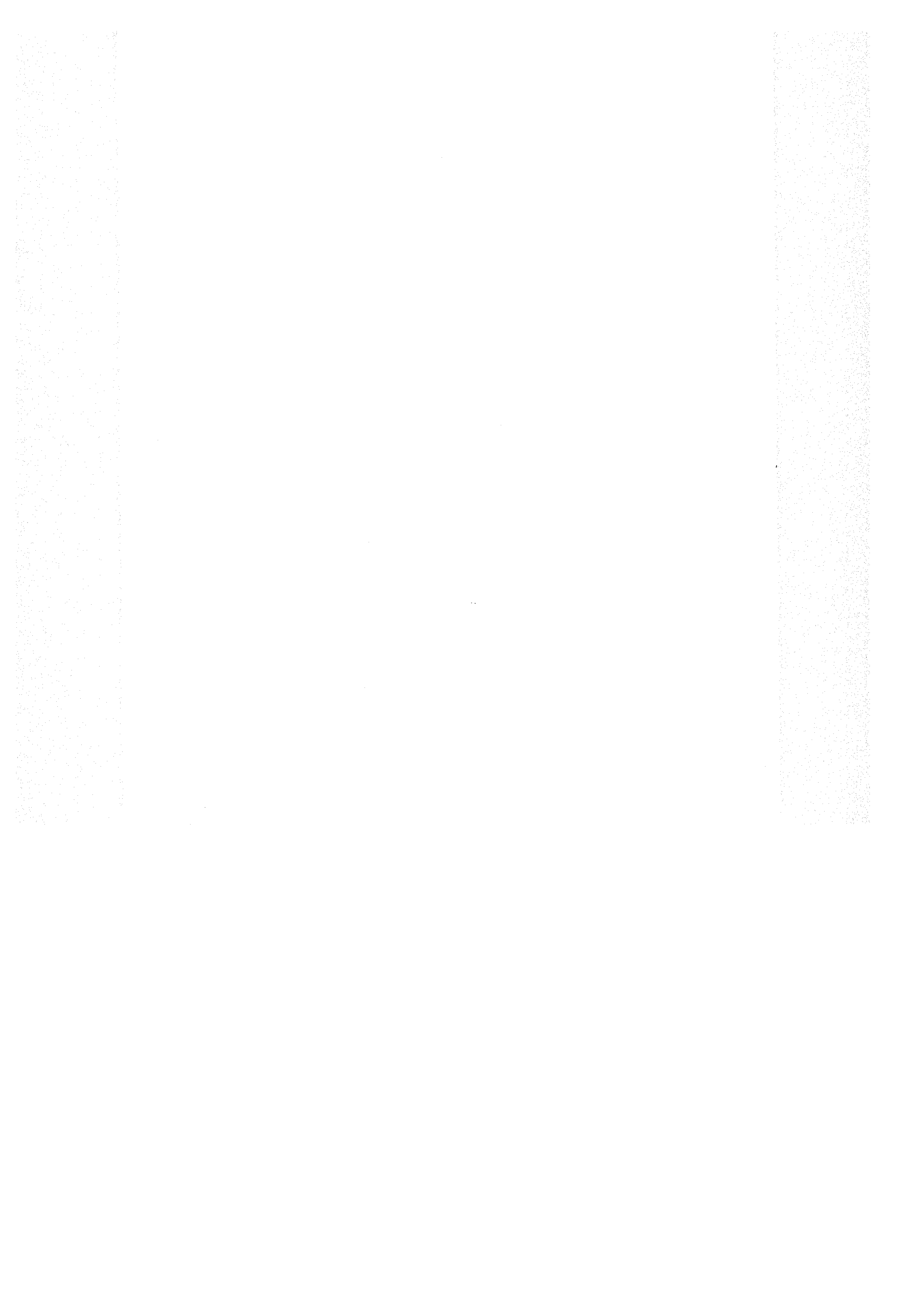
إن شعوب العالم تعدو فى إنطلاق على طريق التقدم ونحن ندور حول أنفسنا بما لا قيمة له كالعرب قديما يعلقون مشاكلهم على ستائر الكعبة دون إيجاد حل لها .

أم ترانا سنظل نحلم بعودة روح الخليفة عمر بن الخطاب ليبسط أيادى الإجتهاد البيضاء بيننا؟!

*****




الذين يجادلون



الذين يجادلون

يحسب للعرب أنهم وصلوا – قديماً– إلى ينابيع الحكمة، ولهم فيها شأو وباع طويل، ومن أقوالهم بالغة الحكمة: « من جهل شيئاً عاداه »،وهو مذكور في قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾[يوسف: ٣٩].

الأمر موكول هنا بالإنسان فإنه وإن تجرد عن العلم فإنه لا يتجرد عن الفطرة.. يمكنه بفطرته أن يحسن الاستماع، والقول، والعمل.. إنها: « فطرة الله التى فطر الناس عليها »، وأن كل إمرئ بفطرته يستطيع أن يحصل على نوع من الثقافة والعلم.

لقد تصيد ابن عبد ربه هذه المعانى فعكف على شرح العلم عند المسلمين، قائلاً:

حدٌّ العلم عند العلماء والمتكلمين هو ما استيقنته وتبينته، وكل من استيقن شيئاً وتبينه فقد علمه، على هذا من لم يستيقن الشئ وقال به تقليداً فإنه لم يعلم، والتقليد عند جماعة العلماء غير الاتباع، لأن الاتباع هو أن تتبع القائل على ما بان لك من فضل قوله وصحة مذهبه، والتقليد أن تقول بقوله وأنت لا تعرفه ولا تتبين وجه القول ولا معناه وتأبى قول من سواه وأن تبين لك خطأ من اتبعته، فأنت ترى رأيه مهابة خلافه وقد بان لك فساد قوله، وهذا يحرم القول به فى دين الله تعالى.

بعد هذا البسط من أقوال ابن عبدر ربه: ترى هل الذين لا يقرون بقضايا المسلمين العادلة وصلوا إلى « حد العلم » أم أنهم يجهلون من أمور عقيدتنا الكثير فساروا إمعة واتباعيين ترين على قلوبهم ميول ونواز ع شيطانية؟.

المؤكد كما ذكرت فى أكثر من مكان. أننا لا نستخف بعقلية الآخر ولا ننفى عنه قوة المعرفة إذ أن رصيده منها– تكنولوجيا ومادياً– لا يشك أحد فيه، ولديه من وسائل المعرفة ما يجعله يستطيع – إذا شاء– أن يستخدمها لصالحه ولخدمة الإنسانية، لكنه عندما يتعلق الأمر بقضايا المسلمين العادلة، يصفق الأبواب، وينغلق على اعتقاد خاطئ، المسيحية الحقيقية منه بريئة، إذ نراه فى كل ما يتصل بالإسلام يغَيِّب العقل فصار كل ما يصدر عنه، فيه من فساد القول ما لا نجده فى أصول الإسلام.

لعل البعض يتساءل بعد أن حذفت من الأناجيل بعض الإصحاحات بحجة عدم قدرة مضامينها على مسايرة الواقع: هل للتربية المسيحية – على النمط الغربى– دخل فى ذلك؟

«لعلك تعرف أن من أصول النصرانية الإيمان بغير المعقول، وهو عند المسيحيين أمر متفق عليه، لا تختلف فيه طوائفهم، فالإيمان عندهم منحة لا دخل للعقل فيها، ومن الدين عندهم ما هو فوق العقل، بمعنى أنه يناقض أحكام العقل، ومع ذلك يجب الإيمان به، وقد قال قديس منهم: يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت، فليس الإيمان وهو الوسيلة الأولى للنجاة فى حاجة إلى نظر العقل والكون، وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل فيه نظره (١) »

على هذه الخلفية قد يبلغ السيل الزبى، ويختنق البحر إلى درجة يتهدده فيها الموت، وقد يبلغ الأمر بالإنسان أن تصاب عضلات قلبه وعقله بالوهن

(١) محمد دراز (مجلة لواء الإسلام).

فيبيح لنفسه أن يركن إلى تناول الأمور فى شتى مصادرها بسطحية تمس جوهر الديانة، بل وقد تضر به وبالدين.

حدث ذلك بالفعل منذ أن باتوا لا يذكرون فى صلواتهم قول السيد المسيح: «لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض، ما جئت لألقى سلاما بل سيفا(٢)».

وبعيداً عن الخلط بين أخلاق المسيح ووداعته التى تجلى فيها الصبر والتواضع والحكمة وبين حماس المتطرفين وتعصب كبار الأساقفة:

«فهم الذين جلبوا العار، وقد يستطيع محمد، فى شن حرب أن يجد قوة أكثر صلاحية فى موسى وقضاة بنى إسرائيل وملوكهم، ولكن قوانين اليهود ما زالت أكثر جمودا من قوانين المشرع العربى (*)، سار رب الجنود بنفسه على رأس الكتائب اليهودية، وإذا امتنعت بلدة أعمل السيف فى جميع الذكور دون تمييز. وقد كتب الدمار على القبائل السبع فى كنعان، وما كانت التوبة ولا التحول إلى الديانة اليهودية بما نعتهم من مصيرهم المحتوم، وهو ألا يترك مخلوق حياً داخل حدودهم. أما أعداء محمد فقد عرض عليهم اختياراً عادلاً: الإسلام أو الجزية أو القتال فإن هم اعتنقوا الإسلام، حظوا بالمزايا المادية والروحية، نفسها التى حصل عليها أتباعه

---

(٢) إنجيل متى- الإصحاح العاشر : ٣٤.

(*) يقرأ أتقياء المسيحيين فى هذا العصر الفصلين العاشر والعشرين من سفر تثنية الاشتراع (التوراة) العملية الموجودة فى يوشع بن نون وداود، وغيرهما، فى رعب أكثر منهم فى ارتياح، ولكن أساقفة الأزمنة السابقة وأحبار اليهود قد قرعوا طبول الابتهاج والنجاح فى الكنيسة والهيكل.

الأول، وساروا تحت اللواء ذاته لينشروا الدين الذى اعتنقوه. وكانت مصلحة النبى تملى عليه سماحته، ومع ذلك فيندر أن يكون قد وطئ بقدميه عدوا ذليلاً. ويظهر أنه بعد دفع الجزية يستطيع أقل رعاياه كفراً وإثماً أن يستمروا على عبادتهم (٣)».

تستوقفنا فى هذا التحليل التاريخى كلمة «المصلحة»، إذا لم تكن - كما يزعم جيبون- هى التى تملى على الرسول ﷺ السماحة، أو يكون لين العريكة. لسبب واحد وبسيط أن هذه طبيعة المصطفى ﷺ وهى واحدة من خصائل وفضائل الفطرة التى مكنت للمسلمين فى الأرض، وجعلتهم يميزون عن سواهم بالوداعة وحسن الخلق:

«ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وقال إننى من المسلمين».

تظهر صورة هذا جلية فى علاقته مع أتباع الديانات والعقائد فى الأمصار التى شرفت بنعمة الإسلام:

«فمن أسلم من نصرانى أو يهودى أو مجوسى من أهل الجزية اليوم فخالط عامة المسلمين فى دارهم، وفارق داره التى كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه.. غير أن أرضه وداره إنما هى من فئ الله على المسلمين عامة، ولو كانوا أسلموا عليها قبل أن يفتح الله للمسلمين كانت لهم، ولكنها فئ الله على المسلمين عامة.

وأما من كان اليوم محارباً فليدع إلى الإسلام قبل أن يقاتل، فإن أسلم

---

(٣) إدوار دجيبون (اضمحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها) ترجمة د. محمد سليم سالم- مراجعة محمد أبو درة - الجزء الثالث ص ٦٠ - ٦١.

فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وله ما أسلم عليه من أهل ومال، وإن كان من أهل الكتاب فأعطى الجزية و أمسك بيديه فإنا نقبل منه ذلك (٤)».

ولا نزال نحاول الاسترشاد وتحصيل الدروس النافعة من أعمال الرسول، ويلفنا بأنوار سماحته فنرى منها ما ينير دروب الحياة، ونتعلم كيف تُبنى علاقة الشراكة الأسرية بين المرء وزوجه من أجل ترسيخ قاعدة الأمة على أركانها الصحيحة:

«كان حكيماً فى احتقاره أبهة الملك، ولم يأنف رسول الله من القيام بالأعمال المنزلية التى كان يقوم بها عادة الخدم. لقد أوقد النار، وكنس الدار، وحلب الشاة، وخصف نعله، ورقع رداءه المصنوع من الصوف بيده، وكان لا يقر طريقة الرهبان والنساك فى تعذيب النفس تكفيراً والتماساً للمنزلة الرفيعة، ولكنه قنع دواماً دون مشقة أو زهو بالطعام البسيط؛ شأن الجندى والعربى، أما فى المناسبات الجليلة فكان يمد لأصحابه سماطاً يتسم بالبساطة مع وفرة فى الطعام (٥)».

بساطة الفطرة البناءة. لا إدعاء. لا تزييف، لا مخاتلة. تعبيراً عن كنه الأخلاق والرحمة فى الإسلام، وهى واحدة من فضائل العقيدة التى يعتبرها المسلم قيمة مثلى لا يجب طرحها على بساط المناقشة.

وعندما نستعيد آيات الذكر الحكيم سيبين لنا كيف يهدينا الإسلام للإبتعاد عن الحقد الدينى والتعصب الأعمى، وهى تبث فى نفوس المسلمين

(٤) أحمد الشرباصى (عمر بن عبد العزيز) خامس الخلفاء الراشدين- كتاب الشعب ٥٣ القاهرة ١٩٥٩ ص ٢ :٣.

(٥) ادوار دجيبون (مصدر سابق) ص ٨٣.

روح التأمل فى قداسة الله وحمده، ومن منطوق تلك الآيات تبرز القاعدة الأولى فى الإسلام فيفهم العباد :

« أن الله سبحانه وتعالى قضى فى سابق علمه ضرورة افتراق العالم البشرى إلى جمعيات متخالفة المبادئ والغايات متباينة المشارب والاعتقادات فيكون الساعى ضد هذا القضاء الإلهى بغير ما رسم له عاصياً ربه مستحقاً سخطه وغضبه، القاعدة الثانية هى استنتاجهم من هذه الآيات نفسها أن تنكب الناس عن دين الله سببه تفاوت مداركهم فى الفهم واختلافهم فى درجات العقل وأن لا سبيل إلى انتشار هذا الدين إلا بين من أسعدهم الجد بإدراك سره وفهم المراد منه و لذلك أمرهم أن يسعوا إلى نشر الحقيقة الإسلامية من بابها وهو الدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة وبالجدل الذى لا تكون عاقبته وخيمة على أحد الجانبين. هاتان النظريتان اللتان يفهمهما المسلمون من كتابهم المبين تجعلانهم لا ينظرون فى إختلاف الأديان والمتدينين إلا أشياء مرادة من النوع البشرى (٦) ».

والمؤكد أن الإسلام ليس فيه حقد على دين آخر، ولا على أى إنسان مهما كان جنسه، أو لونه، أو لغته، بل إنه يحث على حسن المعاشرة لمن يعيشون بين المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى.

قال مجاهد : « كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى حتى قال ذلك مراراً فقال كيف تقول هذا؟ فقال إن رسول الله ﷺ لم يزل حياً يوصينا بالجار حتى خشينا أنه

(٦) المصدر السابق، ص ٩٩-١٠٠.

سيورثه »، وكان الرسول الكريم يقول: « تصدقوا على أهل الأديان كلها »، ويقول عليه الصلاة والسلام: « خاب عبد وخسر لم يجعل الله في قلبه رحمة للبشر ».

ويحثنا الإسلام على معاملة من ليسوا على ديننا بالرفق ومكارم الأخلاق. قال تعالى: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة : ٨]، وينهانا الرسول عن إلحاق الأذى بالذميين: « من آذى ذمياً فأنا خصمه. ومن كنت خصمه فقد خصمته يوم القيامة » و « من قذف ذمياً حد له يوم القيامة بسياط من نار ».

جاء في التاريخ الإسلامي أن يهودياً اشتكى علياً لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما- وعلى كما لا يخفى ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة الزهراء- فقال له قم يا أبا الحسن فاجلس إلى خصمك ففعل ولكن مع تأثر لاح على وجهه فلما انتهت القضية سأله عمر قائلاً: أكرهت يا على أن تجلس إلى خصمك؟ قال: لا ولكني تكدرت لكونك لم تلاحظ المساواة بيننا بقولك لي يا أبا الحسن (لأن الكنية تشير إلى تعظيم).

ومن فضائل الإسلام أنه يناهض أي ظلم يقع على الإنسان أياً كانت لغته، أو دينه، أو جنسه:

« فالإسلام لا يغفر أي ظلم يقع على الأقليات، والرسول وضع قواعد للإيصاء بأهل الذمة بما لهم من حقوق في ذمة المجتمع المسلم والدولة المسلمة، الرسول يقول من أذى ذميًا أو معاهداً فقد خان الله ورسوله، وسيدنا عمر لما رأى يهودياً يسأل الناس أخذ بيده وسأله في شأنه وأخذه إلى

بيت المال وجعل له مرتباً، وهو يقول: ما أنصفناك يا ذمي، أخذنا منك الجزية صغيراً وضيعناك كبيراً.

وأرسل إلى ولاته على ألا يظلموا ذمياً أو يكلوه إلى عالته، والجزية كالزكاة ضريبة لا وسيلة قهر أو أعنات بل عدل كامل [(٧)]»

بالنسبة لمعاملة القبط والنصارى فى مصر فإن الإسلام يؤكد الانفتاح على «الآخر» منذ أن دخلها إلى أن تولاها أحمد بن طولون عام ٢٥٤هـ ٨٦٨م وأصبحت ولاية مائة بالمائة أى أنها (صارت من أملاك الخلافة التى يحكمها وال يرسل من قبل الخليفة) بحكم ما تقضى به العدالة وسنن الشريعة الإسلامية فإن دولاب الدولة بهيا كلها الوظيفية كان يدير أجهزتها المالية والإدارية نخبة من النصارى وأهل الكتاب وقد تعود أصولهم لأجناس غير مصرية، وبين هولاء من كانوا يشغلون أرفع المناصب فى مجال الطب، والمال، والتجارة، وشئوون الزراعة.

وتبعاً للتوافق مع سنن التقدم طرأ على الدولة أمور هامة وحسبما كانت تقتضيه التحولات الاجتماعية، من أبرزها التخلى عن الكتابة بالقبطية واستعمال اللغة العربية بشكل رسمى.

﴿ **الَّذينَ يُجَادلُونَ فِى آيَات اللَّه بغَيْر سُلْطَان أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عندَ اللَّه وَعندَ الَّذينَ آمَنُوا** ﴾[غافر:٣٥] و﴿ **إنَّ الَّذينَ يُجَادلُونَ فِى آيَات اللَّه بغَيْر سُلْطَان أَتَاهُمْ إنْ فِى صُدُورهِمْ إلاَّ كبْرٌ مَّا هُم ببَالغيه فَاسْتَعذْ باللَّه** ﴾ [غافر:٥٦].

ومع التسليم بأننا – كمسلمين– قد ابتلينا بصنف من البشر يناقشون

---

(٧) صلاح عيسى (الفخ الذى وقع فيه الشيخان) مجلة الدوحة، يوليو ١٩٨١.

فى لجاجة وضلال فلا يسعنا إزاء هؤلاء إلا أن نزيد من فتح أشرعة الحب والحوار على إتساعها، وأن تظل قلوبنا وعقولنا منفتحة وأيادينا تصافح بالحب.

إن الإسلام لم يضع أسس إكراه الناس وأخذهم بالشدة لحملهم على الدخول فى الدين. ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف:٢٩]..و﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾[البقرة:٢٥٦].. ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾[النحل:١٢٥] و﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾[الكافرون:٦].. ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** ﴾ [هود:١١٨].

كل من طالع تاريخ البشرية عرف أن الإنسان تشكله محبته لدينه حتى ولو كان معبوده صنماً أو ناراً أو بقرة فإنه يضحى بنفسه وماله وأهله وفى العقيدة، وهو قرير العين:

« هذه المحبة الدينية فهمها أكثر الأقوام على غير المراد منها و قذفوا بها إلى الإفراط الهائل حتى حببت إليهم إجتراح كل أنواع المظالم واقتراف إنكار الجرائم تحت حجة نصر الدين وكبح جماح الملحدين.

حدث كل ذلك لجهل المتدينين لنواميس الحياة البشرية وقوانين الهيئات الإجتماعية مما كان له أسوأ الأثر فى تاريخ أمثال هذه الأمم الحقود [٨]».

إن انتشار اللغة يعطى للمتكلمين بها وجوداً ترسخه تلك المضامين وما

(٨) محمد فريد وجدى: المدنية والإسلام- ذاكرة الكتابة- الهيئة العامة لقصور الثقافة الطبعة الخامسة ٢٠٠٩ ص ٩٨.

تحتويه من مُثل تكفل لهم حق السيادة، لأنها فى بساطة لا غلو فيها قد أفصحت عن العلاقة الفعلية بين الدال والمدلول، وبهذه الصفة والدلالات لا تكون بمعزل عن حركة المجتمع وقوانينه:

«أى أنها لا تنشأ وتنمو وتتطور خارج تاريخ الوعى الإجتماعى المعين. هكذا شأن اللغة العربية بالتحديد: فبقدر ما كان الوعى الإجتماعى لدى المتكلمين بها يستوعب التحولات الإقتصادية والإجتماعية والديموغرافية منذ نشأة الإسلام حتى استقرار شكل النظام الإجتماعى- السياسى لدولة الخلافة، كانت هى- أى اللغة العربية - محكومة بالضرورة، أن تستوعب- فى قاموسها وفى فيلولوجيتها- تلك التحولات بطريقتها الداخلية التى هى أيضاً لها تاريخيتها. إن النظر إليها من هذا الجانب يكشف أنها كانت تتحرك بكل طاقاتها الفيلولوچية والتعبيرية لتتفجر عن «معجمية» جديدة تضطلع بمهمة حمل الأفكار التى تنتجها بنية العلاقات الإجتماعية العربية- الإسلامية خلال العصر الوسيط (٩)».

وتحول مسار الكتابة فى مصر من اللغة القبطية إلى الكتابة باللغة العربية على وجه التحديد فى ولاية «عبد الله بن عبد الملك بن مروان» عام ٨٧هـ ٧٠٦م، على حين كانت المناصب الكبرى دائماً فى قبضة ولاة مصر، ومن بينها أعمال كان ولابد أن يؤديها الوالى بنفسه. من ذلك:

١- إمامة الناس فى الصلاة.

٢- جباية الخراج (يعفى منها الشيوخ والصبيان والرهبان والنساء).

٣- القيادة العسكرية.

---

(٩) حسين مروة (النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية) الجزء الأول، الطبعة الرابعة، دار الفارابى- بيروت ١٩٨١ ص ١٦٨ و ١٦٩

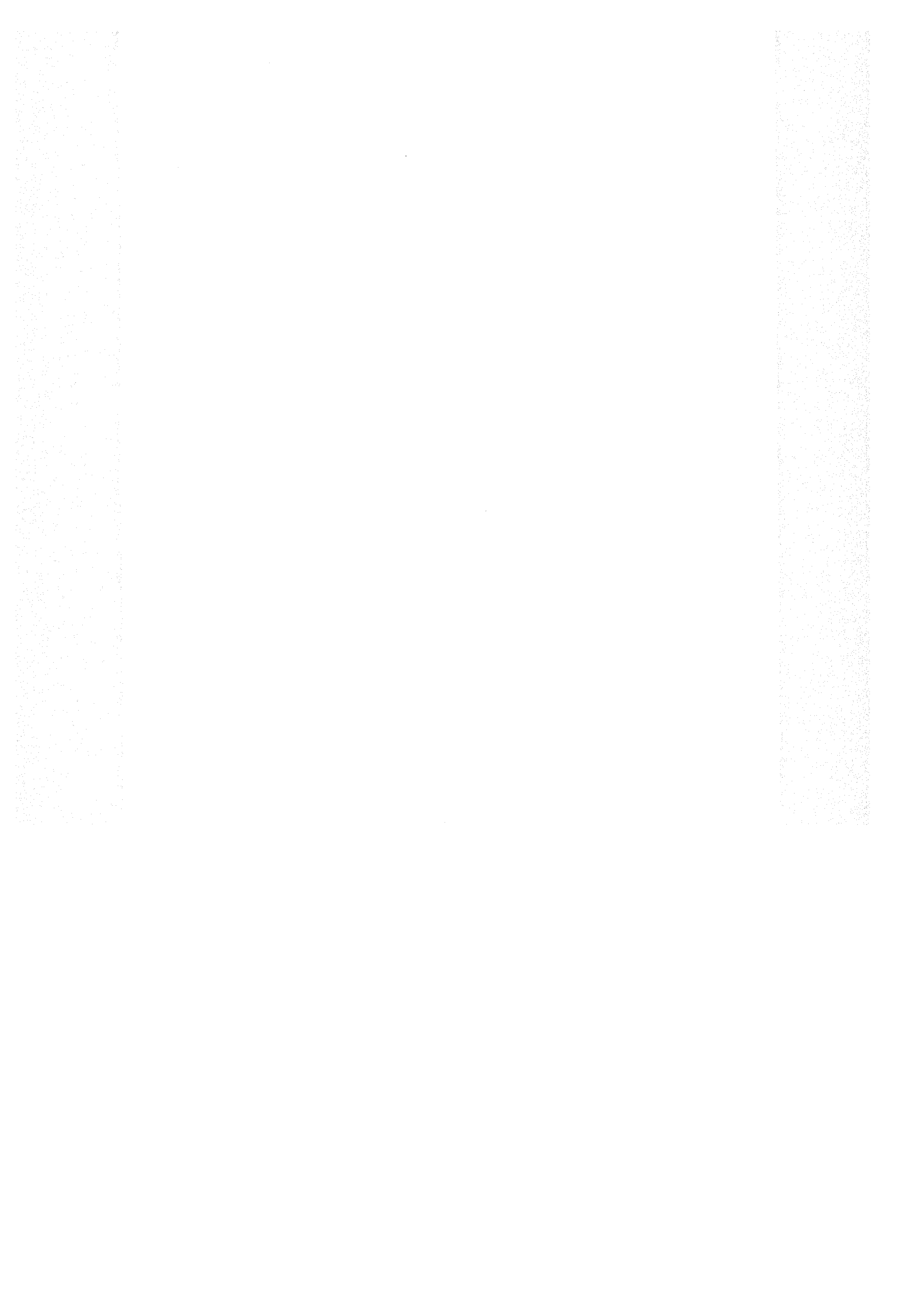
ووصل حجم الجباية من الجزية وخراج الأرض إلى مبلغ أقل بكثير مما كان يجبيه الرومان خلال الفترة التى خضعت مصر فيها لاستعمارهم، و على ضوء المنهج الإسلامى تم تطبيق الأسس والتدابير اللازمة لتقويم وإصلاح أوضاع المجتمع بما يكفل الخير، ويشمل مؤمنهم وكافرهم، طائعهم وعاصيهم، وأكد على تلك المبادئ ما يلى:

١- المساواة التامة بين الناس، فليس فيهم فاضل ومفضول فى أصل الخلقة، فكلهم يولدون سواسية، ومن النصوص الشرعية المؤسسة لهذا المبدأ قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾[الحجرات: ١٣]، وفى الحديث الشريف: « كلكم لآدم وآدم من تراب».

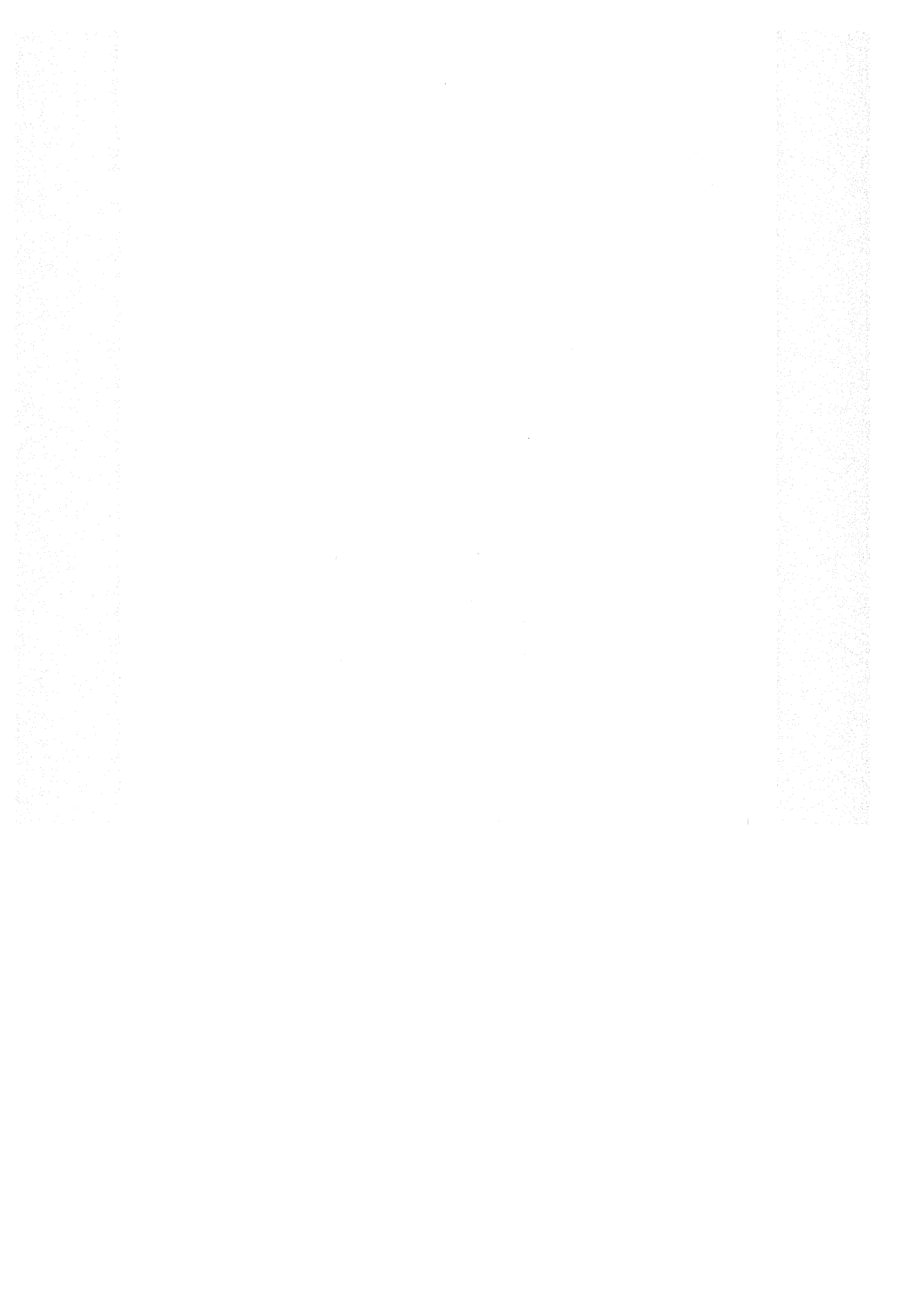
٢- التفاضل الحق بين من لا يكتسب بالنسب والسلالة والجاه والغنى وكثرة العشيرة والمولد، بل يكتسب بالإيمان وتقوى الله والعمل الصالح. ومن النصوص الشرعية المؤسسة لهذا المبدأ قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾[الحجرات: ١٣] ومن الحديث الشريف: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكنه ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

كيف انقلبت أحوال المسلمين رأساً على عقب؟

صارت أعمال المسلمين فى العصر الراهن عبارة عن صور لأجساد بلا قلوب.. الصورة العامة تمج قضية الانتماء للوطن، وتقلع عن قاعدة العقيدة، وتجهض الدعاوى الرامية إلى تحطيم جدران العزلة بين المواطن والمواطنة، على حين ترتفع نغمة تبرير الوجود الفعلى لإقامة الحواجز النفسية والإجتماعية باصطناع وهمى بعيد عن ووح الانتماء للوطن وللدين، وذلك باستعمال لغة التغريب وعدم الاكتراث من خلال إطار تجريدى فى صور تنأى عن الحلول الجادة لأزمة المجتمع المصرى.




الشيطان
وقرناؤه على
الأرض



الشيطان وقرناؤه على الأرض

• هناك الطاعة، وهناك المعصية!

خصلتان يضطرب قلب الإنسان بين مجاليهما.. الإنسان موضع اختبار وبلاء.. إنه ليس معصوماً عن ارتكاب المعاصى فكل ابن آدم خطاؤن، وخير الخطاؤن التوابون.

• ومن حكمة السلف نشبع الظمأ:

«باك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه»، وفى ذلك يقول ابن عطاء الله السكندرى: «رب معصية أو رثت ذلاً واستغفاراً، خير من طاعة أورثت غروراً واستكباراً».

إن المغتر بالطاعة يدخل إلى قلبه آفة تعرضه للانحراف والضلال، وكان الملائكة فى طاعة الله يسبحون ويستغفرون، وكان إبليس فيما كانت فيه الملائكة من التسبيح والعبادة، ثم ابتلى فعصى ربه فلم يرحم، وابتلى آدم فعصى ورجع إلى الله فرحم، وقبل أن يهبط من جنته كانت الأرض تعج بالجن.

قال ابن جرير: وحدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن أول من سكن الأرض الجنّ فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضاً قال: فبعث الله لهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، ثم خلق الله آدم وأسكنه إياها فلذلك قال: ﴿**إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[البقرة: ٣٠].

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى:

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة : ٣٠] إلى قوله : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[البقرة :٣٣] .

قال خلق الله الملائكة يوم الأربعاء، وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة فكفر قوم من الجن فكانت الملائكة تهبط إليهم فى الأرض فتقاتلهم فكانت الدماء بينهم ببغيهم وكان الفساد فى الأرض، من ثم قال : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾[البقرة : ٣٠] .

إن أول ظهور لإبليس فى السماء كان قبل نزول الكتب المقدسة على الأنبياء ولما خرج منها مذموماً مدحوراً، ألتقى بقابيل وهابيل، وقد تمخض عن علاقته بهما أولى المآسى الكبرى فى باكورة الحياة على ظهر البسيطة، وتدرجت علاقته بالخلف، ولم يهنأ له بال ويستريح إلا بعد أن عثر على قرنائه فى اليهود .

وعندما اكتشف سيطرة الدين على أهل الأرض . أراد أن يستعيض الناس عنه بالحرية، وبعد أن شاعت وتفاقمت من حولها المشاكل . عاد الشيطان إلى لعبة خلط الأوراق مدعياً أن البشر لم يكونوا على مستوى النضج الكافى لممارستها . حتى انقض الأقوياء على الضعفاء . وباندلاع الحروب بينهم، انهارت الدول، واحتاج إعادة بنائها إلى تمويل مادى، وهنا تظهر الحاجة إلى عقد إتفاقيات القروض لأجل الإعمار، وهو دور يلعبه « الرأسمال » بكل إقتدار ودهاء، خاصة وأنه موجود فى « صندوق البنك الدولى » و« البنك الدولى »، وكلاهما يقعان فى قبضة الصهيونية وقرناء الشيطان .

ومن قصة المؤامرة على العالم . نعرف أنه ليس هناك مكاناً على وجه الأرض لما أطلقوه من شعارات : الحرية . . الإخاء . . المسلواة . ، إنما هى صور من خيال وضعها

قرناء الشيطان على أفواه الجماهير، وكما قالوا: (ليرددها الأغبياء).

وفى خضم الأزمات المالية والزج بالبشر فى خوض غمار المعارك. انقسم العالم إلى شطرين. شطر يؤمن بوجود « إله »، والشطر الآخر ينكر أفراده وجود أى قدرة علوية، ومن مظاهر الشرك بالله انتعاش العقائد البشرية فالحلوليون يؤمنون بأن الله والطبيعة شئ واحد، وليس لله أى وجود متفرد، ويؤمنون بعقيدة الوجود الشامل للروح الإلهية فى الطبيعة، وآية ذلك نلمسه فى البوذية والهندوسية (والذين يؤمنون بالله الواحد المتفرد يتحتم عليهم بالضررة أن يؤمنوا بالشيطان الشر المتفرد).

والشيطان الفذ، المتفرد، مقاتل، معاند، صبور، وبلا يأس يظل يبحث له عن قرناء يستجيبون لمخطط الإجتراء على الله.. بعد ذلك تفرخ شرور الإنسان وتتكاثر، ولعل السبب وراء ذلك يعود إلى قدرتها فى الحفاظ على صيرورتها بدينامية لا تؤثر فى كل جيل أو حقبة زمنية فحسب. بل لأنها تكون قد خبرت أساليب التعامل والسيطرة على شغاف القلوب وتلافيف المخ وشعيرات الوجدان وما تملكه- حديثاً- من تقنية فى شتى مجالات الابتكار والإبداع الفنى وعلوم النفس والفلسفة، فالشيطان الفذ. لا يستريح إلا إذا سادت أفكاره التدميرية وتصبح فى قوة العقيدة. تورث لصنف من الأجيال اللاحقة. ومن هم على إستعداد نفسى ومادى للإنجذاب تحت بريق مغريات الظلم والإستبداد والنكال بشعوب العالم. ثم إغرائها بأساليب تدَّعى الدفاع عن قضايا الإنسان العادلة والوقوف فى وجه الطغاة والديكتاتورية، وهو ما كان يصنعه « بوش » فى العراق وأفغانستان وخلفه على هذا الدرب « أوباما » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الحالى حيث

وافق على ارسال الآلاف من الجنود إلى أفغانستان . معتبراً أن القتال هناك معركة تختص بأمن ومستقبل الولايات المتحدة الأمريكية . مع حذق تعبئة الإعلام الدولى للأخذ بأساليب المرابين والصيارفة، ومن هم على شاكلة آل روتشيلد ومن يقفون دائماً وراء صفوف الثورة والثورة المضادة . بغية إخضاع كافة الشعوب لشياطين الإنس على الأرض . ومن لا يعبدون الله . ولا يعرفون صفة من صفاته عز وجل فهو رب كل شئ ومليكه وإلهه .

كان المؤمن عندما يتلو أمامهم : « من شر الوسواس الخناس » ترتعد منهم الأوصال فرقا ورعباً ويتميزون غيظاً لأن الخناس هو الشيطان الموكل بإدارة أعمالهم .

وقيل أنه ما من أحد من بنى آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش وما عظم من الإثم، وقد ثبت فى الصحيح أنه : « ما منكم إلا وقد وكل به قرينه » قال : وأنت يا رسول الله قال : « نعم، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير(١) » .

وثبت فى الصحيح عن أنس فى قصة زيارة صفية للنبى ﷺ وهو معتكف وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها فلقيه رجلان من الأنصار فلما رأيا النبى ﷺ أسرعا فقال رسول الله ﷺ : « على رسلكما إنها صفية بنت حيى » فقالا سبحان الله يا رسول الله ! فقال : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا – أو قال شراً –(٢) » .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : « حدثنا محمد بن حى حدثنا عدى بن أبى عمارة حدثنا زياد النميرى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسى التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس (٣) » .

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عاصم سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال عثر: بالنبي ﷺ حاره فقلت تعس الشيطان فقل النبي ﷺ: « لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال بقوتي صرعته وإذا قلت باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب(٤) ».

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو بكر الحنفي حدثنا الضحاك بن عثمان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشيطان فالتبس به كما يلتبس الرجل بدابته فإن سكن له زنقه وألجمه » قال أبو هريرة وأنتم ترون ذلك أما المزنوق فتراهما مائلاً كذا لا يذكر الله، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل (٥) ».

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله « الوسواس الخناس » قال الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس وكذا قال مجاهد وقتادة. وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح فإذا ذكر الله خنس. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : « الوسواس » قال هو الشيطان يأمر فإذا أطيع خنس.

وذكر في القرآن الكريم ﴿ **كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا** ﴾[الأنعام: ١١٢].

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا المسعودي حدثنا أبو عمرو الدمشقي حدثنا عبيد بن الحشاش عن أبي ذر قال أتيت رسول الله ﷺ و هو في المسجد فقال: « يا أبا ذر هل صليت؟ » قلت لا. قال: « قم فصل » قال

فقمت فصليت ثم جلست فقال: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن» قال: فقلت يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال: «نعم» قال: فقلت يا رسول الله: الصلاة؟ قال: «خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر» قلت يا رسول الله فالصوم؟ قال: «فرض مجزى وعند الله مزيد» قلت يا رسول الله فالصدقة؟ قال: «أضعاف مضاعفة» قلت يا رسول الله فأيهما أفضل؟ قال: «جهد من مقل أو سر إلى فقير» قلت يا رسول الله أى الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم» قلت يا رسول الله ونبينا كان؟ قال: «نعم نبى مكلم» قلت يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: «ثلثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً» وقال مرة: «خمسة عشر» قلت: يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم، قال آية الكرسى ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وذكر أن رسول الله ﷺ ذهب إلى شعاب الجن ليهديهم.. روى ابن عباس، فقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحمانى، حدثنا النضر بن عربى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ** ﴾[الأحقاف: ٢٩]. قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله رسلاً إلى قومهم، وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين، حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا رجل سماه عن ابن جريح عن مجاهد ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ** ﴾[الأحقاف: ٢٩]. قال: كانوا سبعة نفر ثلاثة من أهل حران وأربعة من أهل نصيبين وكانت أسماؤهم حيى وحسى ومنسى وساصر وناصر والأردوبيان، والأحتم وذكر أبو حمزة الشمالى أن هذا الحى من الجن كان يقال له بنو الشيصان وكانوا أكثر الجن عدداً وأشر فهم نسباً وهم كانوا عامة

جنود إبليس (٨) »

وعلى الرغم من التقدم العلمى،وعلى الرغم من وجود منظمات دولية ومحاكم وقوانين دولية، ووسائط رصد ومراقبة فائقة القدرة فإن الشياطين قد استطاعوا –برجال من الإنس– أن ينفخوا فى أبواق الحرب، وكانوا يقفون دائماً وراء النزاعات الإقليمية.

أعضاء المحافل الماسونية، ومن كانوا يسمون « اليعاقبة » و « النورانيون » أشعلوا نيران الثورة الفرنسية وجعلوا « العلم الأحمر » عنواناً لها.

وأصبح العلم الأحمر بعد ذلك رمزاً لكل ثورة حتى الآن، ففى أكتوبر من عام ١٩١٧ قام « فلاديمير إليتش لنين » بتدمير الدولة، بتمويل ومساعدة الصيارفة اليهود وجعل للثورة الروسية علماً أحمر فى طرفه مطرقة ومنجل يعلوهما نجمة يهوذا، تحقيقاً لأحلام سبط الشياطين فى الإستيلاء على العالم، بداية من خطط هيرتزل، وبن جوريون، وجولدا مائيير، وموسى شاريت، ومناحم بيجن، وموشيه ديان، وشارون... إلخ.

إن قلاع الشياطين قديمة، وعتيدة، هناك قلعة منها لا يزال مخططها الجهنمى سارى المفعول ومؤثراًعلى دول العالم، تلك التى أسسها « ماير روتشيلد »، ووضع لها برنامجاً عام ١٧٧٣م، وفيه يدعو من ألمانيا إلى عقد موتمر لرجال المال اليهود لكى يستفيدوا من تجميع ثرواتهم فى وحدة حتى يمكن شراء الحكام والعقول المفكرة أياً كانت، وتمويل الحركات الثورية فى العالم، وقد أسفر ذلك عن إشعال الثورة فى إنجلترا، ثم تم السيطرة عليها بالقروض.

وبدأ شياطين الإنس من اليهود يسربون العملاء والمأجورين بين قادة الجيوش، وبين وسائل الإعلام، والفنون، ودور النشر، وإذكاء روح الكراهية

والعداء بين السلطات الوطنية والشعبية، والمطالبة بالانتقام وتلطيخ سمعة الحكام وكل من يحاول المساس بمصالحهم، أو يتصدى لأى برنامج من مخططاتهم.

وتبعاً لذلك، درج المرابون؛ الناشطون فى كنيس الشيطان يعتقدون بصحة ما تضمنه برنامج « ماير روتشيلد » والذى عبر فيه بوضوح عن آراء اليهود فى الحكام، وبأن الحاكم إذا كان يحكم بموجب القواعد الأخلاقية فليس هو بالسياسى الماهر فى المناورات لأنه يلتزم بالحق والشرائع ويمج الكذب والخداع الأمر الذى يتهدد مستقبله ويصيب حكمه بالقلاقل، ولكى لا تصاب حياة هؤلاء بالفشل قدم لهم النصح، قائلاً:

« يجب على الذين يرغبون فى الحكم أن يلجؤوا إلى الدسائس والخداع والتلفيق لأن الفضائل الإجتماعية الكبرى كالصدق والإستقامة ما هى إلا عيوب كبرى فى السياسة ».

ثم أضاف موضحاً معالم الإستراتيجية الصهيونية التى ستتمخض عن شكل الكيان الإستيطانى على أرض فلسطين العربية فيما بعد:

« إن حقنا يكمن فى قوتنا، إن كلمة حق هى فكرة مجردة جوفاء ولا تثبت شيئاً، ولقد وجدنا معنى جديداً للحق وهو أن نهجم متذرعين بالحق الذى للقوى أن نذروا أدراج الرياح كل الموسسات والعقائد القائمة وأن نصبح السادة المسيطرين على كل أولئك المستسلمين الذين يعطوننا قيادهم وحقوقهم بتركهم كل قواهم جانباً للتلهى بفكرة التحرر البلهاء ». وهذا ما يصنعه الآن نيتانياهو على أرض فلسطين العربية.

وأوصى روتشيلد بالسيطرة على البشر من أجل حماية الشعب اليهودى، ويمكن تحقيق ذلك بسهولة لأن الجماهير مصابة بالعماء وسرعة

الإنفعال، وأنها تقع دائماً تحت رحمة أى تحريض من أى طريق، ثم يوضح معالم الطريق لمن حضروا المؤتمر:

« لا يستطيع التحكم فى الجماهير وتسييرها بفعالية سوى حاكم طاغية، و الطغيان المطلق هو السبيل الوحيد لبناء الحضارة، فالحضارة لا تبنيها الجماهير، وإنما يبنيها الذين يقودون هذه الجماهير » .

هكذا يتحول المواطنون فى الفكر الصهيونى من جماهير مؤثرين فى حركة المجتمع والحضارة إلى قطيع من الخراف . لا يصلح – للبقاء عليهم– سوى الحديث عن الشعارات التى تستبد بعقولهم، وفى ذلك يقول « روتشيلد » فى برنامجه لأباطرة المرابين وأصحاب بيوت المال فى المؤتمر الذى انعقد فى فرانكفورت بألمانيا :

« ليس هناك مكان فى العالم لما يسمى بـ « الحرية » و« المساواة » و « الإخاء » . . ليست هناك سوى شعارات كنا أول من أطلقها على أفواه الجماهير ليرددها هؤلاء الأغبياء كالببغاوات، ولن يتمكن عقلاء الجوبيم (*) من الاستفادة من هذه الشعارات المجردة، ولن يستطيعوا أن يدركوا التناقض فى محتواها » .

وانتعشت أحوال اليهود النوارنيون فى أوربا، ومن خلال المحافل الماسونية أسسوا مجمعاً سريا بغية تحقيق أغراضهم وأسموه « المجمع النورانى »، وكلمة نوارنى مشتقة من كلمة « لوسيفر » أى « إبليس » الذى سيتخذونه هادياً وإلهاً يستلهمونه القوة والمعرفة، ولقد تكون المجمع النورانى من ثلاثة عشر عضواً يمثلون كبار الحاخاميين الذين يتلقون المعانى السرية من « لوسيفر » الذى يعنى (حامل الضوء)، أو (الكائن الفائق الضياء) :

« وهكذا نرى صوابية تسمية المسيح لهم بكنيس الشيطان، وكان المجلس الأعلى للمجع النورانى مؤلفاً من ثلاثة عشر عضواً، ويشكل هؤلاء اللجنة التنفيذية لمجلس « الثلاثة وثلاثين »، ويدعى رؤوس المجمع النورانى اليهودى امتلاك المعرفة السامية فيما يتعلق بشئوون الدين والعقائد والاحتفالات الدينية والطقوس. وكان هؤلاء هم الذين صمموا العقيدة الإلحادية المادية التى نشرت عام ١٨٤٨ فى « البيان الشيوعى » الذى كتبه كارل ماركس. وكان عم ماركس حاخاما من حاخامات اليهود ولكنه انفصل رسمياً من السلك الكهنوتى الأعلى عندما عُينت له مهماته الكبرى. وهكذا نجد أن اليهود يعودون مرة أخرى إلى مبدأ الشراكة الخفية.

لم يكن تحديد أعضاء المجمع اليهودى الأعلى بثلاثة عشر عبثاً بل كان هذا دلالة عميقة : لقد اختير هذا العدد حتى يذكر أعضاؤه دوماً أن هدفهم الأول هو تدمير الديانة المسيحية التى أتى بها السيد المسيح والحواريون الأثنا عشر (٩) ».

من الواضح أن أعضاء المجمع اليهودى الأعلى كان اهتمامهم منصباً على تدمير الديانات السماوية، وتدمير كل من تسول له نفسه التصدى لمخططاتهم التخريبية إذا فشلوا معه فى توقيع صفقة الشراكة ثم احتوائه وامتصاصه حتى التلاشى وتبديد كيانه، وهو ما حدث بشكل قاطع إبان ولاية « بوش » حيث ظهر من أطلقوا على أنفهسم :« المسيحيون الجدد » الذين وافقوا على حذف بعض من آيات الإنجيل إستجابة لرغبة الرئيس « بوش » فى ما يدعيه من « تجديد الدين » تمشياً مع متطلبات العصر!!

ولتجنب أية خيانة من نوع خيانة يهوذا الأسخر يوطى للمسيح كان

النوارنيون يلزمون من ينضم إلى صفوفهم بأن يحلف أيماناً مغلظة تؤكد خضوعه المطلق لرئيس مجلس الثلاثة والثلاثين والاعتراف بمشيئته مشيئة عليا لا تفوقها مشيئة أخرى على الأرض.

وبتلك القوى الخفية أصبحت لهم السيطرة على « عصبة الأمم »، ثم على « الأمم المتحدة » :

« والدليل على سيطرة القوى الخفية على الأمم المتحدة وتمكينهم من تنفيذ مخططاتهم عبرها هو أن الأمم المتحدة سلمت فلسطين إلى الصهيونية السياسية بعدما كان الصهيونيون يسعون وراء ذلك لمدة نصف قرن من الزمان (١٠) ».

وهم لذلك، ولغير ذلك، يدينون بالولاء للشيطان.. يقول مؤلف كتاب. « ضباب أحمر يعلو أمريكا » إن أتباع الكنيس الشيطانى هم الذين مولوا بواسطة مصارفهم الدولية كل الأطراف فى كل الحروب والثورات منذ ١٧٧٦م، وفى العصر الحالى يوجهون الحكومات و يملون على الحكام تنفيذ مخططاتهم، ومن لم يستجب يصفى جسيدياً أو يشهر به.

وفى الكنيس يرفع كهان المذهب الشيطانى إبليس إلى مقعد الإله ونشروا عبادته فى محافل الشرق الأكبر، وراحوا يزعمون أن الشيطان مساوٍ تماماً لأدوناى (الله) :

« ولا تذكر الكتابات المقدسة الشيطان إلا فى مواضع قليلة (أشعيا ١٤، لوقا: ١٠) ولكن العقيدة الشيطانية تنص بشكل قاطع على أن الشيطان هو الذى قاد الثورة فى السماء. وأن إبليس هو الابن الأكبر لله (أدوناى)، وهو شقيق ميخائيل الذى هزم المؤامرة الشيطانية فى السماء. تقول التعاليم الشيطانية أن ميخائيل قد نزل إلى الأرض بشخص يسوع لكى يكرر على الأرض ما فعله فى السماء... ولكنه فشل (١١).

ولا يزال الصراع يدور على الأرض حيث يتبنى قرناء الشيطان - لنصرتهم- شتى المخططات الرامية إلى إنجاز مواد النهج الإقليمى، والطائفى، والعرقى، وقد تبنت الولايات المتحدة الأمريكية تنفيذه فى العراق- خدمة لأهداف الصهيونية- وهم يسعون لتطبيقه فى لبنان وغيرها من دول العالم العربى والإسلامى على ضوء ما أنجزته ملفات المخابرات وكتابات المستشرقين والرحالة وتقارير جماعات التبشير.

وفى شأن المستشرقين ، نؤكد دونما ترفع وإدعاء أننا لا نزال نقتات على كتاباتهم ونغترف من مناهلهم، وهناك فصول من حياتنا وتاريخنا العربى تأثرت بالأطراف التى تتمحورحول المركز « النظرية الأوربية » :

« وبالأحرى « المركزية الأوربية » وإذا كان هناك استثناءات فإنها قليلة، وبمجملها تقريباً رؤى سلفية، تعيد كتابة الحوادث التاريخية دون تفسير أو تحليل، ودون ربطه بالحاضر الذى نعيشه، باعتبار هذا الحاضر إمتداد متطوراً لحقبات تاريخية، مترابطة، وبالتالى فإن الكثير من الرؤى ترى التاريخ كصراع دينى صرف، فهل حقاً هو كذلك؟ كما أن الكثير من المفكرين، ينطلقون برؤيتهم للتحولات والتطورات التاريخية، على أساس أنها منطلقة من علاقات قبلية وعائلية (١٢) » .

ولم نفطن إلى وقت قريب إلى أن المستشرقين قد درجوا على إتباع تقسيم الأمة العربية فى قديمها وحديثها إلى أجزاء، وبعقلية آحادية الجانب كانوا يقدمون كل جزء منها كوحدة مستقلة قائمة بذاتها، وعندما انقسمت الكتلة الواحدة- بمعرفتهم- صار كل جزء لا يرتبط ببقية الأجزاء إلا بقدر ما تربط العلاقة بين جارين أجنبيين:

« لقد جاهد الاستشراق، فى حرب فكرية صليبية خبيثة، أن يزلزل بهذه

العقيدة، مستترا وراء إدعاء العلم والبحث، وهى حركة تحولية مشهورة قررتها مؤتمراتهم بعد الفشل فى المواجهة المباشرة للإسلام، حركة تكتيكية تنفيذية لم تبدل شيئاً من المخطط الاستراتيجى الأساسى للتبشير الصليبى، ولم تبدل من أهدافه فتيلا.

فالمستشرق العاجز يأبى إلا أن يجعل اسم النبى ﷺ «ما هوميت» كما كان ينطقها غلاة المتعصبين من رجال الكنيسة الأوائل، فالحركة ترتد إلى الجحر القذر الذى بدأت منه.

وقد انحصر صراع هؤلاء المستشرقين فى محاولتين أساسيتين يترتب عليهما كل ما جاء بعدهما، وهما:

١- محاولة تكذيب التاريخ العربى فى آنصباباته من مصادره الأولى فى قوله: إن إسماعيل بن إبراهيم هو أبو العرب الشماليين، وإنه نزل منطقة مكة، وإنه بنى الدين الموحَّد لله، وبنى له معبده فى البيت الحرام.

٢- تكذيب أن الإسلام خرج مُصلحا ولم يخرج فاتحاً، وهذا حتى لا تبدو حقيقة الهدف الربانى الأول من الرسالة التى حمل العرب أمانة النهوض بها لتقويم تاريخ الإنسان.

هذا الواقع المزرى بأصحابه، مع كثير من تبجح بعض دعاتنا الدينيين الذين وقعوا فى شباك هذه الفردية الشعوبية الخبيثة. بالقول المكرر المعاد: من أن النبى ﷺ قال: إنه ستفتح على أمتى بلاد كسرى وقيصر، وأن هذا القول وراء الزعم المنهار بأن المسلمين إنما خرجوا فاتحين للدنيا يطلبون ما بأيدى الآخرين.

ومن هنا ألبسوا على الناس هدف الإسلام الذى كانت دعوته فى سبيل الله لنشر الإيمان بوحدانية الله، والخلق الإنسانية المتكاملة التى يعيش الناس جميعاً بها فى ظل عدالة الله الواحد الذى تستوى أمام هيبته وقوته الرؤوس والأجناس والألوان (١٣)».

وبعيداً عن العَنت والإنحياز ذى النظرة الضيقة، وبعد الإبحار فى مجالى الفكر والاستشراق، نقول: إن المستشرقين ليسوا كلهم أهل سوء، وليسوا كلهم ممن خانوا أمانة البحث العلمى وبذلوا أفكارهم فى خدمة الغزاة والمستعمرين ففيهم من أخلصوا لله، وكانوا أسبق من العرب فى إذاعة ونشر التراث العربى والإسلامى، ومن بين هؤلاء تسطع أسماء: « دير نبورج » ناشر « كتاب سيبويه » وهو فرنسى، و« ليم رايت » الإنجليزى، ناشر كتاب: « شرح المفضليات » للأنبارى، و« « بيفان » الإنجليزى، ناشر: « نقائض جرير والفرذق »، ومن المستشرقين الإنجليز أيضاً: « كرنكو »، وهو أغزرهم إنتاجاً، وأبقاهم أثراً فى نشر النصوص التراثية، ومن المستشرقين الأسبان: « كوديرا » و« ريبرا » ناشرا المكتبة الأندلسية، ومن المستشرقين الهولنديين: « دوزى » وقد نشر نصوصاً أندلسية كثيرة بجانب عمله العظيم: تكملة المعجمات العربية، و « دى خويه »، ناشر المكتبة الجغرافية.

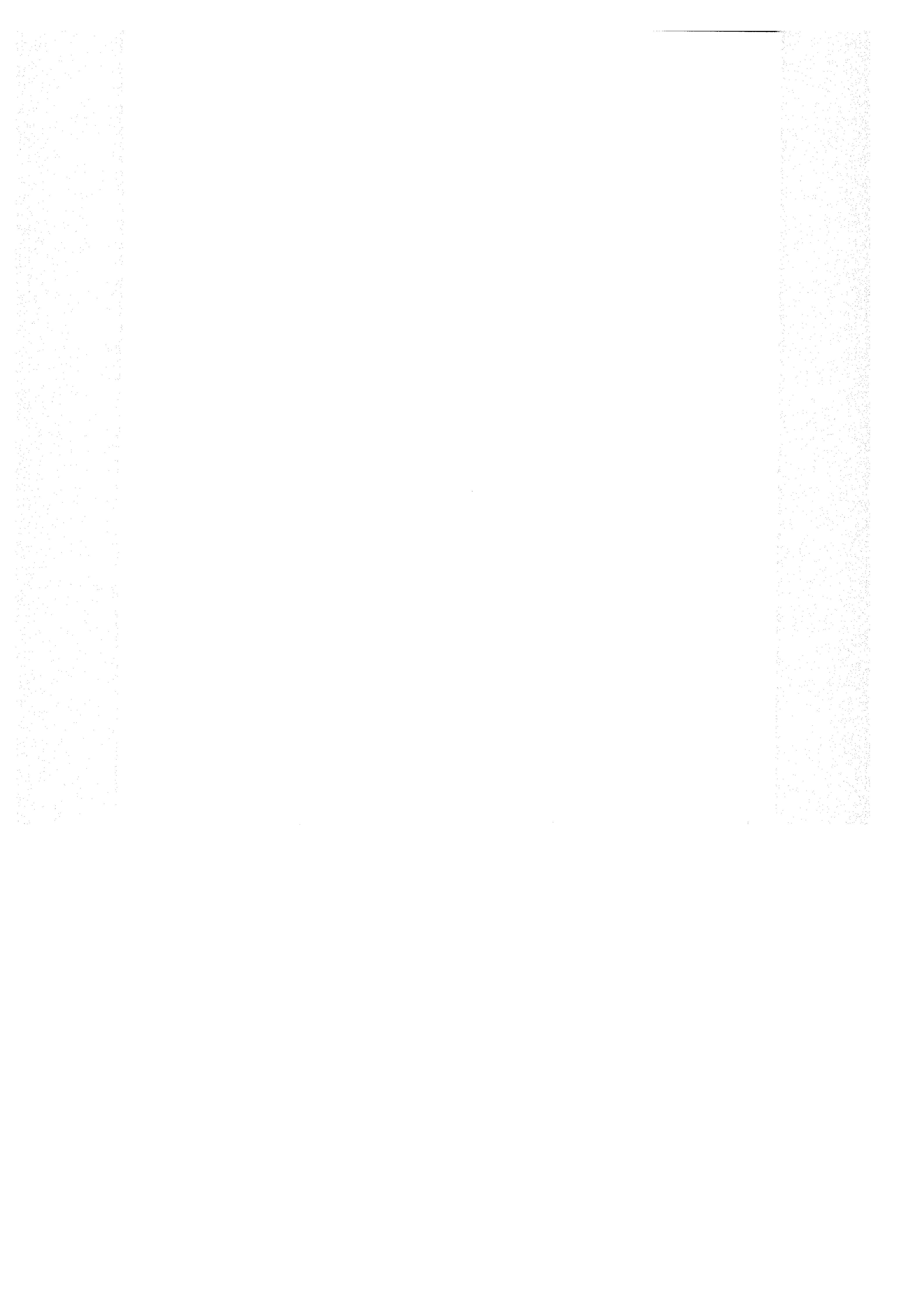
ومن المستشرقين الألمان: « فلوجل »، ناشر كتاب « كشف الظنون » للحاج خليفة، وهو صاحب كتاب « نجوم الفرقان فى أطراف القرآن » و هو أصل المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذى صنفه محمد عبد الباقى:

« ومن أشهرهم وأعلاهم ذكرا: وستنفلد، ولا يدانيه أحد من المستشرقين فى كثرة ما نشره من نصوص، وقد قضى عمره منكبًّاً على العربية، فى لغتها وأدبها وتاريخها، وجغرافيتها، وقد ألف وحقق فى ذلك كله نحو مائتى كتاب بين صغير وكبير، ومن أبرز ما نشره: السيرة النبوية لابن هشام، والمعارف لابن قتيبة، ومعجم ما استعجم للبكرى، ومعجم البلدان لياقوت، ومن مشاهير المستشرقين أيضاً: كارل بروكلمان، وهلموت دينز.

ومن المستشرقين الروس: كراتشكو فسكى، ناشر « الأخبار الطوال » لأبى حنيفة الدينورى، ومن أنفس آثاره: تاريخ الأدب الجغرافى العربى (١٤) ».

المصـــــادر

١– رواه مسلم (٢٨١٤) .
٢– متفق عليه : البخارى (٧١٧١) ومسلم (٢١٧٥) .
٣– غريب .
٤– أحمد فى المسند (٥ / ٥٩) تفرد به أحمد . إسناده جيد قوى و فيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب .
٥– أحمد فى المسند (٢ / ٢٣٠) .
٦– الأنعام .
٧– أحمد فى المسند (٥/ ١٧٨) .
٨– ابن كثير: المجلد الرابع مكتبة الإيمان بالمنصورة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ ص ٢١٢ .
٩–وليام غاى كار (أحجار علي رقعة الشطرنج) ترجمة سعيد جزائرلى، مراجعة م. بدوى، الطبعة الثالثة. بيروت دار النفائس ١٣٩٩ هـ ١٩٦٩م ص ٩٩
١٠– المصدر السابق ص١١٨ .
١١– المصدر السابق ص ٢٣ .
١٢– فرحان صالح (جدلية العلاقة بين الفكر العربى والتراث) دار الحداثة للنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٣ ص ٣٠ .
١٣– نجيب محمد البهبيتى (المعلقة العربية أو عند جذور التاريخ) القسم الأول– دار الثقافة– الدار البيضاء– الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م ص ٣٤٨ و٣٤٩ .
١٤– د. محمود الطناحى (بنت الشاطئ وتحقيق التراث) مجلة العربى– الكويت، ربيع أول ١٤٢٠ هـ يوليو ١٩٩٩ ص ٣٨ .




التراث واقع
تاريخي والحاضر
واقع متحرك



التراث واقع تاريخى والحاضر واقع متحرك

يعتبر الفيلسوف « ارنست رينان » الفلسفة العربية غير انتاجية وزعم بعض المستشرقين الأروبيين أنها ليست عربية أو إسلامية (إلا بقدر كونها نسخة عربية للفلسفة اليونانية) .

هناك رأى آخر يختلف جذر يامع ما سلف نُشر فى الموسوعة الفرنسية . موكداً : إن الكتاب العرب لهم فضل كبير على المنتج الغربى من كتب وأفكار .

وبعيداً عن التلبيس والجحود وإغماط الآخر حق العرب فى الريادة والإبتكار، يمكن لمن يشاء معانقة الحقيقة من خلال الفلسفة اليونانية التى اكتسبت بتفاعلها مع الفلسفة العربية / الإسلامية تطوراً أضفى على حياتها التجدد، فى الوقت الذى ران على الفكر العربى حالة من الغيبوبة، وأصبح السائد- فى حقب متفاوتة- يستلب الوعى، ولا يقوم على أسس المعارف، وإنما على نشر الطوباويات، وعدم الإهتمام بتطوير النشاط الإجتماعى المادى، وكأن الدين فى نظر هؤلاء لا يهتم بعوامل النشوء والإرتقاء .

الأمر كان جد مختلفاً تماماً بالنسبة لواقع الفلسفة اليونانية فقد حققت بتفاعلها- منذ البدايات- مع الثقافة العربية نهوضاً لا مثيل له بعد عزلة انقطعت خلالها عن حركة التاريخ البشرى عدة قرون :

« ويمكن القول أن هذا الإنقطاع يرجع إلى العهد الذى أغلق فيه الإمبراطور الرومانى جوستنيان مدارس أثينا الفلسفية (سنة ٥٢٩م) إذ لجأت الفلسفة اليونانية إلى عزلتها فى مدارس النساطرة فى الشرق حتى خرجت من هذه العزلة عند بداية حركة النقل العربية منذ خلافة المنصور (١٣٦هـ -

٧٥٣م) [١]» .

بعد أن خرجوا من العزلة إندفعنا نحن إلى أحضانها حتى صار التراث العربى الإسلامى يشكل وحدة منفصمة تتناقض فعاليتها مع وقائع واحتياجات الإنسان العربى، حتى المعالجات التى حاولت تقديم الحلول لقضية التراث لم تجمع على اتفاق يلتزم به مختلف الفرقاء إستجابة لرؤى التبصر العلمى الموضوعى، واهتمامه أولاً باستيعاب التراث القومى الفكرى، وثانياً: تقويمه بروح العصر، ثالثاً: الاهتمام بكل ما له علاقة تاريخية فى واقع الوطن العربى الإسلامى من علوم اللغة. . الفلسفة. . الآداب. . الفنون.

غير أنه مع هذا الكم الهائل من هذه الكتابات إلا أنها لم تسفر عن « كيف » يترجم القيمة إلى دوال دينامية تنشط فى اتجاه القضاء على المشاكل الناجمة من المعالجات الخاصة بالتراث:

« إن كل من حاول النظر فيه: تأريخيا، أو تفسيراً، أ و دراسة، فى مختلف العصور المتأخرة عن عصره، فسنراها أشكالاً متعددة: بعضها يتخالف وبعضها يتناقض وبعضها يتشابه. فكيف نفسر هذه الظاهرة؟ . . كيف تختلف معرفة التراث عند هذا المؤرخ وذاك، أو عند هذا المفسر وذاك، أو عند هذا الباحث وذاك، فى حين أن النتاج الفكرى التراثى هو كواقع تاريخى له صورته الثابتة، له نصوصه المتجمدة المورثة للأجيال اللاحقة، ما انكشف منه لنا وما لم ينكشف بعد؟ [٢]» .

---

(١) حسين مروة (النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية) الجزء الأول، الطبعة الرابعة ١٩٨١، دار الفارابى- بيروت ص ١٦٢.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧

نحن أمام إشكاليات تحيط بالتراث، حيث قدمه المفكرون لنا فى عدة وجوه وأشكال، ولا أعتقد أن ذلك يبتعد كثيراً عن واقع الحياة العربية الإسلامية، حيث التفاوت الاجتماعى بما يجلبه من تناقضات فكرية لا تسمح بالتنازل لقبول مضمون واحد، يرتبط بآليات الحاضر وهو يأخذ فى الإعتبار مزاعم الباحثين ومن يذهبون صوب ما يسمى بمرتبة « التفاضل »، بين جنس واحد، وبين بعض فصائله « بديوية أو حضارية » (من حيث المرتبة الحضارية والقابليات العقلية).

وعلى الرغم من أن اللغة مكوِّن من مكونات الهوية الثقافية، لكن إزاء ما يعتريها من الإنشقاق، نجدها :

« ليست مكوناً حاسماً فى كل الأحوال، فما أكثر من ينتسبون إلى هوية ثقافية عامة، تصل ما بين عناصرها بأكثر من رابط، ومع ذلك تتعدد لغات المجموعات المنتسبة إلى هذه الهوية. ومثال ذلك أن النوبة فى مصر تندرج فى الفضاء الجغرافى للهوية الثقافية المصرية، ولكن أهلها يتحدثون لغة غير العربية، هى لغة منطوقة، لا تزاحم اللغة العربية فى الكتابة، ولكنها لغة مغايرة مختلفة ومع ذلك هى إحدى مكونات الهوية الثقافية المصرية فى وحدتها القائمة على التنوع شأن الهوية الثقافية فى ذلك شأن هويات ثقافية أخرى تقوم وحدتها على تنوع عرقى ولغوى فى الوقت نفسه، ولكنه لا يفارق الهوية العامة التى تقوم على روابط أخرى أقوم من التعدد اللغوى الذى لا يتناقض، جذرياً، مع الهوية السائدة التى يمكن أن تستوعب لغات ثانوية، كالأمازيغية فى حالة الهوية الثقافية لدول المغرب، أو الكردية وغيرها كما فى الهوية الثقافية للعراق، وقس على ذلك غيره من أوضاع الدول التى

تنطوى على طوائف عرقية متغايرة (٣)»

من هنا ظهر أن هناك واقعان فى مجال دراسة التراث، ففى مصر مسلمين ونصارى ونوبيين وفيهم مسلمون ونصارى وإذا اتيح لمفكرى هؤلاء أن يتناولوا قضية التراث العربى / الإسلامى فهل ستلتقى نتائجهم، أو تتفق مع غيرهم من الأعراق المختلفة.

ومهما قيل فى قضية البحث المعرفى وأهمية اتصافها بالحيدة والتناول الموضوعى إلا أنه ستكون فى جانب منها موسومة بالطابع الذاتى. أياً كانت هذه الذات.

وبعيداً عن المخايلات الخادعة فإن الهوية الثقافية للشخصية المصرى تقوم على مكونات الإرث القرعونى، الفارسى، اليونانى، الرومانى، المسيحى، ثم الإسلامى.

هذا ما تؤكد عليه الدراسات الإيجابية بمساهمتها فى تصحيح المواقف غير العلمية من تراثنا الفكرى بعامة، والفلسفى منه بخاصة:

« ولكن المسألة الآن أنه لم تظهر – بعد– دراسة تعالج هذا التراث ككل بصورة شاملة تأخذه فى حركته التاريخية، نشأة ونمواً وتطوراً، مع ربطه فى كل مرحلة بسير تطور العلاقات الإقتصادية والإجتماعية، وما يرافق ذلك وينعكس فيه من تطور المجتمع العربى / الإسلامى مادياً وروحياً، ضمن سيطرة التفكير الدينى والنظم الإسلامية (٤)».

الدين إذن من أهم مكونات الشخصية المصرية، وهو فى بلادنا إسلامياً

---

(٣) د. جابر عصفور (الهوية الثقافية واللغة) مقال، جريدة الأهرام. الإثنين ٦ إبريل ٢٠٠٩.

(٤) حسين مروة (مصدر سابق) ص ١٥٨.

ومسيحياً عاملاً مؤثراً فى بناء وبلورة الهوية بزخم تنوعها الفكرى والثقافى على قاعدة التعدد.

وتبعاً لما تقتضيه مصلحة الجماعة، لابد- فى هذه القضايا- أن نخرج رؤوسنا من الرمال، ونقر بأنه مع متابعة الخطابات الثقافية والسياسية والدينية، نجد فى بعضها من يكتبون بلغة الطرشان، ومن يستخدمون لغة الإشارة فيدفعون بنا إلى مجاهل التغريب بعيداً عن الشفافية، والذى يكاد يغرق ساحة المجتمع ويتشكل من فرضيات تروح بين النخب التى تعتقد أنها تؤدى دوار تنويرياً بين جماعة المسلمين وبين جماعة النصارى، ومن بين المعانى السائدة والفوضى اللغوية. تلك المفاهيمية السائدة فى مصر، والتى تؤدى إلى:

١- إعاقة الفكر السياسى والإجتماعى والدينى عن التطور وتخليق تراكمات معرفية وفى الوعى النخبوى والسياسى والدينى، على نحو يحدث قفزات تؤدى إلى تجديد مشروع الحداثة والتحديث وما بعدهما فى إطار وصل ما انقطع بيننا وبين المرحلة شبه الليبرالية، وبين تحولات المعرفة المقارنة ومشروعاتها وتجاربها على إختلافها.

٢- تشوية الوعى النخبوى والجماعى لشرائح اجتماعية عديدة تؤثر عليها لغة الخاصة ومصطلحاتهم المشوهة حول مفاهيم الهوية المصرية والفرعونية والإسلامية والمسيحية والعربية، أو حول العلمانية، أو الوطنية واللاوطنية، أو السيادة، أو الأمن القومى، أو الأمة وهل هى إسلامية، أو قبطية أو عربية؟ وهل هى رابطة أو جامعة عرقية أو دينية / مذهبية أو أنها مفهوم وحالة تكوينية تاريخية وثقافية ولغوية، أكثر تعقيداً من

المعانى البسيطة والسطحية المتداولة فى سوق اللغة والخطابات والمعانى المصرية بكل ما تمتلئ به من لغو وسطحية ومتفجرات تشعل الحرائق بين المدارس السياسية والإيديولوجية، وبين المسلمين والأقباط (٥) ».

ولا يفيد بأى حال من الأحوال تشطير معانى التراث ومعالجة فرع منه بعيداً عن الإلمام بمختلف مكوناته وعناصره، كما لا يجوز فصل مرحلة نشأة الفلسفة الإسلامية عن الفكر اللاهوتى الإسلامى (علم أصول العقائد، أى علم الكلام، وعلم أصول الفقه) فإن جدلية التفاعل بين واقع هذه العلوم والواقع الثقافى الشفاهى والمدون، لا يمكن أن تكون آحادية الجانب، (وإلا فليس هناك جدلية إطلاقاً).

من ثم يظل التراث عتيداً، راسخاً، لا يراوح مكانه بينما تلتف من حوله أشكال المعالجات المختلفة (لأنه منظور إليه من الحاضر، والحاضر يبدو متجدداً، مغايراً، رغم أن التراث، كواقع تاريخى، واحد »، ويبقى موضوع (عصرنته) بحاجة إلى أئمة فى الفقه والعلوم السياسية، والفلسفية، والثقافية، واللغوية، شريطة ألا يتدخل المتطرفون فى كلا الجانبين الإسلامى والمسيحى حتى لا ينضح الوعاء الإجتماعى بما يفسد على الجميع حياتهم.

وعلى من يهمه تجديد الفكرى العربى الإسلامى أن يهتم برأى الآخر سواء كان متفقاً معه أو مختلفاً، وعلينا أن نقبل ما ينفع الناس بغض النظر عن مصدره:

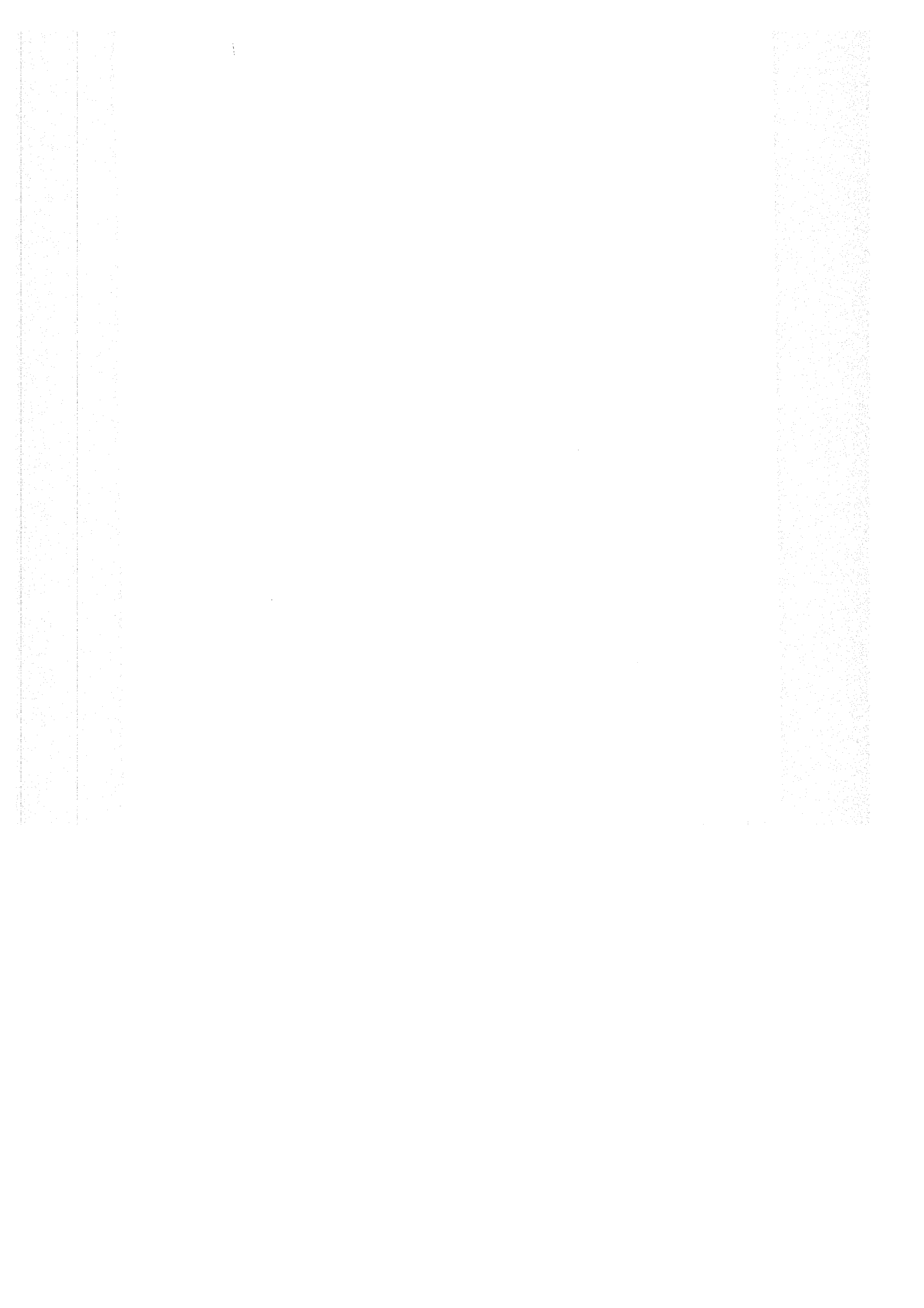
« وما يقال عن الفهم الإسلامى المنفتح لا يمكن أن يقال عن الأصولية

(٥) نبيل عبد الفتاح (الكلام الكبير وفوضاه) مقال. جريدة الأهرام ٩ إبريل ٢٠٠٩ ص ١٠.

الإسلامية المعاصرة، أو الأصولية المسيحية المعاصرة، فالأولى لا تعدو إلا أن تكون صورة مقابلة من الثانية، والعكس صحيح بالقدر نفسه، ولذلك تتحد كلتاهما فى الآليات العقلية والتصلب الفكرى، وكراهة المغايرة أو المخالفة، فضلاً عن توهم احتكار الحقيقة فى كل أصولية منهما؛ لوصفها الفرقة الناجية، وما عداها غارق فى ضلالة الجهالة والإثم (٦)».

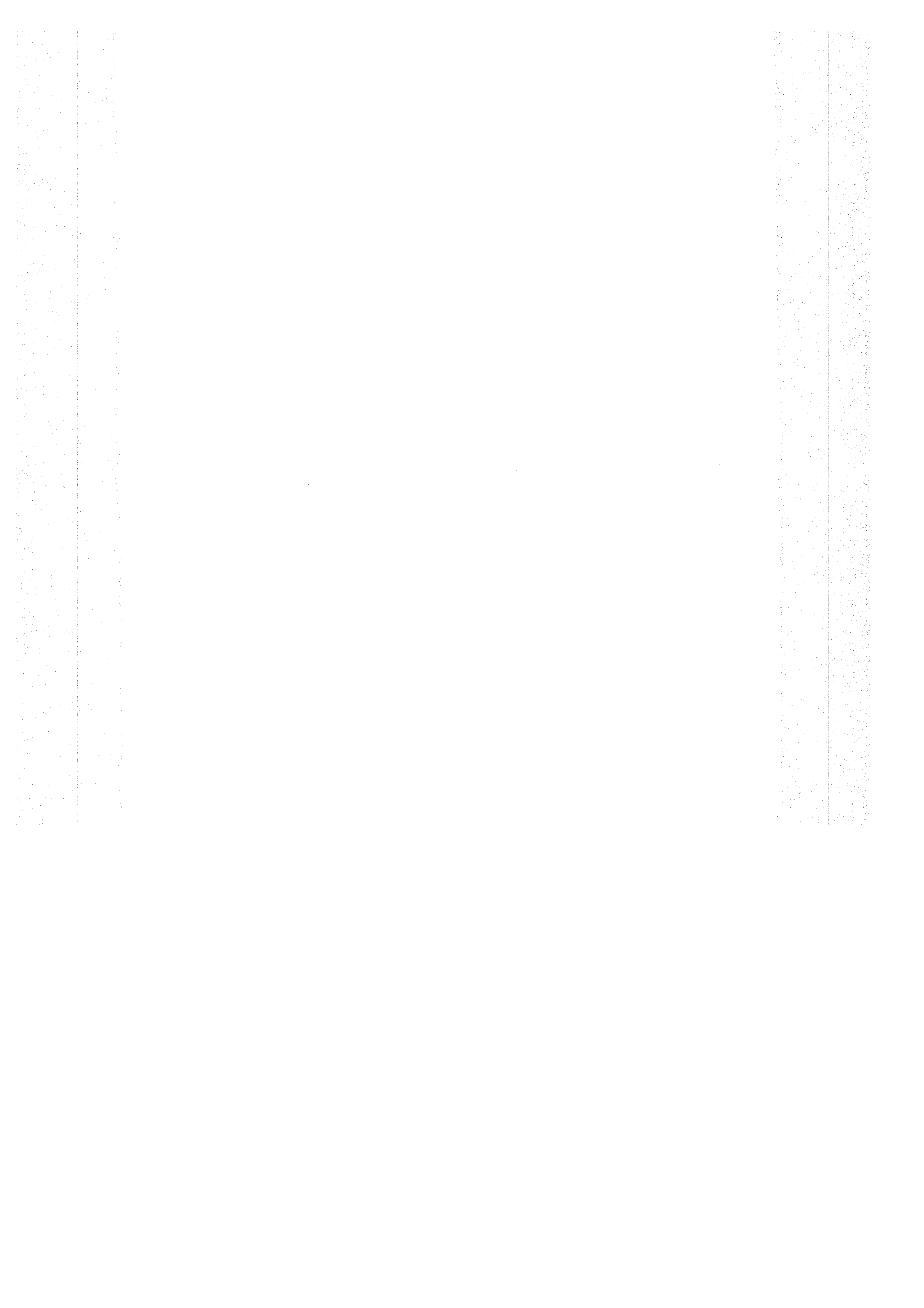
*****

(٦) د. جابر عصفور (الهوية الثقافية والدين) جريدة الأهرام - مقال ١٣ إبريل ٢٠٠٩.





الكذب على الجماهير.. مهمة الحاكم القوى!



الكذب على الجماهير.. مهمة الحاكم القوى!

انفتح باب تداول الأفكار على مصراعيه فى وقت مبكر جداً من تاريخ العرب والمسلمين.. حديثاً. نهل مفكرونا من موارد غير إسلامية.. أخذوا من كتب المستشرقة والمستغربة إعتقاداً منهم بأن كل ما جاء على صفحاتهم هو عين الرشاد والسداد.

كان هذا أحد العوامل التى تأثرت بها عمليات الابتعاد من شريعة الدين إلى الأخذ بقوانين الحياة فى ماديتها، وأصبحت النتيجة، تزايد مستمر فى نسل الشياطين ممن حذقوا التعامل مع قضايا المسلمين، وحفظوا عن ظهر قلب جميع الكتب السماوية والأحاديث النبوية الشريفة وغيرها لكى يناظروا بها، ويستعملونها فى غير مقامها، تحريفاً وغواية.

لهؤلاء الشياطين- مع المسلمين- صولات وجولات منذ أن كانت الدعوة المحمدية فى مهدها الأول.. ظهر بين هؤلاء الشياطين من كان يتخذ من الكعبة مَجْلساً قبالة الجانب الذى يجلس فيه رسول الله ﷺ، ويقول داعياً إلى فتنة الناس والتأثير عليهم: تعالوا إلىَّ فأحدثكم بمثل ما يحدثكم به محمد:

«كان النضر بن الحارث من شياطين قريش.. وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وأسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكَّر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم مِنْ نقمة الله خَلفَه فى مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً فهلمَّ إلىَّ.. ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار،

ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً منى (١)».

سبق هذا ظهور الجد الأول للشياطين حيث كان يروج لعلمه بأنه يعرف بما سيأتى به الغد، وفى ذلك يروى السدى:

«إن الشياطين كانت تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون فى الأرض من موت أو غيب أو أمر فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتتب الناس ذلك الحديث فى الكتب وفشا ذلك فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب فبعث سليمان فى الناس فجمع تلك الكتب فحملها فى صندوق ثم دفنها تحت كرسيه، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى إلا احترق، وقال: «لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه».

فلما مات سلميان عليه السلام، وذهب العلماء والذين كانوا يعرقون أمر سليمان فخلف من بعد ذلك خلف تمثل الشيطان فى صورة إنسان، ثم أتى نفراً من بنى إسرائيل فقال لهم هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟.. قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسى فذهب معهم وأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: فإدنْ. فقال: لا ولكنى ههنا فى أيديكم فإن لم تجدونه فاقتلونى فحفروا فوجوا تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ**

(١) ابن هشام «السيرة النبوية» القسم الأول. ص ٣٠٠.

كَفَرُوا ﴾[البقرة : ١٠٢] .

وأوغل الكهان من قرناء الشياطين فى الإنكباب على هذه الكتب، وزعموا أنهم يقرؤن الغيب، وما سيحدث على الأرض، وذلك كله كذب صراخ.

يقول إبراهيم بن المنذر :

« حدثنا معنُ قال حدثنى ملك عن عبد الله بن ديار عن ابن عمر - رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله . لا يعلم ما فى الغد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله(٢) »

وعلى ذكر شياطين الإنس والجن. قال ابن إسحق :

« وجلس رسول الله ﷺ يوماً - فيما بلغنى- مع الوليد بن المغيرة فى المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم فى المجلس- وفى المجلس غير واحد من زعماء قريش- فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨-١٠٠]

قال ابن إسحق : ثم قام رسول الله ﷺ . وأقبل عبد الله بن الزبعرى : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد . وقد زعم مع أنّا

---

(١) رواه البخارى. الجزء السادس ص ٧٩ .

وما نعبد من آلهتنا هذه حَصَبُ جهنم.

فقال عبد الله الزبعرى: أما والله لو جدتُه لخصَمته فسلوا محمد أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده؟.. فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزيرْا، والنصارى تبعد عيسى بن مريم.

فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه احتج وخاصمهم. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول الزبعرى، فقال رسول الله ﷺ: «إن كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع مَنْ عبدهُ. إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمَرتهُم بعبادته» والعبارة التى كتبت بالأسود عجيبة» فهى تدل على أنهم حتى فى عبادة أولئك إنما يأتمرون بأمر الشياطين آلهتهم، فهم لا يزالوا فيها أتباعاً للشياطين (٣)».

واستمر الشياطين إلى عهد قريب يدعون أنهم يطالعون خبر السماء ويأخذون منه ما يهم أهل الأرض، وفى ذلك:

«حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين فقالوا ما لكم فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء إلا ما حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذى حال بينكم وبين خبر السماء فانطلق الذين توجهوا نحو تِهامَة إلى رسول الله ﷺ بِنَخْلةِ وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما

(٣) ابن هشام «السيرة النبوية» القسم الأول ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

سمعوا القرآن تَسمعُوا له فقال هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا وأنزل الله عز وجل على نبيهﷺ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن وإنما أوحى إليه قول الجن (٤) » .

ولم يفلت مخلوق آدمى خلقه الله من نزغات الشياطين، ولا يوجد أى مخلوق آدمى خلقه الله إلا وقد أصيب بمس عند ولادته، وفى ذلك يقول عبد الله بن محمد :

« حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن سعيد بن المُسَيَّب عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبىﷺ قال ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها ثم يقول أبو هريرة واقرؤا إن شئتم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم (٥) » .

وبفضل القرآن علينا وبرحمة من الله عرفنا أن فى مملكة الجن مسلمين. حدثنا فى ذلك عمرو بن على :

« حدثنا يحيى حدثنا سُفْينُ حدثنا سُليمان عن إبراهيم عن أبى معمر عن عبد الله إلى ربهم الوسيلة قال كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم، زاد الأشجعى عن سُفْين عن الأعمش قل ادعوا الذين زعمتم أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة الآية، حدثنا بشر بن خالد أخبرنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سُليمن عن

(٤) رواه البخارى - الجزء الرابع- الناشر المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣١٤ هـ ص ١٦٠ و١٦١ .

(٥) رواه البخارى- الجزء السادس (المصدر السابق) .

إبراهيم عن معمر عن عبد الله رضي الله عنه في هذه الآية الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة قال ناس من الجن يعبدون فأسلموا (٦)» .

لقد صدق عمر بن الخطاب إذ يقول – وهو يعظ الناس– : إنه لا عذر لأحد غير الله، بعد البينة، بضلالة ركبها حسبها هدى، ولا في هدى تركه حسبه ضلالة، قد تبينت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر .

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾[المائدة : ١٥] .

ومع ذلك لبث إبليس متفانياً فى ضلال البشر، ولا ينسى مسلم إنه كان منذ ما قبل الحياة الدنيا عدو للإنسان :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾(٧)» .

والذين ذهبوا إلى أن إبليس وأولياءه من الجن كانوا ملكوا رد علم الله والخروج من قسمه الذى أقسم به، إذ قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص : ٨٥] حتى لا ينفذ له علم رلا بعد مشيئتهم :

« فماذا تريدون بهلكة أنفسكم فى رد علم الله، فإن الله عز وجل لم يشهدكم خلق أنفسكم، فكيف يحيط جهلكم بعلمه / وعلم الله ليس بمقصر عن شئ هو كائن، ولا يسبق علمه فى شئ فيقدر أحد على رده، فلو كنتم تنتقلون فى كل ساعة من شئ إلى شئ هو كائن لكانت مواقعكم عنده .

ولقد علمت الملائكة قبل خلق آدم ما هو كائن من العبادات فى الأرض

---

(٦) المصدر السابق : ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٧) طه : ١١٥ ، ١١٦ .

من الفساد وسفك الدماء وما قالو تخرصاً إلا بتعليم العليم الحكيم لهم، فظن ذلك منهم وقد أنطلقهم به (٨)».

*** أدوناى.. إله الشر اليهودى:**

كان إلههم شيطان يدعى أدوناى. فى الوقت الذى كان فيه لكل قبيلة من عرب الجاهلية إلهاً صُنع بأيديهم من الأحجار لعبادته، وكانوا يصطحبون الآلهة على ظهور الحمير، وإذ مرت بهم ظروف عسيرة أثناء المشى للتجارة، أوحل بهم بلاء، سارعوا بإخراجها من المقاطف وهم يسألونها الرضى، والصفح، والغنى.

ومضت الحياة بين من يؤمن بتأثير هذه الآلهة فى حياة الناس، وبين من لا يؤمنوا بها، وكان ذلك من وجهة النظر الفيريقية لا يتنافى مع الناموس، ومع الوجود الذى يعج بمختلف الأضداد والقاضى بضرورة الإبقاء عليها كعامل حيوى يدفع الناس بعضهم ببعض، وبشكل لا تستطيع معه قوة من الطرفين- الخير والشر- الزعم طوال الوقت أنها حققت الانتصار بشكل كاسح، إلا إذا أمكن عزل النور عن الظلام، أو جعله بمنأى من قلب الظلام، أو فصل الليل عن رائعة النهار.

معنى ذلك أن الخير والشر جدلية مقضى عليها بالاشتباك حتى قيام الساعة، وإن كل عمل ابن آدم سيظل يعتوره النقصان.. إن مصاحبة الحياة بالممارسة تؤكد أن الكمال لله وحده.. عزاء الإنسان الوحيد أن مشاكله

---

(٨) أحمد الشرباصى (عمر بن عبد العزيز) خامس خلفاء الراشدين - كتاب الشعب مطبعة الشعب- القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٠٩ و ٢١٠.

وصراعه مع الشيطان وقوى الشر لم تبدأ على سطح الأرض، وإنما منذ أن تمترس الشيطان وراء أعماله الزنيمة ودخل فى مجادلة مع الله، وتحديداً يوم أن تطاول إبليس اللعين وأعلن عن تمرده وعصيانه بقوله: «لن أسجد لبشر» ثم فى محاولة التفافية حول الملائكة الذين كان يتقدمهم، قائلاً: «إنه« يعنى الله» قد علم قبل خلقى أى شئ يصدر عنى ويحصل منى فلم خلقنى أولاً؟.. وما الحكمة فى خلقه إياى؟.. ثم أنه خلقنى على مقتضى إرادته، ومشيئته، فلم كلفنى بمعرفته وطاعته؟.. وما الحكمة فى هذا التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة، ولا يتضرر بمعصية؟».

فأوحى الله تعالى إلى الملائكة عليهم السلام:

«قولوا له: لو صدقت أنى إله العالمين ما احتكمت علىّ بلم؟ فأنا الله الذى لا إله إلا أنا، لا أسأل عما أفعل- فى القرآن الكريم: ﴿ **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء:٢٣] والخلق مسئولون، وهذا الذى ذكرته مذكور فى التوراة، ومسطور فى الإنجيل (٩)».

ثم أثبتت وقائع الحياة الدينية والمادية أنه لا يوجد مخلوق عصى الله وتصدى لأعمال الخير سوى إبليس.. الشيطان وأقرانهما من اليهود فليس بيد أحد حجة تنفى عنهم تهمة قتلهم الأنبياء والرسل والخروج على شريعة موسى واستبدال التوراة- كلمة الله- بالتلمود.

لا يستاء من ذكر الحقيقة إلا الضالعين والواقعين تحت سطوة الفكر الصهيونى، ونحن لا نجازف بإطلاق القول على عواهنه فلدينا ولدى

(٩) الشهرستانى (بتصرف) ج١، المكتبة التوفيقية ص ٢٧ و٢٨.

الكثيرين من المنصفين ما يؤكد أن هولاء دعاة العنصرية البغيضة والعقيدة الشيطانية ولن ندلل على قولنا وصحته بأقلام أحد من المسلمين بل بكتابات اليهود أنفسهم وفيها يؤكدون أن إلههم الأعظم هو الشيطان ذاته. هذا ما ذكره الرئيس الروحى للنظام الكهنوتى الشيطانى المدعو « بايك » وهو يهودى من أصحاب المؤسسات البنكية، ففى رسالته الصادرة إلى رؤساء المجالس العليا فى ١٤ يوليه ١٨٨٩م، ضمنها شرحاً مستفيضاً لأصول العقيدة الشيطانية وما يتعلق بعبادة الشيطان، قائلاً:

« يجب أن نقول للجماهير أننا نؤمن بالله ونعبده، ولكن الإله الذى نعبده لا تفصلنا عنه الأوهام والخرافات، ويجب علينا نحن الذين وصلنا إلى مراتب الإطلاع العليا أن نحتفظ بنقاء العقيدة الشيطانية.

نعم !

إن الشيطان هو الإله،، ولكن للأسف، فإن إدوناى (هذا هو الإسم الذى يطلقه الشيطانيون على الإله الذى نعبده) هو كذلك إله.. أما الديانة الحقيقية والفلسفة الصافية فهى الإيمان بالشيطان كإله مساوٍ لإدوناى، ولكن الشيطان، وهو إله النور، وإله الخير، يكافح من أجل الإنسانية إدوناى إله الظلام والشر (١٠) ».

كان إدوناى يمارس نشاطه على الأرض قبل أن يهبط إليها إبليس من السماء مذموماً مدحوراً، وقد اشتركا معاً فى عمليات سرقة صناديق النذور والقربات التى كانت تقدم لآلهة المصريين القدامى، ومع استمرار عمليات

(١٠) وليام غازى كار (أحجار على رقعة الشطرنج) ترجمة سعيد الجزئرلى، مراجعة م. بدوى، دار النقاش. ببيروت ط الثالثة ١٣٦٩هـ ص ٢٠ و ٢١.

السرقة من الجبانات الملكية المقدسة إلا أن المال الذى كان يغدقه الشعب على المؤسسات الدينية، كان يذهب فى مقداره إلى أرقام فلكية مما يثير لعاب المتسفلين، ويفتح شهيتهم على الاستبضاع منه، ويلاحظ أن ذلك التسفل كان يستفحل خلال المراحل المتعاقبة للتيموقراطية «حكومة الجشعين الطماعين» و الأوليجاركية «حكومة الأثرياء» فى قمة انحدارهم الروحى والأخلاقى.

وفى العصر الحديث وجد إخوان الشيطان الفرصة لبيع الحرية بسفك دماء الشعوب، ثم روجوا للحرية واستغلوها فى مجال التعبير لطعن الدين، وباتوا يزعمون أن فى اسطاعتهم «تصميم الأفكار» والقيام بتصديرها، وأنهم قادرون على «إبداع مخلوقات جديدة».

ودعماً لهذا النشاط التخريبى سجلوا تلك الأفكار فى الكثير من الكتب، ومنها ما خطه الكاتب اليهودى «هنرى ثورو» فى روايتيه: «فالدن١» و «فالدن٢» عام ١٨٤٧ م اللتين ينأى فيهما عن الأخلاق ليعطى للقراء وهما باسم «الحرية» حتى تستولى حكومة الأثرياء على خبز الشعوب، وحتى يظل من لا يملكون عبيداً فى عالم تروج فيه كتابات فاسدة بأقلام جعلت من مهمتها الرئيسة الحط من قدر المسلمين وديانتهم، وفى مرحلة لاحقة روجت بين ظهرانيهم مبادئ «العدالة» و«الحرية» الزائفة، وظلت تمجد الحرية قبل الحصول على «الخبز»، فهل كان هؤلاء لا يدركون أن من لا يملك قوت يومه لا يملك حريته؟!

كان إهتمام الشياطين منصباً على تصدير الحرية العارية من الأخلاق والملابس إلى بلادنا العربية والإسلامية، ولا مانع يحول دون ممارستها على مقاعد الحدائق العامة، وفى المواخير، وعلب الليل، لتفكيك عرى الأسرة

حتى يتحلل المجتمع وينهار، وللجميع حق الإستمتاع بكل ما تفرزه الغرائز شريطة عدم الاستحواذ على الموارد الطبيعية، لأن ذلك لابد أن يكون فى قبضة «الآخر» المسيطر والذى لا ينى – بين وقت وآخر– يقول لنا: ما الذى بقى لكم لكى نفعله؟!

عادة،عندما يطرحون علينا أسئلتهم، من الغرابة أن تكون بين أيديهم مئات الأجوبة الجاهزة:

«ما رأيكم فى تصميم الشخصيات؟.. أى وضع تصميم نصنع على غراره.. هل يعنيك التحكم فى الأمزجة؟.. إعطنى المواصفات المطلوبة وسوف أعطيك الإنسان المطلوب!!

ما رأيك فى السيطرة على الحافز، وغرس الإهتمامات التى تجعل الناس أكثر إنتاجية ونجاحاً؟.. هل يبدو هذا الأمر خيالياً؟.. ببعض التقنيات المتاحة يمكن إعداد كثير غيرها تجريبياً.. إننا نستطيع أن نحلل السلوك الفعال وتصميم التجارب لإكتشاف طرائق غرس ما نريد فى شبابنا (١١)».

مع تشطيب هذه الشخصيات التى (تجعل الناس أكثر إنتاجية) يكون أحفاد الشيطان قد عبَّدوا الطريق لإستخراج «إله» من مجتمعهم، مثل «يهوه» إله الجنود فى اليهودية.

لكن من فضل الله على الناس أنه وضع فى صدورهم قلوبا لا تزيغ ولا تعرف سوى التسبيح بإسمه.. أمثال هؤلاء لا يتصورون أن هناك فى الكون الجميل مخلوقات شريرة تعمل على مناهضة الأعمال الطيبة لتقويض أركان

(١١) سكينر «وهم الحرية ومجتمع القطيع» بتصرف، مجلة القاهرة، فبراير ١٩٩٣ ص١١٥، ١١٦.

العالم وتخريبه لمصلحة الشيطان، كما يصعب على أمثال هؤلاء أن يتصوروا أن هناك- في زمن التقدم العلمي- طقوساً تتجه لغير وجه الله وهي مستوحاة من النصوص التوارتية:

« حيث يلقى خلالها الشيطان إلى كهنته من حاخامي الديانة اليهودية المدهشة، أو من رؤساء المحافل الماسونية المنحرفة، وساوسة فيتقبلها أولئك الرجال والنساء الذين رضوا بالشيطانية أوالوثنية ديناً لهم وأخذوا بتنفيذ الأوامر الشيطانية كما يقول كبار الكهان (١٢)».

لقد تواجدت الشياطين والجان على الأرض قبل أن يصل الإنسان إليها في زمن لا يعلم مداه سوى الله، وكان بعضهم يتنقل في مسافة بين السماء والأرض.

يقول أبو أحمد الزبيري، حدثنا سفيان عن عاصم عن ذر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: هبطوا (يقصد الجن) على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن النخلة (فلما حضروه قالوا أنصتوا) قال صه (١٣) وكانوا تسعة وأحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ** ﴾[الأحقاف: ٢٩].

وقال مسلم أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود وهو ابن أبي هند عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود رضي الله عنه شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا

(١٢) وليام غاى كار (أحجار رقعة الشطرنج) الطبعة الثالثة - بيروت- ص ٩٦.
(١٣) صه: اسم فعل بمعنى: أصمت

سألت ابن مسعود رضي الله عنه فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه فى الأودية والشعاب فقيل استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بها قوم، فلما أصبحنا إذ هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا يارسول فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتانى داعى الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وأثار نيرانهم.

وكان منهم الكافرون ومنهم من أسلموا لدرجة أن فيهم من دعى الإنس إلى الإيمان برسالة النبى ﷺ جاء ذلك فى سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى حديثه عن سواد بن قارب:

«قال البيهقى: حديث سواد بن قارب، ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح، أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد حبيب المفسر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله بن عبد الله الأصفهانى قراءة عليه، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمار الكوفى بالكوفة، حدثنا أبو بكر القصرى حدثنا محمد بن النواس الكوفى، حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبى اسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال: أيها الناس أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة. فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت يا أمير المؤمنين وما سواد بن قارب؟ قال فقال له عمر رضي الله عنه: إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً، قال فينما نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب قال: فقال له عمر رضي الله عنه: يا سواد حدثنا ببدء إسلامك كيف كان؟ قال سواد رضي الله عنه:

فإنى كنت نازلاً بالهند وكان لى رئى من الجن. قال فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ جاءنى فى منامى ذلك. قال قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤى بن غالب ثم أنشأ يقول:

عـجـبـت للجن وتحـاسـسـهـا ... وشـدها العـيس بأحـلاسـهـا
تهـوى إلى مكة تبـغى الهـدى ... مـا مـؤمنو الجن كـأرجـاسـهـا
فـانهض إلى الصـفـوة من هاشم ... واسم بعـينيك إلى رأسـهـا

قال: ثم أنبهنى فأفزعنى وقال يا سواد بن قارب، إن الله عز وجل بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد، فلما كان من الليلة الثانية أتانى فأنبهنى ثم أُنشد يقول:

عـجـبـت من الجن وتطلابهـا ... وشـدها العـيس بأقـتـابهـا
تهـوى إلى مكة تبـغى الهـدى ... ليس قـدامـهـا كـأذنابهـا
فـانهض إلى الصـفـوة من هاشم ... واسم بعنيك إلى قـابهـا

فلما كان فى الليلة الثالثة أتانى فأنبهنى ثم أنشأ يقول:

عـجـبـت من الجن وتطلابهـا ... وشـدها العـيس بأقـتـابهـا
تهـوى إلى مكة تبـغى الهـدى ... ليس ذوو الشـر كـأخـيـارها
فـانهض إلى الصـفـوة من هاشم ... مـا مـؤمنو الجن ككفـارها

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة وقع فى قلب حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال فانطلقت إلى راحلتى فما حللت تسعة ولاعقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ فإذا هو بالمدينة.

******



الحزب الإسلامى ورأى البابا شنودة فى سلبية النصارى والمسلمين



الحزب الإسلامى
ورأى البابا شنودة فى سلبية النصارى والمسلمين

كل مزاعم البشرية.. ما أبدعته القرائح.. كل ما يخرج من إطار التنظير الفكرى إلى هياكل النظم التطبيقية.. كل إبداع وابتداع إنسانى، وإن شاع أمره وذاع صيته فإن بقاءه رهن بالتجربة، ثم يأتى التأكد من نفعه أو عدم صحة بيانه وجدواه فى شكل لايدحضه ويمسخه إلا حقيقة أخرى تكون أكثر قبولاً، بغض النظر عما إذا كانت زائفة.. مثالية.. عقلانية.. عبثية، عبر أزمنة فقدت إنسانيتها، وتلفلفت بأردية الزيف والخداع.

إن بقاء شئ من ذلك رهن بمدى الفائدة التى يحصل عليها الأفراد والجماعات، غير أنه عقب إنخفاض تلك القيمة، أو تدهورها فإن ذلك يسمح بنمو ما يرهص بالإنقلاب على الماضى لينهض وجه آخر، يرى الناس فيه أنه أكثر فائدة، وعدل، وإشراق.

ليس معنى ذلك أننا من الذين يدينون كل ماض، لأن كل قديم فى زمانه كان سديداً.. صحيحاً.. بالنسبة للحاضر هو بالٍ.. رث.. عتيق، متهم، ولدى من يشتغلون فى البحث عن الجديد فئة تصدق أن الأفكار القديمة كانت لا تطرح الأسئلة، مع أنهم فى مغالطة محضة يعتبرون أن العلم الحديث يقوم على التجريب والقياس والممارسة. دون أن يذكروا الأحلام والثقافة التى صاغت العديد من المدن.

ومن الأخطاء الفادحة عدم الاستبصار بأن كل جديد ينهض على أكتاف القديم. من يرمونه بالقصور، لا يدرون أن الجديد المحتفى به فى زمن لاحق-

إذا قيس التطور والتجديد بهذه العقلية- سوف يأتى من يرمونه هو الآخر بالرثاثة والجمود.

هناك إذن ضرورة بحتة فى وجود حلقة على قدر ما متصلة بحبل سُرى بسلسلة المكونات القديمة، ولن يفيد الإنسانية تقبيح الماضى وتشويه حقبة من أحقابه لأنه لا يخدم مشاريعنا الحالية، أو اهتماماتنا الذاتية، لمجرد أننا افتتنا بواقع يبتلعنا فى استباحة، ولا نحب أن نجد فيه حياة القدماء، أو نقول فى أهلنا كلمة حب، وهناك من لا يزال يزعم أن المجتمعات التى يرمونها بالتخلف (هى التى إنطلقت منها الشرارة الأولى للتقدم) ويرفض فى ذات الوقت مفاهيم الحداثة، ويرون فى شئ من التشتت والتناقض: (من غير المنطقى أن نربط نهضتنا الثقافية والإجتماعية بالتراث).

والتراث.. لغة.. دين.. هوية.. إنتماء. بعد كل ذلك هل يُقبل من إنسان أن يقطع كل ما يربطه بأبيه وأمه؟.

إن التراث أرضية للبنيان الحضارى لمن شاء فى الحاضر أن يبنى مستقبلاً، وبه يتصل ما كان وما هو كائن بما سيكون. غير أنه توجد شريحة من المثقفين فى الوطن العربى يتحاملون على التراث فلكى نتقدم- كما يزعمون- علينا أن نتخلص منه. كأنه المسئول عن سبب ما حاق بأمتنا من انحدار:

« وكان الكثيرون فى المقابل، يرون فى التخلى عن التراث والتنكر له، والاقتداء بالآخر الأجنبى ضمن هذه المفاهيم المغلوطة، تحت اسم المعاصرة والحداثة والتقدم العلمى والتقنى، نمطاً من أنماط الإنتحار الجانى، وأن الأمم ونحن فى الطليعة منها، إنما بالتراث تمتلك وجودها الشمولى الذى يصنعه

تاريها المعرفى [١] » .

إذا سلمنا بذلك فإننا سنكون قد انحزنا إلى الجانب الأخلاقى فى الحياة بعد أن نكون قد أدركنا أن فى جانب من الحياة عقل، وعلى الجانب الآخر حياة بلا عقل، وأن الإنسان هو صاحب العقل الذى لا يحد بين مخلوقات الله التى لا عقل لها فتعالج أوضاعها بالغريزة، وتعيش حسبما تمليه الطبيعة :

« فجميع الحياة إذا هى من هذا الجنس، والذئب لا يزال مفترساً من أصله وجميع الذئاب لها هذه الطبيعة عينها، والخروف الذى لا يزال يفترسه الذئب هو وديع وجميع الخراف هى هكذا طبعاً، والحمامة تخلو من الغدر والأذى، وكذلك هى طبيعة الحمام كافة، وأما الإنسان فليس هو هكذا فواحد من أفراده ذئب مفترس وآخر يصير فريسة كالخروف [٢] » .

على الإنسان إذن أن يمارس مسؤولياته إزاء واقعة، استجابة للرغبة الصادقة فى طلب صفاء القلب، ومناهضة الأعمال الشريرة والتزود بما قال الإمام على بن أبى طالب صاحب الوصية والعلوم المكنوزة لتلميذه (كميل بن زياد) قبل عام ٨٣ هـ:

« يا كميل بن زياد، القلوب أوعية، فخيرها أوعاها– للعلم احفظ ما أقول لك : الناس ثلاثة : عالم ربانى– ومتعلم على سبيل نجاة– وهمج رعاع أتباع كل ناعق– يميلون مع كل ريح، ما لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق » .

---

(١) د. نجاح العطار (التراث ذاكرة المستقبل) مجلة العربى الكويت. ربيع الآخر ١٤٢٨هـ .

(٢) القديس مقاريوس «الكبير» . . العظات كنيسة مارجرجس اسبورتنج ١٩٧٦ ص ٧٤.

ثم يستطرد قائلاً:

«لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، لكى لا تبطل حجج الله وبيناته، أولئك هم الأقلون عددهم الأعظمون عند الله قدراً، بهم يحفظ الله حججه، حتى يؤدوها إلى تظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم».

إذا وصل الأعظمون عند الله إلى هذا القدر فإنهم بذلك يصنعون للبشرية ميلاداً جديداً، ثم علماً وتراثاً، يزدهر بصنوف من مختلف الأفكار.

إن الثراء الذى حظى به تراثنا الإسلامى يعود سبب نهضته إلى قيامه على التعددية والإتكاء على الأخذ بنواصى الغايات النبيلة فى المعرفة لرفع مستوى الحياة، وزيادة سعادة الناس بنشر أسس العدل والرحمة بينهم، وهى أمور لا ينبغى انتظارها إعتماداً على الحظ، باعتباره شأن يختمر فى الزمان، بل كان على الجميع أن يمارسوا نشاطهم اليومى للحصول على بغيتهم بشرف، وكفاح، وتضحية.

ونحن حين نعالج قضية التراث والمجتمع يصبح الأمر غير قاصرعلى الأفكار والمُثل الفاضلة بقدر ما هو متصل بحاضر المدن.. تماماً. مثلما تسقط مدينة فتقوم مدينة جديدة على أنقاضها.

ولكم دالت مدن كثيرة ذات تراث، وقامت مدن كثيرة فى التاريخ كمنارة للإشعاع الفكرى والحضارى.

لدينا – كمثال– مدينة الأسكندرية حيث ظهرت فى أثوابها البديعة وبصفتها رمزاً للتعددية القائمة – آنذاك– على اختلاف الجنس.. اللون.. اللغة، واستمر هذا التعايش قائماً على الرغم من التنوع الثقافى واللغوى وما تخلفه هذه الأجناس المتباينة بألوانها الفريدة.

حدث ذلك دون أن يفكر أحد من أعضاء هذه الجماعة فيما سيجلبه التعدد فى مرحلة لاحقة، وما ينميه فى النفوس كثافة ألوان النسيج الإجتماعى غير المتجانس، وما يرسّبُ فى وعى ولا وعى المدينة أشكالاً من الكتل الطائفية التى تسبك تاريخها وثقافتها فى لغة تظل تروج بأنها الوحيدة صاحبة الريادة والتفرد فى شتى مناحى الحياة:

« وربما ينظر البعض إلى التعدد فى الأجناس الذى عاشته الإسكندرية على أنه ثراء.. وهذا صحيح، ولكنه أيضاً مرحلة تعبئة لتناقضات فالتاريخ وهو يصنع الطبقات والأجناس بجانب بعضها البعض لم يكن واعياً، أوطيباً، أو إنسانياً للدرجة التى يلغى فيها الإختلاف والتباين (٣)».

رغم ذلك فلا شئ مما يجرى على سطح الأرض- بكل ما يعج فيها من اختلاف- يمكنه الحيلولة دون إرادة التقدم، والمؤكد أن المسلمين مع التقدم المؤثر فى نفى التنافر بسبب العرق.. الدين.. اللون، والمصريون على وجه الخصوص يعيشون فى وطن فيه ديانتان متجاوبتان، متحابتان.

هناك لا تزال الحياة عامرة بنبض لا يستنفد، ولا يلزم لتبرير هذا الإمتياز قوة عبقرية مميزة، إنما يمكن إدراك ذلك بوضوح فى صورة عناق روحى جمع بين عنصرى الأمة، وبين وحدة الهلال أوالصليب، لسبب جد بسيط، هو أن التقدم الإنسانى لا يمكن أن ينهض على كتف واحدة، وحسبنا أنه ليس فى هذا الوطن مثل ما بين مسلمين الهند والهندوس.

---

(٣) أشرف عويس: علاء خالد (الكتابة راوية جديدة لرؤية الحياة) مجلة الثافة الجديدة، يناير ٢٠٠٨ ص ٧.

وتأسيساً على ذلك، لا ينبغى إيقاف عجلة ركب التقدم عند نقطة بات النظر فيها مضيعة للوقت.. إن النظر فى مشكلة «قبول الآخر» قد إلتف حول طاولاتها شيوخ، وقساوسة، ومفكرون، وجميعهم خرجوا بنتيجة مفادها: لا يمكن إقصاء «الآخر» عن قلب الحدث اليومى، أو عن قاعدته وملته، و إذا حدث غير ذلك فإن مشهد الطبيعة بجلاله سينقلب إلى واقع كفيف فى حاجة دائماً لمن يأخذ بيده.

وإذا كان هناك فى بعض الأوقات بألونات من الغضب تنطلق فى سمائنا من قبل فئة ضدفئة فسرعان ما ينقشع الغمام وينفثأ ما فى جعبتها، ولا يبقى سوى التآلف سيد الجميع.

وما دامت الصلة ترتبط بوشيجة حسن الجوار والمحبة وبعيداً عن التشاؤم، ومن يعتقدون بأنهم واقعيون لأن عيونهم ظلت متصلبة على أزمة الخلاف والغضب، فلا مجال للخلاف، أو إنكار ما هو مطروح على مستوى السلطة الحاكمة، فى سعيها الدائم لدعم أسلوب عدم التفاضل بين المسلم والمسيحى، كما أن السلطة لم تؤثر أحدهما على الآخر، وإذا وقع فى مرحلة ما ظلم فإن الجميع كانوا يشتركون فى تجرع كؤوسه:

«وقد خضع المسلمون والأقباط معاً لنفس نظام الحكم ثلاثى العناصر: (الوالى والأجاقاوات والمماليك) الذى كان أهم عنصر فيه هو عنصر المال الأمر الذى جعل البلاد فريسة لثلاث جهات ضريبية بدلاً من واحدة، ولم تعر الإدارة إهتماماً كبيراً للاعتبار الدينى فيما يتعلق بالأمور المالية، وفى هذا المقام، فإنه لم يكن هناك تمييز بين المسلمين والأقباط، كلاهما كان متساوياً (٤)».

(٤) تترفيتان لودروف باختين (المبدأ الحوارى) الهيئة العامة لقصورالثقافة ١٩٩٦ ص ٢٠٦.

لكن الذى حدث – لكى لا ننسى– أن الإسلام السياسى الذى تبنى أنشطته معاوية بن أبى سفيان استهدفت تغيير الوجهة الإسلامية الأخلاقية من أجل الحصول على منافع الدنيا ثم جاء من بعده ملوك المسلمين لا لكى يفرضوا الجزية على الذميين وأهل الكتاب وإنما فرضوها على المسلمين فى بلاد الفتوحات الجديدة للإنفاق على شهواتهم، وجمعوا أموال الزكاة، والتبرعات الجبرية للصرف على كبار رجال الدولة.

ثم جاء من بعد الدولة الأموية فئات نخبوية اهتمت بأن يقوم المجتمع على قناعات جمعوية فى وسط الرأى العام المعنى بضرورة تسيس الدين.

لذلك كان اهتمام المسلمين بتراثهم بالغ التأثير والاحترام، و يشهد التاريخ لهم بأنهم «لم يحرقوا كتب الماضى»، ولم يحرفوا كلام الله وآياته، على حين كان المسيحيون فى أوربا يضربون عرض الحائط بكل شئ:

«بعد أن اتضح أنه من الأنفع الخلاص من الكتب الضارة التى تشوه الحقيقة فحسب، أو تحتوى على تكرار ممل لنفس الشئ، وتبين أن دولاباً صغيراً واحداً فى المكتبة العامة فيه الكفاية لاحتواء الكتب القديمة التى سمح لها بالإفلات من ألسنة النيران (٥)».

لا يوجد أى باحث يمكنه الإدعاء بأن المسلمين ارتكبوا مثل هذه التصرفات ولم تقع حادثة فى التاريخ تنسب إلى الإسلام بأنه إضطهد ذمياً أو كتابياً، بل أنه كان أول من دعا إلى الكف عن حيازة العبيد، وتحرير الرقيق من نير العبودية، ولقد طالب الرسول ﷺ بفك الرقاب وجعله أفضل القربات

(٥) ج. ب. بيورى (فكرة التقدم؟ ترجمة د. أحمد حمدى محمود، مراجعة أحمد خاكى، المجلس الأعلى للثقافة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ص ١٧٢.

إلى الله، وجعل العتق كفارة الفرائض التى يقصر المسلم فى أدائها، و أجاز للعبد أن يشترى حريته بأجر خدمته.

على درب رسول الله ﷺ اقتفى الخلفاء الراشدين خطواته، ففى المغرب العربى كان الخليفة «يعقوب المنصورى الموحَدى» لا يفرق بين مسلم ومسيحى، وقد أطلق سراح من كانوا تحت يده من أسرى موقعة – الأرك– الشهيرة فى الأندلس، وكانوا أكثر من عشرين ألف مقاتل، وكان السلطان محمد الفاتح آخر خلفاء المسلمين حريصاً على تطبيق العدالة والمساواة:

«ولكى يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والتطواف، فى أنحاء الدولة، ويمنحهم مرسوماً مكتوباً يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة فى التنقيب والتحرى والاستقصاء لكى يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجرى ميزان العدل بين الناس فى المحاكم وقد أعطى هؤلاء المبعوثون الحرية الكاملة فى النقد وتسجيل ما يرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان (٦)».

وبعيداً عن التزيد والانتقائية فإن الواقع ذاته يلفت انتباه الجميع مؤكداً أن مسيرة العلاقة بين المسلمين والنصارى– منذ دخول الإسلام مصر– أصبحت النمط الوطنى الذى لا يحاكية أى مجتمع آخر.

وواقع الحال يؤكد، فى مصر «دينان»، «وشعب واحد»، ولا مكان للمقارنة بين أفضل منجزات المسلمين والمسيحيين فى الأخلاقيات والسياسة، وجميعها تثبت إحراز الجنس الإنسانى تقدماً محسوساً، إن كان

---

(٦) على محمد الصَلابى (الدولة العثمانية.. عوامل النهوض وأسباب السقوط) مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط أولى، ص ١٣٨ و ١٣٩.

يعترى ذلك – بين وقت وآخر– بعض المعوقات من قبل من ليس لهم مصلحة فى السلم الإجتماعى بين أبناء الوطن الواحد .

لكن فضائل الدين الإسلامى تظل تسعى فى استنبات فسائل الخير وترقيق المشاعر، ودائماً يتحفنا التراث بصفحات مضيئة تشهد بأن الإسلام يصحح أغلاط النفوس حين تنحرف نحو التدهور .

حدث ذلك بالفعل بعد أن اعتنق المغول الإسلام، وهم قوم كان تدمير الشعوب وتخريب الأوطان على أيديهم يتسم بالوحشية فأصبحوا أناساً على قدر عظيم من رقة الحاشية والسعى لبلوغ الكمال الإنسانى، ويشهد على ذلك دولتهم التى أقيمت فى الهند :

« لقد سار المغول على غرار المسلمين الآخرين، فأداموا حضارة هؤلاء، محبين للآداب والعلوم والفنون، حباً جماً، فرحبوا بالعلماء والشعراء ورجال الفن– مهما كان جنسهم– ولا تزال المبانى التى شادوها فلم يصنع الغرب أروع منها تثير العجب، ولم تكن العلوم دون الفنون حظوة فى دولتهم، فأنشأوا المدارس، وأقاموا المراصد ولم يبد ملوك المغول حماة للآداب والعلوم وحدها، بل ترى الكثيرين منهم قد حذقوها أيضاً [٧] » .

ولماذا نذهب إلى أقاصى بلاد آسيا ونحن على مقربة من ذلك المزج الرائع بين الحضارة الأوربية والعربية والإسلامية الذى جعل من إسبانيا أرضا خصبة للثقافة والفنون طوال سبعة قرون وما مرت به من أحداث مؤثرة :

« فقد حكمها الفينيقيون ونقلوا ما لديهم من علم وفن . . ثم الرومان

---

(٧) جوستاف لوبون (حضارة الهند) ترجمة عادل زعيتر .

وحضارتهم الزاهرة، من أدب وفنون مختلفة، آثارها باقية فى العالم حتى الآن، ثم تلك السنوات الذهبية التى جاء فيها المسلمون على مدى سبعة قرون، يحملون مزيجاً من الحضارات الإسلامية وبعضاً من بقايا الحضارة العراقية القديمة والمصرية القديمة «الفرعونية» والإفريقية فأثرى ذلك الحياة الثقافية والفنية وامتزج الجديد بما سبقه [٨]».

هناك إذن غاية دائبة الصعود والارتفاع شيئاً فشيئاً، وهناك المحاولات المستمرة الناجحة لجذب الاهتمام بقضايا حقوق الإنسان إلى درجة تشجع بعض المفكرين والكتاب لفتح نافذة يرجون من خلالها ويشيعون أن يعتبر الناس أنفسهم أسعد من القدامى، وإن بدا آخرون يشككون فى ذلك الأمر، ويعتبرون أن سعادة الفرد تحتاج إلى قدر من التوافق بين ملكاته وبيئته، ولا وجود لأى سبيل لاكتشاف موقف المجتمع فى هذا المقام، لا بالرهان، ولا بالتجربة المباشرة.

إذن، لن يألوا الدعاة جهداً فى سبيل تبليغ الدعوة استجابة لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [٩].

وكان سلاطين العثمانيين يرون أن أمة الإسلام تحتاج لكى تقوم بمهمتها فى هداية الناس للخير أن تكون صالحة فى نفسها، مصلحة لغيرها فهى الشهيدة على الأمم لأنها أمة الوسط:

---

(٨) جريدة (مسرحنا) نوفمبر ٢٠٠٧ ص ٢٧
(٩) المائدة: ٦٧

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(١٠).

ولكى ينعم الناس بسعادة الدارين، راعت الخلافة العثمانية أهميته:

– أن يعمل الولاة على حماية الأمة من المفسدين.

– إعداد الأمة إعداداً جهادياً.

– إعطاء حقوق الرعية وما يستحقونه فى بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

● **حفظ ما وضعت الشريعة لأجله.**

بيد أن مصر الآن ليست فى تركيا «الخلافة».. ثمة حقيقة أخرى لا يمكن التغاضى عنها. إن «فيها دينان» و«شعب واحد» وأن لكل من هؤلاء مصلحة فى هذا الوطن، وكانت العتبة التى تجاوزوها معاً: «الموجود» إلى «ما ينبغى أن يكون».

ولعلنا نرى فى هذا الكم الهائل من الوجود «الميتافيزيقى» والفيزيقى» المشترك ما يدعم اللحمة بين المواطنين على أرض واحدة، الأمر الذى لا يجيز لأحد أن يسرح به الفكر إلى المطالبة بالتشطير، أو تهميش طرف منهما على حسب طرف آخر.

لكى نكون أكثر تحديداً، فلا علينا سوى الاعتراف بأن الكفاح ضد هذه النعرات وغيرها لا يستهدف سوى المتربصين بمصر:

«كان هناك نضال مشترك فى هذا الاتجاه، وصحيح أن التاريخ يطالعنا

(١٠) البقرة: ١٤٣

بأن هناك عثرات واجهتها الجماعة الوطنية فيما يتعلق بالعلاقة بين مكوناتها بسبب تواترات لها أسبابها وظروفها فى مراحل تاريخية مختلفة، إلا أن ذلك لم يمنع أن تقوم الحياة المشتركة مرة بعد أخرى، متى تعثرت الجماعة فى مسيرتها، مما جعل من التعثر خبرة للجماعة المصرية تدفع بها للأمام فى طريقة مسيرة المواطنة، كذلك يطالعنا التاريخ بأن كل ذرة توتر تعقبها إنفراجة فى إتجاه التماسك والاندماج (١١)».

يضاف إلى ذلك عوامل التجذر والمشترك الذى يربط فى الوقت نفسه بين الجميع.. قضايا العدل.. الحرية. إنها العبء الاجتماعى الذى يقع على كواهل «الآخر»، بغض النظر عن كونه مسلماً أو مسيحياً.

من هنا لم تعد للعزلة التى كانت الكنيسة فرضتها على شعبها بغرض عدم المشاركة الجدية أى معنى، سوى ترك الحبل على الغارب، وإفساح الساحة للعابثين من هنا وهناك بقضايا الوطن.

قد يكون للكنيسة المصرية رأى فى عدم اشتغال رعاياها فى السياسة والانكباب على الصوم والصلاة من أجل مجد الله، فلماذا يخافون من الإنغماس فى تلك الحياة الدنيا، وهناك فى الغرب أحزاب مسيحية.. فى ألمانيا.. فى روما مقر البابوية يوجد حزب سياسى مسيحى كبير، تناوب أكثر من مرة السلطة مع أحزاب أخرى.

نحن الآن أمام تيار إسلامى جديد يحاول إعادة إنتاج ذاته، والمهم هنا

---

(١١) سمير مرقس (الآخر. الحوار.. المواطنة) سلسلة العلوم الاجتماعية- مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م، ص ٥١.

رصد عملية إعادة الإنتاج التى ستلازم التيار المعتدل، وهو يقترب من طبيعة الإسلام الإيجابية وفى مسعاه الحضارى المؤسس على قواعد تحترم خصوصية الآخر، وهويته، وكافة المبادئ التى أخذ بها الإسلام ونشرها منذ ما بعد عصر الفتوحات، والإنتصار على إمبراطورتى الفرس والروم.

وحين نستعيد بيان الجماعة الإسلامية نراه يعكس وضعاً جديداً، فى مستقبل العلاقات الإجتماعية، وتفعيل قضايا الوطن، لعل «الآخر» يصحح من مسار بوصلته، ويصبح لديه قناعة بأن «الجماعة» لم يعد من شأنها «الصدام بين أبناء الوطن الواحد».

لكنها تستثنى من ذلك عمليات التصدى لموجات التغريب ومحاولات محو الهوية الإسلامية والصبغة العربية الشرقية من مجتمعاتنا ولأجل إنقاذ البلاد من الإنحلال والمجون.

وستظل الجماعة الإسلامية مستمسكة بهذا الخيار طالما كان هناك من يُصدِّرون هذه الجرائم من الخارج لمستوردين يعملون- لمصلحتهم- على نشر هذا الفساد فى داخل البلاد.

ومن هنا فإن الأمل فى إختفاء العنف ليس وقفاً على الجماعة الإسلامية لكنه يُفرض عليها فى مواجهة المشاريع الأمريكية، والإسرائيلية، والأورو شرق أوسطية، فهؤلاء يهيمنون على البحار المحيطة بالمنطقة، ويفرضون بالترغيب والترهيب، والوعيد سطوتهم على معظم الحكومات العربية والإسلامية.

قد لا تنسينا هذه الأوضاع الموقف الجدلى الجديد للجماعة الإسلامية، إذ لا يوجد اليوم بينها وبين مبدأ الديالكتيك أى تنافر، ولا عجب فى ذلك الأمر خاصة إذا كان «فوكومايا» ذلك النبت الذى ترعرع فى حقل سياسى

وسط حركة إقتصادية رأسمالية واسعة، قد عاد بعد أن وضع كتابه « نهاية التاريخ » إلى كارل ماركس » أكثر مما عاد إلى «آدم سميث » صاحب النظرية الرأسمالية الشهيرة: « دعه يعمل .. دعه يمر »، ولا مدعاة للدهشة إذا راجعت الجماعة الإسلامية مختلف الهياكل الحزبية والأدبيات الكلاسيكية والإقتصادية، وسبل تطبيقها بدءاً:

« من سان سيمون وفكرته عن الحكومة الصناعية التى ستحل محل الحكومة السياسية، إلى فورييه، ولوى بلان، وبرودون، الذى أعلن أن الملكية سرقة، وردوبرس، ولا سال الألمانيين اللذين قد ما فكرة الدولة التى تتولى الرعاية الإجتماعية، وبابيف مؤسس جماعة « العدول » الذى انتقد الثورة الفرنسية، وتنبأ بثورة « اجتماعية » تستهدف العدالة. وقد ذكرنا هؤلاء على سبيل المثال إلا أنهم أكثر من ذلك، وكل واحد منهم قدم إضافة وإبداعاً جديداً (١٢) ».

وبعيداً عن التجريد والنظريات التى طبقت فى دول ثم ثبت فشلها. ينجلى موقف الجماعة الإسلامية ويتبلور فى شكل قد يبعث على الإطمئنان لدى النصارى المصريين:

« ومن الخطأ أن يظن أن ذلك لا يدخل فى دور الدارس المصرى أو المفكر الإسلامى، على العكس إنه لازم، فضلاً عن أنه سيدعم على نقيض ما يظن الناس التوجه الإسلامى للحزب (١٣) ».

---

(١٢) جمال البنا (الحزب الديموقراطى الإسلامى هو الحل) جريدة المصرى اليوم، الأربعاء ٢٠٠٨/١٢/٣١.

(١٣) المصدر السابق.

ومن شأن هذا الحدث أن تتداعى أمامه جدران العزلة لدى الطرفين الإسلامى والمسيحى، وهو فى حد ذاته يغرى بإنتعاش الذاكرة، ويعدها لإستقبال ما سيضيفه التنوع والتعددية الحزبية على التجربة الديموقراطية المصرية، فى بلد يوجد فيها « دينان » و« شعب واحد ».

لكن ما تكاد الجماعات الإسلامية تفرغ من معالجة قلق النصارى، إذ بالسلطة التى تضع القرآن الكريم على رأس دستورها تشن ضدها الحملات فى شتى المجالات الحياتية والدينية والإجتماعية والإقتصادية، وبأدوات قمعية لا تُستعمل ضد أى قوى أخرى معارضة.

ربما تُستعمل هذه الأدوات فى وحشية ليقينها أن الإخوان المسلمين يشكلون قوة جماهيرية ناشطة.. فاعلة ومؤثرة، ولها قواعد وفروع وشُعب فى شتى أرجاء البلاد.

لهذه الأسباب، هى تفضل أن تتخلص منهم حتى تنعم فى شمولية بالإسترخاء على مقاعد الحكم، ولذا، لم تعد قضيتها مطاردة الشيوعيين والناصريين وغيرهم بعد أن بات هؤلاء لا يمثلون خطراً عليها:

« ولا يخشى النظام من انتشار الفكرة العلمانية لأنها تخدم مصالحه، وتخدم مشروعه، ولا تمثل تهديداً له، وهنا يظهر أن الفكرة الإسلامية الوسيطة تمثل خطراً على النظام، لأنها تدينه، وربما تفقده شرعيته (١٤) ».

هل يعنى ذلك أننا نعود إلى « البيات الشتوى » لتُمتص حياتنا هياكل الأنظمة الرثة، ثم إلى حيث نبدأ مرة أخرى مع مواجهة مايفرزه المجتمع للتأكد- فى عبثية- من نفعه أو عدم صحته، عبر أزمنة فقدت إنسانيتها،

(١٤) د. وفيق حبيب (المواجهة مع الإخوان أم الفكرة؟) جريدة الدستور ١ / مارس ٢٠٠٨ ص ٦.

بمعالجة السلطة أوضاع الحريات الإجتماعية، وهى مدججة بالسلاح؟.

فما هو موقف الكنيسة المصرية مما يجرى الآن فى عرض البلاد وطولها؟.

تعتبر الكنيسة المصرية مؤسسة دينية، لها أهداف اجتماعية وهى جزء من الشعب المصرى، ولا شك أن النصارى مؤثرون فى مختلف الأحوال، سلباً أو إيجاباً، سواء فى المشاركة أو فى العزلة، وفى كل الأحوال لا يرغبون فى تغيير هيكل الحكم، لأنهم كما يقول الباب شنودة: «جزء سلبى زى الشعب المصرى تماماً. فإذا وجدوا نظام الحكم يتعالى عليهم «أقباط ومسلمين» وكابس على نفسهم فلن يعيروه اهتماماً، وبالتالى يسقط نظام الحكم، والأقباط بطبيعتهم يؤثرون السلامة وطالما أن نظام الحكم لا يضطهدهم فهذا خير وبركة أما إذا إضطهدهم فإنهم يضطهدونه بطرق سلبية كثيرة».

ومن الطرق السلبية ذكر البابا: «الإمتناع عن المشاركة».

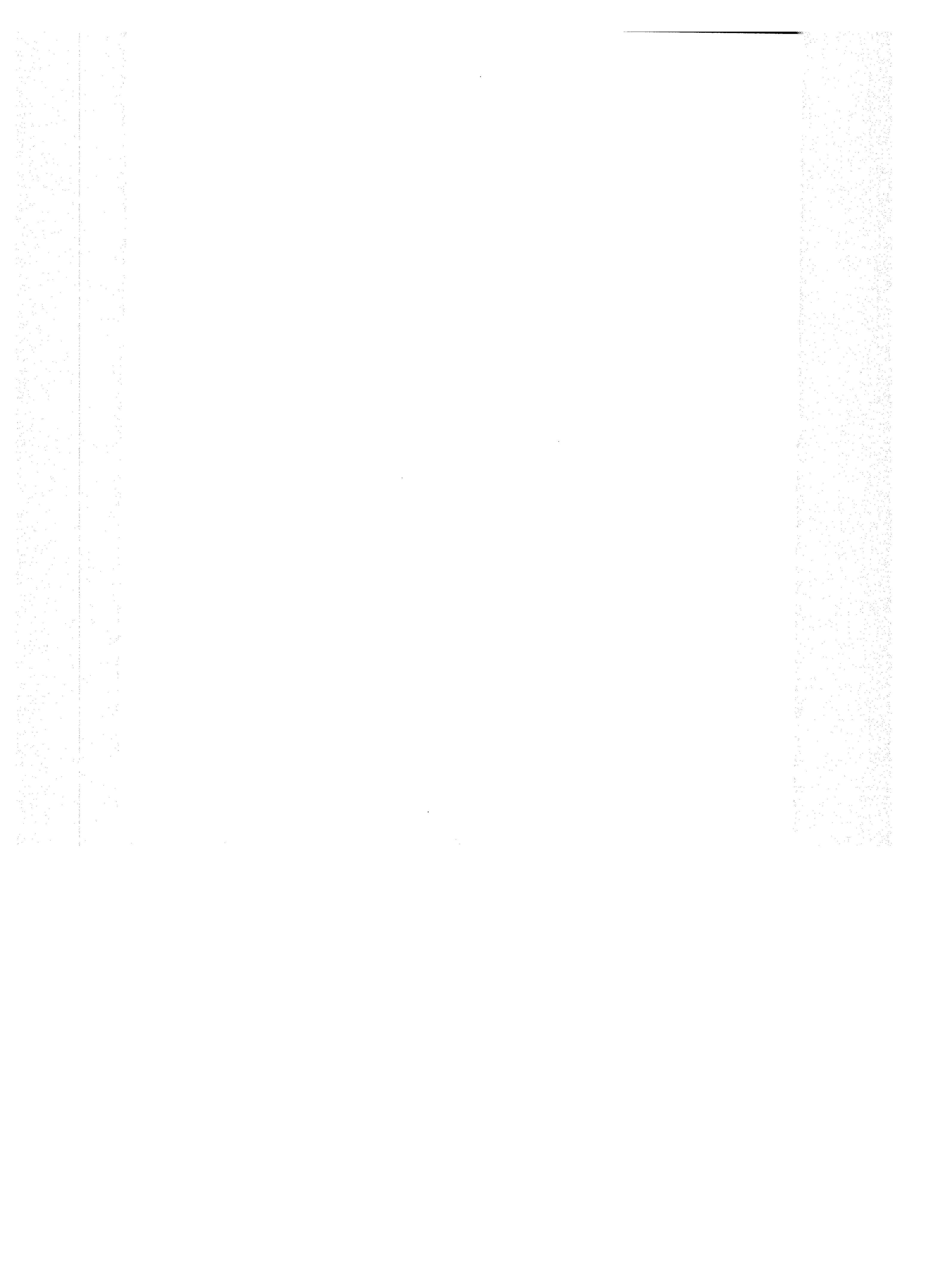
ثم يستطرد:

«على نظام الحكم والرئيس مبارك الآن أن يشغلا ذهنيهما فى تأهيل نظام الحكم الحالى بأن يكون الحاكم القادم مدنياً وألا يكون عسكرياً. ويحسن ألا يكون كبير السن وأعتقد أنها مسائل سياسية أطرحها من واجبى كمفكر مصرى وليس لى إلا مصلحة الوطن. كما أن صغر سن الحاكم يمنحه فرصة أن يكون لدية رؤية يسعى لتنفيذها وليس فى وضع من يوقع الأوراق مثل النظام الحالى (١٥)».

ويرى العالمون ببواطن الأمور أن هذا الكلام يثلج قلب السيد الرئيس ويمنح الإبن الثقة على طريق التقدم!

(١٥) محمد على خير (الكنيسة موجودة فى اختيار الرئيس القادم بشكل غير ظاهر) حوار مع البابا شنودة، جريدة الدستور ٨ مايو ٢٠٠٨.


«وطنيات» كثيرة
فى «وطن» واحد



« وطنيات » كثيرة فى « وطن » واحد

تلفت التحاليل العلمية الانتباه إلى ما للروابط القومية المصرية.. الفرعونية.. القبطية.. الإسلامية من آثار سلبية حين تُستعمل ضد فعاليات القوى صاحبة المصلحة فى مناهضة التبعية الإقتصادية، والسياسية لمعظم أقطار الوطن العربى.

تضيف إلينا هذه البحوث حزمة من المعارف، تمكننا من الإطلاع على ما تصنعه تلك الفوارق الطبقية من فواجع لا تمت للإنسانية بين أبناء الوطن الواحد، مع إضطراد ونمو حركة النضال الشعبى الذى يجتمع على عداء للنظام الإجتماعى القائم على محاباة الإستعمار فى مختلف أشكاله العسكرية والإقتصادية؛ والتصدى بحزم للقوى المحلية التى تروج للنمط الغربى الإستعمارى، بالإتفاق مع مرجعيات الصهيونية العالمية فى المنطقة والرجعية العربية.

يعود الفضل للخبرات الحياتية التى عبَّدت للإنسان طرائق التعرف على جذور هذه الروابط وصلة بعضها ببعض فنستيقن أنها حركات نشأت على مفاهيم ونزعات شوفينية، عنصرية، إنعزالية، تستهدف بطرق فكرية، سلفية، مستحدثة – إذا جاز التعبير– وجميعها– باسم التقدم– تروم الإنسلاخ الذى لا يبغى الإنصهار مع مختلف العناصر الوطنية وفق منهج علمى.

ويلاحظ على من تبنوا الدعوة لإشاعة هذه النزعات أنهم كانوا يدَّعُون « الثورية » وذلك بالإنقلاب على الواقع، دون مراعاة حقوق عناصر قوى المجتمع الأخرى، ودون استبصار بأهمية التلاحم العضوى والمصيرى، وما يمكن أن تصنعه التحولات الجماهيرية حين يقيض لها أن تتولى مسئوليتها

تجاه الوطن بما تحمله من آفاق التطور المشترك القائم على أركان التراث الفكرى العربى / الإسلامى.

إن كل « ذات » لا تستطيع- مهما إدعت « الثورية »- أن تستخرج من الذهن المعانى المثالية حتى تتجسد فى « الصورة » كحقيقة، لسبب بسيط. إن الحقيقة ليست ذاتية. إنها موضوعية، وإن تحقيقها منوط بوحدة التناغم الجمعى، فى زمن كان المجتمع المصرى يشغى بشتى الأفكار، والأديولوچيات، من ماركسية.. دينية.. قومية.. فرعونية.. قبطية، وهى فى معظمها دعوة لإلغاء التعامل مع التراث، ولقد تجلى هذا الأمر فى مواقف « عبد العزيز فهمى » و « أحمد لطفى السيد » و« طه حسين » و« سلامة موسى » و« لويس عوض » فغالبية من ذكرت كانوا لا يؤسسون فى فراغ، وإنما أنفقوا جل حياتهم فى محاولة استرجاع مدن أصبح معظمها أطلالاً وأثراً بعد عين، وفيهم من كانوا مندفعين بنزعة القومية المصرية، وظل هذا الجناح الكولونيالى يروج لثقافته بقصد الإستحواذ على أذهان « ألانيتجلنسيا » أملاً فى عودة « نوع من التراث » بعقلية انحصرت رؤيتها فى إطار ضيق بعيداً عن الوعى الموسوعى، ومن حيث لا يدرون، أو ربما يعون أنهم بذلك يُرسّخون الأقدام فى محيط التبعية للفكر الغربى تحت مزاعم الثورة على الواقع.

لقد ظهرت هذه النزعات وهى ترتدى قمصان التمرد والثورية، لتعبر عن تصورات فردية لشريحة إجتماعية محدودة النشاط ولا رابط يصل بينها وبين الواقع، ولم تكن هذه الشرائح بثقافتها وانتمائها الطبقى مستعدة للإضطلاع بمهام ثورية النضال الجماهيرى وتراثه:

« بمعنى أنه من غير الطبيعى- إن لم نقل من غير الممكن- أن نكون

ثوريين فى موقفنا من قضايا الحاضر، ونكون– مع ذلك– غير ثوريين من تراث الماضى، الثورية موقف شمولى، كلى، لا يتجزأ. أن التجزء، هنا، هدم للموقف كله يكشف أن «الثورية» المدعاة طفيلية على الحقل الذى تزعم انتماءها إليه (١)».

لقد بذلوا – بلا استثناء – كل الجهد لإحلال المناهج الفكرية، وثقافة الحضارات التى دالت، سواء كانت فرعونية، قبطية، إسلامية، ولا ندرى كيف غاب عن فطنتهم أن الماضى لا يعود بقضه وقضيضه، وأن ثورية الموقف من قضايا الحاضر، تستلزم الإنطلاق من هذا الموقف نفسه لرؤية التراث (لمعرفته معرفة ثورية، أى لبناء هذه المعرفة على أساس من أديولوچية القوى الثورية نفسها فى الحاضر).

ومن تخالف وتناقض مواقف القوى الفكرية على أرض مصر صار تأبيد بؤر الإختلافات أمراً سالباً لذخيرة وطنية، انتهت إلى تعبير يتصف بالانقسام والتشرذم، وتجلى ذلك بوضوح حين ظهر أن لكل فريق «تراثه» ولغة منحوتة من صخور «الذات» تُجسد أشكالاً وظلالاً غير متجانسة ولامتآلفة، لأن البواعث الذاتية الضيقة لا تحتمل منهج البحث الموسوعى فكان من الطبيعى أن تتباين وجهات النظر، وأن يسيطر على حلبة السباق اختلاف الأهداف فجاءت تعبيراً عن المصالح التى تختص بها رموز هذه الطبقة، أو الفئة الإجتماعية، ولم يتحقق لها من أفكارها سوى التحليق فى مدارات غير مأهولة.

وإذا اعتبرنا أن نية كل واحد من هؤلاء المفكرين وما أثبتوه فى مخطوطاتهم الفكرية إنما كانوا يقصدون من ورائها تحرير المجتمع من قبضة الملكية ومن الإستعمار وانتشال الشعب من مستنقع الفقر والجهل والمرض،

ولكن ليس بالنوايا الحسنة تتحول المجتمعات، وقد أفضت هذه الأفكار إلى خدمة أعداء الوطن، وإذا كان التاريخ لا يتنازل عن تسجيل الأحداث القبيحة فلا يزال يؤكد: أن معظم الهاربون من الواقع ليسوا أسوياء، ولا على قدر كافٍ من الذاتية الموسوعية.

مع أن البدايات منذ عصر النهضة كانت تبشر بالخير، حين انفتحت مصر على «الآخر» وبعد أن أرسل محمد على باشا البعثات العلمية إلى فرنسا لكى تُبنى مصر على أسس علمية نافعة، وكان الأمل معقوداً على من شقوا عباب البحر، ليعودوا بقبس من نور يبدد ظلام عصور التخلف.

ثم توالت البعثات، وحين عاد الدارسون صار لكل منهم شرعة ونهجاً، قد يتفق البعض مع ما ذهبوا إليه، أو يختلفون، غير أن الشئ الذى لا يختلف إثنان عليه أنهم عادوا كمن يتحركون فى بحيرة من الرمال، ودون أن تكون لهم منظومة علمية توظف كل ما حصلوا عليه لأجل رفعة وخدمة الوطن.

هذا ما جرى على أيدى طه حسين وعثمان أمين وتوفيق الحكيم وسلامة موسى الذى كان متأججاً بالأفكار الثورية، وقد انتهز فرصة وجوده فى لندن ليندمج بكليته فى الحياة الإنجليزية ويصبح عضوا فى الجمعية الفابية وزميلاً للكاتب الأيرلندى برناردشو.

أصبح لكل عضو ممن عادوا ساحة يقاتل فيها إنتصاراً لثقافته، وبدأت أصوات التنافر تعلو نبراتها قبيل مستهل القرن العشرين، وكان لكل صوت مفاهيمه من التحديث والتجديد؛ وهما فى نظرهم غير معنيين سوى بالتخلى عن الموروث الثقافى العربى / الإسلامى، وتحطيم المقدس، وتهميش فضائل الإسلام (لأنها أصبحت معيقة).

عقب عودتهم بدا عليهم كأن عيونهم تنفتح– لأول مرة– على واقع

أصابهم بالنكال والهلع.. كانت المفارقة بالغة القسوة لمن عاشوا فى عالمين متتناقضين.. عالم زاخر بالحرية والتقدم وبذخ العيش، وعالم غارق فى رثاثة الحرمان والتخلف، حتى الحقول التى احتضنت طفولتهم الخضراء، أصبحت مصابة بالذبول والإصفرار فانتهوا إلى أحد موقفين.

« إما الرفض المطلق لما عليه ثقافته ومجتمعه الأصليين، والاستقرار على موقف الرفض، أى يختار هجرة فكرية بدون رجعة أو يقيس بها ما ينبغى أن يصير إليه المجتمع، فيحمل الدعوة إلى التغيير (٢) ».

تحت ظلال هذه الهجرة، سواء كانت هجرة خارجية، أو هجرة داخلية فإنه بمختلف الأشكال، وأياً كان نفياً بكل الوجوه، إرتفعت من خلاله أصوات من كانوا يزعمون أنهم ينشدون الخير لبلادهم، وزعم أحدهم أنه توصل إلى سر تعاسة مصر وأهلها، وأنه وجد الدواء فى التخلص من وعائها العربى الذى يضيق بحجمها الحضارى والتاريخى، ويطلع علينا آخر بقوله أن المصريين ليسوا عرباً، وأن الثقافة العربية عندما غزت مصر واستوطنتها أرادت منذ بدايتها تفريغ المضمون الحضارى من أوعية المصريين.

وللتدليل على صحة ما كانوا يذهبون إليه، قالوا: إن الشعوب العربية وحكوماتها تعامل المصريين الذين يذهبون للعمل على أراضيها على إعتبار أنهم ليسوا عرباً، وياليتهم أجانب من مرتبة الخواجات، لكنهم غرباء من نوع الحثالة.

وكان اهتمام توفيق الحكيم بالغا فى فى تعميق الوجدان القومى. ظهر ذلك فى رواية « عودة الروح »، وقد استمد روحها من « كتاب الموتى »، وهو من الأدب الفرعونى، ومنه أخذ: « انهض يا أوزوريس، أنا ولدك حوريس جئت أعيد إليك الحياة.. لم يزل لك قلبك الحقيقى.. قلبك الماضى.... ».

لكن نبرة الشوفينية علت حدتها حين راح دعاتها يدعون إلى الإرتماء في أحضان الغرب. بينما دعاة الفرعونية ما لبثوا يؤكدون بأن لديهم من الأسباب ما يرجح صحة دعواهم فيضربون لنا مثالاً بتلك العلاقة التى كانت تربط أقباط مصر بعصور الفراعنة، ويبرهنون على صحة ذلك:

« بأن اللغة بيننا وبين عصر الفراعنة لم تنقطع، فهى لا تزال فى الكنائس والسياسة والاجتماع والفنون جميعاً.. فالذين يعتقدون أن درس الفراعنة لا يفيدنا كثيراً لأن الصلة قد انقطعت بيننا وبينهم مخطئون، ولهذا أيضاً لابد أن تفتح أعين الطلبة بقدر ما يمكن لعظمة مصر الفرعونية وفضلها على العالم فى مختلف نواحى المدنية (٣) ».

وتشاء الظروف أن يكون هناك جيل من المثقفين لا يهضم الفرعونية ولا يهتم بالحضارة الإسلامية، وإنما شغل أوقاته فى تنمية ذاته وطموحاته من أجل الحصول على المكاسب عن طريق الإنتماء الحزبى، أو بالتمركز فى صدارة الحلقة الثقافية:

« وهو جيل اتخذ الأدب وسيلة إلى العيش وكسب القوت، ثم إلى كسب الثروة والحظوة عند الكبراء وأصحاب السلطان وعند الأغنياء والموسرين.. والجيل الحديث آثر الحرية والكرامة لكل شئ فلم يتخذ الأدب سبيلاً إلى القوةو الثروة ولا إلى الخطوة وإنما اتخذه سبيلاً إلى لذته القلية ومنفعته الفنية، وإلى إيقاظ الشعور وتنبيه الشعب إلى حقه وواجبه، وترقية الذوق، و إذاعة هذه الحياة العقلية الجديدة فى مصر بوجه عام (٤) ».

لكن من أسف، أن « الجيل الحديث » الذى تبنى طه حسين وجهة نظره لأنه جاء « لترقية الذوق وتنبيه الشعب إلى حقه » كان يأخذ سمته مولياً

ظهره « بالعقلية الجديدة » للشرق داعياً المجتمع بأن يأخذ نقطة البداية، وأن يربط مستقبله بحضارة الأبيض المتوسط، يقابل ذلك اتجاه فى طلب الحياة الفرعونية، وهوعكس اتجاه عميد الأدب العربى :

« حيث تتجلى فترة لقاء تاريخية يراها فذة حين التقى التاريخان المصرى واليونانى فأنتج هذا اللقاء حضارة الأسكندرية المصرية اليونانية، وكان حَرّيا بمصر أن تستأنف مسيرتها الحضارية « العالمية » أثر هذا « اللقاء التاريخى » لولا الفصل الذى أحدثه التدخل التركى الذى حول مصر عن مجالها المتوسطى « الطبيعى » فعمم التقاليد الشرقية، وأرسى نظام الاستبداد (٥) » .

لكن الظاهرة التى انفرد بها أعضاء البعثات الدراسية ومن سافروا إلى أوروبا على نفقتهم الخاصة – مثل سلامة موسى– كانت فى لغة مشتركة تربط بين الجميع، وهى : « الخروج من أجل التقدم »، ثم ثبت على أياديهم أن التقدم له أكثر من عنوان .

قبيل الخروج، يمكن القول أنهم يكادون يجتمعون على الحديث بلغة واحدة، وبعدما عادوا وجرت على ألسنتهم كلمة « وطن » وكان ذلك يعنى أنهم باتوا لا يجتمعون على أمة واحدة بلسان واحد ! !

إندلع الحديث علانية بما أطلقوا عليه : العودة إلى الجذور . كل واحد ممن سبق ذكرهم له جذر ضارب فى أعماق هذه التربة وماضٍ مجيد . رأى أحدهم أن إصلاح البلاد والعباد– على حد تعبير د . لويس عوض– لن يتحقق إلا بالممارسات الجنسية كما شاهد بعينيه فى شوارع وحدائق مدينة لندن، زاعماً أن عدم الإشباع والعجز الذاتى يؤديان إلى القصور الذهنى، وأن الممارسة علاج ناجع ستنقذ الجميع من الآفات التى يخلفها الكبت الجنسى،

وتيسيراً لبلوغ القصد، وتحقيق النجاح. راعى أن يعالج الأمر بلغة عامية حتى تصل أفكاره بسهولة إلى شعب المحروسة ذى الأغلبية الأمية:

« جنسية بتنخر فى عقولنا؛ وبتطفح على الجلد زى الدمامل، شوفوا الكبت عامل فينا إليه.. تشوفوه فى الفشر الجنسى اللى بتسمعه من أصحابك؛ كما أنى أقدر أشوفه فى الكسل الفكرى الملازم لأكثر المتعلمين، والقلق اللى امتلك الناس، وفى التفكير غير المنظم عند أغلب الشباب.. طبقة الأفندية اللى فى مصر دى مش طبقة، دى مجموعة من العقد النفسية اللى ما فيش أمل فيها إلا بتوجيه جنسى جديد أساسة الحرية المعتدلة والإطلاق اللى مبنى على فهم سليم (٦)».

هذا واحد من طلبة البعثات الدراسية لم يركز على التحولات التقنية فى عالم التكنولوچيا والتقدم، وإنما رأى بعينيه تلك الهوامش الإجتماعية، وكأنها عصا موسى السحرية لو ضربها فى صخر حياة المصريين المزرية سوف تُفك عقدهم بالممارسات على قارعة الطريق وأعشاب الحدائق.

ليس معنى ذلك أن شباب البرجوازية القبطية عندما عادوا من أوربا كانوا يدعون إلى إشاعة الرذائل، وإنما كان فيهم من يؤمنوا بأن الشرق صاحب الرسالات الخالدة، وفيهم من حملوا لافتة: «الفرعونية هى الحل»، وتتسم أحاديثهم بالتعظيم والإكبار لذلك الجنس الذى حافظ على نقاء عنصره رغم الغزوات المتعاقبة لمصر، ويجسد هذا الجنس الآن القبط:

« فالقبط إسم لجيل من الناس، لا لدين من الأديان، أو لمذهب من المذاهب، وأهل مصر هم القبط سواء كانوا نصارى أو مسلمين أو يهوداً.. وهذا أيضاً ما أكد عليه مرقس سميكة ١٩٢٦ (فلفظ قبطى معناها مصرى)

ولذلك فجميعهم « أقباط » .. بعضكم أقباط مسلمون، وبالبعض الآخر مسيحيون، وكلكم متناسلون من المصريين القدماء (٧) » .

ارتفعت نبرة من كانوا يدعون للعودة إلى الفرعونية، وكان لطفى السيد يدعو على صدر صحيفة « الجريدة » إلى وطنية شعارها . مصر للمصريين، فى مقالة سافرة ضد وطنية الزعيم مصطفى كامل التى كانت تؤمن بالجامعة الإسلامية، والولاء للدولة العثمانية، وظهر فى ساحة الوطنيات من يدعو إلى رفض الشرق برمته زاعماً أنه يرفض الشرق، بحجة أن مصر – عقلاً وحضارة وتركيباً– جزء من الكيان الحضارى الأوربى .

بالنسبة لوطنية مصطفى كامل الداعية لجامعة إسلامية لم تدع بريطانيا هذ الأمر يمضى فى يسر وسهولة،ولكنها ضاعفت الجهود لتتمكن من إخضاع البلاد لسيطرتها، وحارب اللورود كرومر المندوب السامى فى مصر هذه الحركة وطعنها من جانبين :

الأول : التعصب الإسلامى ليثير أوربا المسيحية .

الثانى : عداوتها للأجانب ليؤلب الدول فى صف انجلترا .

وإيغالاً فى إخراج مصر من إطارها العربى / الإسلامى، روج المغرضون أن الأزهر الشريف هوعبارة عن جامعة أوروبية، أسسها رجل أوروبى يدعى « جوهر الصقلى »، وتسربت إلى أطراف لبلاد أصوات مليئة بالسخط والمقت لكل ما هو شرقى، وفى ذلك من يقول :

« إنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له وشعورى بأنى غريب، وكلما زادت معرفتى بأوروبا زاد حبى لها وتعلقى بها، وزاد شعورى بأنها منى، وأنا منها .. هذا مذهبى الذى أعمل له طول حياتى سراً وجهراً،

فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب (٨)» .

وقبيل بداية الخمسينات من القرن الماضى ظهر جيل العلماء والمفكرين، اهتم البعض منهم بفكرة الأخذ من الغرب، وبروح الانتماء أكدوا أن ما وصل إليه الغرب فى المرحلة الراهنة من تقدم كان نتيجة لتضافر حضارات الشرق الأوسط فى العصور القديمة والوسطى وأوائل العصر الحديث، ولكن ظهر أن المشكلة ليست فى ما نأخذه من الغرب، بل تكمن المشاكل فى إنتقاء ما نفيد منه، وفى نوعية ما نجلبه من الخارج سواء كان على المستوى التقنى والاقتصادى، والفنى :

« وإذا كان المثقفون المنتمون إلى حضارات متعددة يجدون حرجاً فى الأخذ عن حضارة غربية فينبغى أن يخف هذا الحرج إلى حد بعيد عن المنتمين إلى الحضارة العربية وحضارة الشرق الأوسط بوجه عام، إذ أنهم حيث يأخذون اليوم عن الغرب فهم إنما يهتدون من جديد إلى كثير من العناصر التى سبق لبلادهم أن قدمتها وإن تكن موضوعة فى شكل جديد (٩)» .

إن عملية إستعادت (العناصر / القيمية)، والأخذ بعد العطاء السخى من الحضارة العربية يحتاج إلى تضافر الجهود الرسمية حتى تتبلور فى شكل من « الإجتهاد »، وإن كان « الإجتهاد » قضية لا يزال القول مسترسلاً فيها دون حسم :

« وعندنا أنه لا اجتهاد فى « العقيدة » أما فى الشريعة فهو مشروع باعتبار معظمها نتيجة « اجتهادات » رجال أصابوا وأخطأوا، ويحمد لهم القدرة على جعلها مواكبة، وقادرة على مواجهة وحلحة مشكلات عصورهم، ومن ثم يمكن أن نأخذ عنهم فقط منهجهم فى الإجتهاد، وليس حصاد

اجتهاداتهم، لا لشئ إلا لأن مشكلات عصرنالا يمكن أن تواجه إلا باجتهادات معاصرة [10] » .

وإذا كان الناس يستبدلون بين وقت وآخر أفكارهم بأفكار أخرى وفيها ما يصيبون، وفيها ما يخطئون، لذا، فنحن مع « الاجتهاد » الذى لا يضع « العقيدة » على طاولة الجدل لأن واقع الحال يؤكد أن الإسلام لم يصادف أى خطر إلا فى مواقف من يميلون إلى إحالته من دعوة عملية تهدى إلى التوحيد، وتقوى الله إلى نظرية فلسفية، بينما هو شئ آخر، لا يصلح معه أن يكون مثل سائر العقائد المانوية، أو الأرسطية، والأفلاطونية التى تحولت إلى نظريات انفتح فيها باب الجدل، مع المزيد من الاختلاف : « وما اختلفوا إلا بعد أن جاءهم العلم بغياً بينهم » .

والمقصود هنا العلم الطالح الذى لا منفعة فيه للإنسان لأنه يضر بمصالحه وعقيدته :

« وإذا أعمل الفكر عمله فى دعوة هشمها وحطمها وزيفها ووضع الوهن والشك والمُراء فيها فإن العقول مختلفة والأهواء شتى، وإعجاب كل ذى رأى برأيه عادة مرغوب فيها وواعية التعقل والتطرف قضية شيطانية قديمة [11] » .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن عن عباد عن جعفر عن القاسم عن أبى أمامه رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون فى القرآن فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال ﷺ :لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل » ثم قال ﷺ ما ضربوه لك جدلاً بل هم قوم خصمون » . . ابن جرير (٢٥ / ٥٤) .

ويؤكد الواقع أن لدى مصر من يجيدون الجدل، ولديها الكثير من (دعاة

العقل والتطرف) ومن يدعون للأخذ من المدنية الغربية بعد صبغها صبغة عربية، وذلك على اعتبار :

« أن الاثنتين ليستا متخاصمتان بطبيعتهما، وإنما هما متخاصمتان من سوء فهم أبناء الحضارتين، وبالإمكان توثيق العلاقة الودية بينهما واستعانة كل منهما بما عند الأخرى من مزايا، فخير للعالمين العربى والإسلامى اليوم أن يأخذا من المدنية الغربية علمها وتجارتها فى الصناعة والزراعة والطب والهندسة وسائر العلوم الحديثة، ثم يحتفظان بعد ذلك بروحانيتهما التى يلونان بهما العلم، فيجعلانه موجهاً لخير الإنسانية، لا لغو فى كسب مال، ولا لإفراط فى نعيم، ولا للقوة والغلبة، ولكن للخير العام (١٢) » .

والعام فى بلادنا خُطط له منذ فجر التاريخ لكى يؤدى دور المهمش، منذ حوالى سبعة آلاف عام، ولا غرو إذا أصبح لنا جيراناً وأخوه من مختلف الأقطار العربية؛ يشتركون معنا فى لغة خاصة تحاط بجدران عازلة، الأمر الذى دفعهم إلى تجاوز المفاهيم المشتركة، وعدم التمتع من تفعيل واحتواء الأجزاء فى وحدة شاملة فاتسمت خطوات الجميع بالتخبط، ولم يعودوا يعرفون طريق العودة إلى المنبع ولا إلى المصب :

« ولم يرجعوا إلى أن علم الكلام هو فى بنيته الأساسية، فلسفة لاهوتية، تقوم على وحدانية الحقيقة الدينية المتمثلة فى الشريعة، والمرتبطة بالمصدر الإلهى الأوحد، فى حين أن الفكر الفسلفى ينزع إلى نشدان الحقيقة التى يكون منطق العقل البشرى هو طريق الوصول إليها دون المصادر الغيبية (١٣) » .

ما جعلنا نعرج فى هذا المنحى اللاهوتى الفلسفى، هى قضية جيل مصطفى كامل، وقاسم أمين، وأحمد لطفى السيد، وطه حسين، وتوفيق

الحكيم، وسلامة موسى، من أجل «البحث عن النفس».

كان جيلاً يعى ما يفعله أحياناً، ولا يعيه أحياناً أخرى، بينما كان الشعب الذى وصف بالغوغاء والرعاع يخرج على بكرة أبيه منذ ثورة ١٩١٩ مطالباً بالحرية، كاشفاً الصدور أمام بنادق الإنجليز، ليقول للساسة والنخبة المثقفة والمفكرين: يا من تغيبون عنا.. يا من طال نسيانكم لنا. يامن تشيعوننا بالاحتفار فلنحتشد معاً فى صف واحد ليكون الحكم للشعب.

كانت هذه قضية الشعب فى الحكم، وفى الوطن.

فما هى الوطنية؟

يعرف الزعيم مصطفى كامل الوطنية، قائلاً:

سخر أعداؤنا من الوطنية التى ننادى بها وندعو الأمة إليها وقالوا ما شاء لهم الحقد والعداء، ولكننا نرى أن قيمة الأوطان ليست مما تميل النفس إليه ساعة ثم تنفر منه ساعة، ووسيلة للكسب تنقضى بإنقضائه إنما الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهيبه فى القلب ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربته.

أجل أيها السادة، لا حياة لأمة من الأمم بغير الوطنية الحقة، ولا معنى للعيش بدونها، ولا تتجدد الآمال وتقوم الأعمال إلا بها.

بعد هذا التعريف، لم يخف سلامة موسى إعجابه الشديد ببعض الساسة والمفكرين، على الرغم من الحملات التى تعرض لها، غير أنه كان لا يخفى إعجابه بلطفى السيد، وقاسم أمين، وعبد العزيز فهمى، حيث اعتبر هؤلاء الجيل التالى لجيل جمال الدين الأفغانى والشيخ الإمام محمد عبده.

ما وراء هذا السبب يثير العجب حقاً، فقد التقى مع هؤلاء فى جزئية من

قضايا المجتمع التى كان هو شخصياً مهتماً بالإشتغال بها (فهذا الجيل كان أكثر شجاعة لأنه دعى إلى السفور وإلى إلغاء الأعراب فى اللغة وإلى لغة مبسطة تقارب العالمية) .

وعلى الرغم من موقفه الرافض للشرق ثقافة، ولغة، ودين فقد اعتبر نفر من المشتغلين بالثقافة أنه كان مرحلة هامة من مراحل التفكير المصرى، و أنه « كان مقدمة للحياة الجديدة »، ومن أقواله التى أثارت ضده الغضب :

إنه لا يوجد بين أدباء مصر، أديب واحد يستحق أن يحمل التاريخ آثاره إلى الأجيال القادمة، ولم أجد من أدبائنا من يستحق أن يقرأ له أولادنا وأحفادنا بعد عشرة أعوام .

حين سئل العقاد الرأى فيما قاله سلامة موسى، أجاب :

إنى لا أستطيع أن أبدى رأيى فى غير رأى، وما قاله سلامة موسى ليس تعبيراًعن رأى، ولكنه تعبير عن حقد وضغينة وشعور بالفشل والتقهقر، وكل ما يهدف إليه سلامة موسى من حملاته على الأدب العربى هو تشوية للأدب العربى عامة، ورميه بالقصور والجهل والإنحلال، والذنب الأكبر للأدب العربى عند سلامة موسى، هو أن هذا الأدب عربى، وسلامة موسى ليس بعربى .

ثم يضيف توفيق الحكيم إلى ما قاله العقاد فى سلامة موسى، قائلاً :

إن سلامة موسى يتصدى للحكم على قضايا لا يملك أسباب التصدى لها، ويخيل إلى أنه انقطع عن القراءة منذ ربع جيل على الأقل، فإنى كلما قرأت له لمحت أثر تفكير القرن التاسع عشر فى اتجاهات فكره والتفافات ذهنه .

وكأن سلامة موسى كان يجيب على آراء من اتهموه بالحقد (والتصدى للحكم على قضايا لا يملك أسباب التصدى لها)، بقوله :

«كان اللواء جريدة الحزب الوطنى يستهوى النفوس، وكنا نسارع إلى شرائه عقب الانصراف من المدرسة، ولكن الشبان الأقباط كانوا يجدون بعض الأشياء من الدعوة الدينية فى الحزب الوطنى، وكذلك الدعوة العلمانية التركية، وكان منطقهم يقول: إذا كنتم تدعون إلى جامعة إسلامية وإلى تأييد الحكومة العثمانية فى مصر، مع أن الأتراك ليسوا فقط أجانب، بل أن تاريخهم يحفل بالمظالم فى مصر، فإن لنا الحق فى الإتجاه نحو جامعة مسيحية والاعتماد على الاحتلال البريطانى(١٤)».

وإذا كانت عبارات سلامة موسى يشوبها التعصب، وإذا اعتبرنا أنه كان مأزوماً من مشاعر الإضطهاد الذى يلازم أبناء الأقليات فإنه ليس الوحيد الذى لاحقته هذه التهمة، فقد الصقت بالعقاد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل وقيل فى حقهم- وهم مسلمون- أكثر مما قيل فى سلامة موسى المسيحى، إنما جاء شعوره تعبيراً عن تلك المشاعر الدفينة التى تقبع فى أعماق أبناء جلدته على إعتبار أنهم أقلية:

«فقد كانت الأقلية القبطية تعيش فى ظل الحكم العثمانى وحكم المماليك من قبل كجزء من جماعة مضطهدة، فقد كان حكم الأتراك وأتباعهم من حثالة الحكام، قائماً على العسف بالمصريين، جميعاً مسلميهم ومسيحيهم (١٥)».

ولدى الكثيرين من الذرائع والتأويلات ما يجعل انصراف النصارى عن الانخراط فى سلك العمل السياسى له من التبرير ما يجعل من العزلة السلبية طوق أمان، يدرأ عنهم العسف وجور الحكام.

لكن بعد أن نصبت المشانق لفلاحى دنشواى عام ١٩٠٦ على يد اللورد

كرومر، إنقلبت جموع الشعب المصرى بمختلف طوائفه على جيش المستعمرين الإنجليز:

« وحتى الأقباط الذين كانوا متوجسين من حركات الحزب الوطنى أصبحوا وطنيين يكرهون الإنجليز، ولكن إختلاط الحركة الوطنية بالدعوة الإسلامية من ناحية، وبالرغبة فى السيادة العثمانية من ناحية أخرى عرقل الإندماج التام للأقباط فى الحركة الوطنية (١٦) ».

إذن، فإن المشكلة الوطنية لها من الشروط لكى تُحل، وحتى يندمج الجميع، نصارى ومسلمين فى بوتقة واحدة أن يبتعد المسلمون المصريون عن أجنحتهم، وبمعنى تبسيطى لو كان ارتباطهم- مثلاً بالإنجليز وهم مسيحيون مثلهم، لما كانت العزلة، ولحدث على أيدى النصارى المصريين حراك اجتماعى، ولما فرضوا العزلة على أنفسهم طوال تلك الأجيال.

وإذا كان التبرير بعدم المشاركة والدخول فى حزب مصطفى كامل بحجة أنه يشرئب بعنقه إلى السيادة العثمانية والجامعة الإسلامية، فلماذا لم ينضم أحد منهم لنيل عضوية حزب الأمة الذى كان يريد الدستور ضماناً لعدم قيام الإستبداد الفردى، كما كان يدعو إلى الاهتمام بالمشاكل المصرية، وعدم الاعتماد على أحد فى الحصول على الإستقلال سوى جهد الأمة واستعدادها للبذل والتضحية.

وكانت أبواب حزب الأحرار الدسوريين مفتوحة على مصاريعها بزعامة محمد محمود، وهو حزب كان قائماً على أكتاف كبار الملاك والإقطاعيين، والطبقة الرأسمالية وشريحة من المثقفين الذين تلقوا قسطاً من الثقافة الغربية، فلم يتقدم إليه أحد من النصارى، وكذلك كان الحال بالنسبة

لموقفهم من حزب الإصلاح الذى رأسه الشيخ على يوسف .

فما هو الباعث على إتخاذ هذا الموقف السلبى من قضايا المجتمع، السياسية والإقتصادية؟

قيل فى ذلك أن مشاعر المصريين على وجه العموم- آنذاك- كانت لا تحبذ الإشتغال بالعمل السياسى :

« والواقع أنهم لم ينضموا فى تلك الآونة إلى أى حزب من الأحزاب، ولم يشاركوا بنصيب كبير فى السياسة والحركة الوطنية . ذلك لأن الشعور الوطنى كان عند المصريين كافة راكداً بعد كارثة الإحتلال، وكان مظهر ركوده عند المسلمين، إتقاء مخاطر المشاركة فى العمل العام وعواقبه، أما مظهره عند الأقباط، فهو الإخلاد إلى شعور الطمأنينة إلى الاحتلال البريطانى، الذى حاول أن يبدو فى ثوب حامى حمى الأقباط والأقليات، ولكن هذه المحاولة لم تلبث أن انكشف طلاؤها الكاذب، وأدرك الأقباط، بعد أن تدفقت وتتابعت تيارات الحركة الوطنية، أن الأمن الوحيد هو الأمن فى ظل الوطن الذى يشمل الجميع بظله الظليل(١٧) » .

ومع جلاء وقوة مواقف مصطفى كامل السياسية فقد كان المغرضون ودعاة « الوطنيات » المتعددة على أرض مصر يتربصون به الدوائر، ويروجون لفكرة أنه يفضل أن تحكم تركيا مصر، غير أنه كان يجزم بعدم صحة هذا، نافياً ما نشر فى هذا الصدد على صفحات جريدة (لانديبندس بيلج)، بقوله :

« إن المحرر أخطأ كثيراً بقوله أننا نريد حرية مصرية لإعادتها إلى حكم الأتراك، فقد صرحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين (١٨) » .

وكان من مصلحة القوى الحليفة للإستعمار أن تعمق الشروخ والخلافات

فى الجبهة الوطنية، والترويج للإدعاء الكاذب بأن مصطفى كامل طالما أنه مع دولة الخلافة العثمانية، إذن فهو يعادى المسيحية، بيد أن مواقفه الوطنية كانت تدحض هذه المزاعم والإفتراءات، ففى رسالة نشرت له فى باريس يوم ٨/٨/١٨٩٥، أوضح فيها أهمية مصر بالنسبة للعالم:

«إن وجود إنجلترا فيها سيجعل نفوذها يمتد من الإسكندرية إلى رأس الرجاء الصالح، محتكرة بذلك التجارة الإفريقية والآسيوية فضلاً عن إمتلاكها جبل طارق وعدن ومالطة وقبرص مما يجعل البحر الأحمر بحيرة إنجليزية، وأن احتلال مصر خطر على العالم بأسره، وأن السياسيين الذى يساعدون على جلاء الجنود الإنجليزية عن مصر لا يؤدون الواجب الذى فرضته عليهم العدالة والكرامة فحسب بل أنهم يعملون أيضاً للسلام العام واتحاد المسيحية مع الإسلام. والعبارة الأخيرة تصدر لأول مرة عن زعيم مسلم فى الشرق العربى، وهى بلا شك تدعو إلى فكرة من أعظم الأفكار البناءة التى توثق أواصر العلاقات الإنسانية فى المجتمع البشرى (١٩)».

وبخصوص الزعم بأنه كان من أنصار السيادة العثمانية ومع الولاء الدينى لمقام الخلافة الإسلامية فإن الصدق التاريخى يقتضى أن نشير بأن مصر كانت مرتبطة بتركيا بموجب معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ والتى تنص بنودها بأن تركيا هى الدولة صاحبة السيادة على مصر بينما لا توجد لدى الإنجليز أى وثيقة شرعية تؤيد بقاءهم فيها:

«ثم أن سيادة تركيا على مصر كانت سيادة أسمية، فلا تتدخل فى شؤونها الداخلية أو الخارجية منذ معاهدة سنة ١٨٤٠ (٢٠)».

لكن ما أريد ألا ننساه أو يتجاوزه الجدل أن مصطفى كامل لم يكن

يدرك – فى بداية دعوته لتحرير مصر– أن الأمة الفرنسية وهى تستقبله بترحاب وتفتح له صدرها، وتضع على طريقه مدام جوليت لتتعهده برعايتها، وتغريه بالخطابة والكتابة فى الصحافة الفرنسية، مشجعة إياه بالتنديد بسياسة بريطانيا الإستعمارية، فإنما كانت تستغل ثورته كورقة رابحة، ثم لتكون إحدى المفاتيح المفضية إلى إبرام الإتفاق مع بريطانيا فى ٨ / ١ / ١٩٠٤، وهوالاتفاق القاضى بأن يتيح الفرصة لإطلاق يد الإنجليز فى مصر مقابل إطلاق يد فرنسا فى مراكش.

وبقلب مفعم بخيبة الأمل، كتب مصطفى كامل مؤكداً:

« قد رأينا الدولتين الفرنسية والإنجليزية. وقد كانتا بالأمس العدوتين، تتحالفان الآن على مصر ومراكش، وتتفقان علينا بعد طول الاختلاف ».

وما يميز دعوة مصطفى كامل عن الدعوات العديدة التى كانت تعج بها الساحة المصرية، إنها لم تدع للغربة والإنعزالية والهروب إلى الماضى أى قدر من التفكير، فبعد التجربة المريرة ضد الإستعمار وما خلفته من ندوب وجراح فى نفوس المصريين جراء الإتفاق الذى أبرم بين بريطانيا وفرنسا فى ١٩٠٤، رأى أن ساحة الكفاح تتعدد جبهاتها، وأنه لذلك فضل جبهة التعليم والمعرفة، وبدأ يهتم فى إدارة معارك الكفاح لتحرير مصر لأعلى الخلافة العثمانية، ولا على فرنسا، بل على أسس العلم، وهذه نظرة « وطنية » خالصة، مع التركيز على (تعريف المصرى أنه من سلالة أئمة المدنية والحضارة).

غير أن مصر ظلت تتدفق فيها شلالات « الوطنيات »، ففى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وعقب قيام حركة الضباط الأحرار، تحولت الدعوة من القومية المصرية إلى القومية العربية، وبعد نكسة ١٩٦٧ عاد الاهتمام من جديد

بأمجاد الفراعنة، وغطى الإعلام بوسائله المختلفة مساحات كبيرة بوجبات تشحن النفوس بأمجاد صنعها شعب عاش على هذه الأرض منذ ما يزيد على أكثر من سبعة آلاف عام.

لكن حتى اليوم، لم يهتم الإعلام، ولا غيره من المؤسسات بدراسة ما يمكن أن نسميه فلسفة المصريين القدماء، ولا حتى المحدثين منهم، ولم يتحقق ذلك فيما يتناوله الناس يومياً خاصة الأخلاق: «الكوسمولوچيا» و«الفيزيولوچيا» و«الانثروبولچيا» كعلم يقوم على فهم أطوار المجتمع، وما يطرأ على بنيته الفوقية والتحتية، ووظيفة كل منهما، وما تقدمه الثقافة للمجتمع من اتساع الآفاق أمام العلوم.

*****

المصـــــــادر

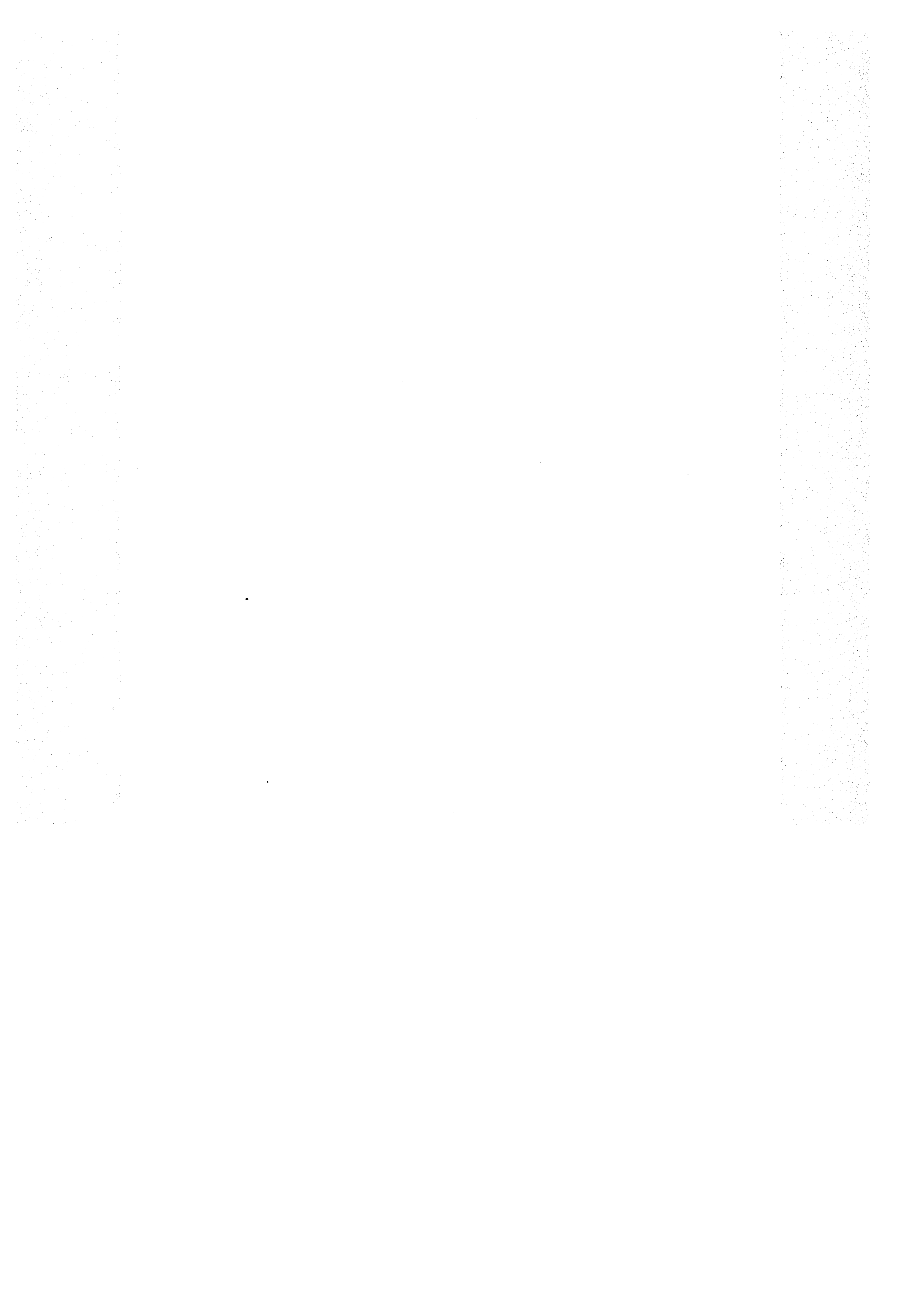
١- حسين مروة (النزعات المادية فى الفلسفة العربية) الجزء الأول، الطبعة الرابعة الناشر دار الفارابى بيروت ١٩٨١ ص ١٦ .
٢- د. على أومليل (هجرتان سيد قطب وطه حسين) مجلة فكر للدراسات والأبحاث العدد ١٠ .
٣- سلامة موسى (مصر أصل الحضارة) القاهرة، المطبعة العصرية ص ٧ و ٨ .
٤-د. طه حسين (مستقبل الثقافة فى مصر) ج ٢ ص ٥٠٢ .
٥-د. على أومليل (مصدر سابق) .
٦-د. لويس عوض (مذكرات طالب بعثة) القاهرة مؤسسة روزا اليوسف، سلسلة الكتاب الذهبى، نوفمبر ١٩٦٥ ص ١١٣ .
٧- حسان محمد حسان (اتجاهات الفكر التربوى فى مصر من سنة ١٩٢٣ إلى ١٩٥٢) رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، كلية التربية جامعة عين شمس سنة ١٩٧١ ص ٦٧ .
٨- سلامة موسى (اليوم والغد) .
٩- محمد عبد الغنى، حسن العطار، سلسلة نوابغ الفكر العربى، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨ .
١٠- د. محمود إسماعيل (فى نقد حوار المشرق والمغرب بين حنفى والجابرى) للرؤية للتوزيع والنشر ٢٠٠٥ ص ٤٩ .
١١-د. رؤف شلبى (الشيخ حسن البنا ومدرسته الإخوان المسلمون) دار الأخبار ٤٠٥و ٤٠٦ .

١٢- حسين أحمد أمين (حركة التجديد الإسلامى) مقال، مجلة الهلال يوليو ١٩٨٦ ص ١٦ .
١٣- حسين مروة (مصدر سابق) ص ١١ الجزء الثانى .
١٤- سلامة موسى (تربية النفس) ص ٤٣ .
١٥- فتحى رضوان (عصر ورجال) الجزء الأول، سلسلة ذاكرة الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ ص ٢٥٤ .
١٦- سلامة موسى (تربية النفس) ص ٤٤ .
١٧- فتحى رضوان (مصدر سابق) ص ٢٨٧-٢٨٨ .
١٨- جريدة اللواء ٦ / ١٠ / ١٩٠٦ .
١٩- نجيب توفيق (مصطفى كامل أضواء جديدة على حياته) كتاب الهلال مايو ١٩٨١ ص ٣٣ .
٢٠- المصدر السابق ١١٤ .

*****



الإسلام فى مصر



الإسلام في مصر

قبل أن نتحدث عن المكاسب الإجتماعية التى تحققت على أيدى قوات جيش المسلمين عندما شارفت على الإقتراب من مدينة الإسكندرية، وقبل عقد المقارنات والمقاربات والمفارقات وبين أركان قادة جنود الرومان وبين حاملى صلبان المسيح فى تلك المدينة ذات الصبغة التاريخية والحضارية، أرى من الأهمية أن نتعرف أولاً على من هى الإسكندرية ذات الخصوصية فى تاريخ التقدم العلمى والفلسفى.

من كان يعتقد أو يتوهم أن مدينة كانت حاضرة للثقافة وقد شاعت فيها وتلاطمت المعتقدات الوثنية وبعد أن اعتنقت المسيحية سوف تدين بالإسلام؟

لننظر فى مكوناتها منذ أن خطط الإسكندر المقدونى لتكون عاصمة لأمبراطوريته فى شمال إفريقيا، وتصير قبلة لفلاسفة الفكر الإغريقى.

فى وصف بديع كتبه «هوميروس» المبدع العملاق. قال عنها فى «الأوديسة»:

«جزيرة فى البحر اللجى بإزاء مصر يقال لها فاروس، بها مرفأ ذو مرسى رائع يجرى منه القوم السفائن فى أليم».

ويميط الروائى «أخيل تاتيوس» اللثام عن وجه الإسكندرية بالمزيد من التفاصيل، قائلاً:

«بلغنا الإسكندرية بعد رحلة استغرقت ثلاثة أيام، ودخلتها من بوابة يقال لها بوابة الشمس، وبهرنى على التوجمال المدينة الأخاذ الذى ملأ عينى بالبهجة فقد كان هناك صفان متوازيان من الأعمدة يمتدان فى خط

مستقيم، من بوابة الشمس إلى بوابة القمر (وهما المعبدان اللذان على حراسة المدخل) وقرب منتصفها يقع الجزء المكشوف من البلدة، ويتفرع منه عدد من الشوارع يبلغ من الكثرة حداً يجعلك تتخيل حيثما تمر به، أنك فى بلاد أخرى، مع أنك لازلت فيها، ولما تقدمت قليلاً، بضعة مئات من الياردات، وجدتنى فى الحى الذى أطلق عليه اسمى الاسكندر، فإذا بى أمام بلدة أخرى، وقد قسمت هذه المدينة الرائعة إلى مربعات، صف من الأعمدة يقطعه صف آخر مساوٍ له فى الطول بزاوية قائمة، وحاولت أن أجول ببصرى فى كل شارع، فارتد منى الطرف وهو حسير، ولم أستطع أن أتملى جمال كل بقعة فى ألتو، فمنها من أدركته ومنها ما لمحته، ومنه ما تقت إلى رؤيته، ومنها ما لم أستطع إغفاله، فأما الذى رأيته فشد بصرى، وأما الذى تطلعت إليه فكان يجر بصرى إلى مما يتلوه، وقد جلت فى شوارعها، فلم يشبع منى النظر « قصاراك يا نواظرى » !!

لقد راعنى شيئان غريبان شاذان بصفة خاصة، وكان يستحيل على أن أحدد أيهما الأعظم، حجم المكان أم جماله . . المدينة نفسها أم سكانها، فالمدينة كانت أكبر من قارة، والسكان يفوقون الأمة عدداً، ولما تطلعت إلى المدينة شككت فى أن يتمكن أى جنس من الأجناس من أن يملأها، ولما نظرت إلى أهلها سألت نفسى إن كان يمكن لأى مدينة أن تتسع فتستوعب هؤلاء جميعاً . ومع ذلك فقد بدأ التوازن تاماً فى كل شئ » .

تلك صورة بديعة لواقع كان غاية فى الجمال . نقلها الكاتب بحس مرهف وبشاعرية رفيعة المستوى، يضاف إلى هذا الانبهار استمتاع مدينة الإسكندرية بالتمركز فى وضع جغرافى جعلها مفتوحة الصدر والذراعين

على اتساع شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وبما يليق بتحفه معمارية فريدة، أقيمت عمائرها- شأن المساكن الأُفخم- من الحجر، داخلها أقواس مقنطرة، وصهاريج متصلة بالنيل.

بالقرب من هذه المساكن، كان يقع الأستاد والمسرح المدرج، وحدائق عامة، ومسلتان (مسلة لكيلوباطرا آخر ملوك عصر البطالمة ٣١ق.م) وهما الآن موجودتان في لندن ونيويورك، وفنار أطلق عليه القدماء إحدى عجائب الدنيا السبع، كما تميزت المدينة بالكثير من البوابات والمعابد العظيمة.

في زيارة لها قام بها الجغرافي الإغريقي « سترايون » عام ٢٤ ق.م ، قال في وصفها:

« إن المدينة مليئة بالمباني العامة والمقدسة. غير أن الساحة الرياضية (الجمنازيوم) أجملها، وبها من الأروقة التي تحيطها الأعمدة أكثر مما في الإستاد من ناحية الطول (٢٠٠ ياردة) وفي قلب المدينة تقع المحكمة والبساتين، وبها أيضاً البانيوم، وهي ربوة من صنع الإنسان لها شكل مخروط شجرة التنوب وتشبه التل الصغرى، ويمكن صعودها بطريق حلزوني، ومن القمة بوسع الإنسان أن يرى المدينة كلها من كل صوب ».

هذا البذخ الروحي والمادي يكشف عن وجه حضاري لمدينة كانت الحداثة بمعايير تقنية متقدمة دون أن تبتعد عن روح الأصالة النابضة بالإيمان، وكانت أنوار المعارف تخرج من متحف القصر إلى جانب ما كان يمثله كجامعة عالمية وقبلة للباحثين ومتذوقي العلوم والفنون، وعبر منافذ المكتبة الشهيرة التي كانت تعد من أكبر مكتبات العالم القديم (أكثر من ٧٠٠٠٠ كتاب).

فى هذه الجامعة رفيعة المستوى عكف ٧٢ عالماً قدموا من أورشليم بدعوة من بطليموس لترجمة «العهد القديم» إلى اليونانية وهى الترجمة التى نشرتها المسيحية على نطاق واسع.

وكانت الإسكندرية مدينة منفتحة على مختلف الأجناس وفيها مجموعة من اليهود الذين يعملون بالقرب من المسيحيين الأوائل ومن كان منهم على صلة بتلك الدولة اليهودية التى خضعت لحكم الملك «هيرودتس» فى أيام السيد المسيح، وظلت إدارتها خاضعة للأمبراطورية الرومانية.

وقريباً من ذلك الوقت كانت هناك دولة عظمى ناشئة فى الشرق هى «آشور» التى قضت نهائياً على إسرائيل، وحينما وقع الشتات تجمع اليهود فى أحياء خاصة بهم، فى انطاكية والإسكندرية وكورنثيا.

وفى تلك المدينة جمع «أرتوستينيس» المعلومات التى عاد بها المستكشفون الموفدون إلى إفريقيا والجزيرة العربية، ومن نتائج هذه الرحلة الباهرة نجاح «أرتوستينيس» فى إعداد خريطة العالم، وفيها أيضاً وضع «أقليدس» الهندسة على شكل نظريات، وخاطر «أرسترخوس» من بلدة ساموس بفرضية أن الأرض تدور حول الشمس.

تلك الإنبعاثات الفكرية والينابيع العلمية فى مدينة الإسكندرية لا أظن أنها كانت غائبة عن فطنة قادة الفتح الإسلامى لمصر فقد كانت تمثل النموذج الفريد لمدينة العصر الهللينستى على حين كانت روما تقبع فى أحد أركان العالم القديم. لتمثل النموذج المتخلف فى أسوأ حالاته بمعوزيها ومواطنيها المسحوقين فى أطر طبقية وتقسيمات طائفية.

وللتدليل على أهمية استقبال النموذج الفريد فى مصر بحفاوة أن

التطور لفكرة الفردية فى المدن الفرعونية ولد قوياً صلب العود وبما يوكد أن مشاعر الزهو والثقة كانت وقفاً على الفراعين والكهنة وطبقة الأثرياء ونخبة من المتعلمين.

لم تكن مصر وحدها المهتمة بالتطور الفردى، وإنما كانت هناك الخصوصية الفردية الرومانية النابضة بالتوحش والإشتهاء، ومن هذه وتلك شاعت أنماط من أفكار الفردية القامعة، وكان المقموعون فى طول وعرض الامبراطورية الرومانية إبان فترة قرون احتلالها لمصر يعانون من سيطرة المشاعر الحسية الشهوانية، المبتذلة، الأمر الذى دفع فلاسفة الامبراطورية (الرواقيون والأبيقوريون) لتعليم التلاميذ طرائق تحقيق (السكينة الداخلية)، و(أساليب ضبط النفس) و(العقل الذى حقق هذه السكينة) حتى جاءت المسيحية النابعة من ديانة العهد القديم لتبشر بالخلاص الشخصى.

إن الهبوط يعقبه صعود، هذه سنة الله فى خلقه، ومن الأخطاء الفادحة الإعتقاد بأن الجنس البشرى مندفع دواماً نحو التدهور فعادة يعقب الليل النهار، ويعقب النهار الليل.

*****

هرقل.. يغلق باب النقاش والجدل

ضاق هرقل ذرعاً بالجدل الصاخب الذى بلغ حد التوتر والقتال بين أنصار طائفة «الملكانيين» وبين كنيسة الأسكندرية الأرثوذكسية التى تؤمن (بالآب.. الإبن.. الروح القدس) فأصدر أمره بغلق باب النقاش فى هذه القضايا وغضّ الطرف عن معالجة قضية الإضطهاد الدينى ومشايعة أفكار الكنيسة البيزنطية، كما أنه لم يتعرض للأعباء المادية التى يفرضها جباة الضرائب على المصريين، وقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان إن هرقل كان يحصل على تسعة عشرة ألف ألف دينار سنوياً من المصريين.

فى تلك السنوات كان عمر بن الخطاب تولى مهام الخلافة الإسلامية وكان أول من سمى من الخلفاء بأمير المؤمنين، وأول من وضع التاريخ فى السنة السابعة عشرة من هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة، وكان أول من عس فى الليل بين منازل الرعية، ليطلع بنفسه- دون وسائط- على أحوال المسلمين، وفى خلافته تم فتح بلاد الشام التى كانت خاضعة لحكم الرومان، وقد تحقق ذلك على يد خالد بن الوليد، وفى عهد الخليفة عمر تم فتح العراق على يد عبيدة بن مسعود، ثم ذهب عمر ﷺ مجاهداً فى سبيل الله لتحرير بيت المقدس بعد أن استخلف على المدينة على بن أبى طالب، وفى القدس أبرم المعاهدة الشهيرة مع البطريرك «سوفرنيوس» والتى بموجبها كفل للنصارى الحق فى أن يبقوا على دينهم ويدفعون الجزية، وفى عهده دخلت جيوش العرب وعلى رأسها خالد بن الوليد إلى بلاد إرمينية. حتى وصلت إلى القوقاز، ثم واصلت حملات الجهاد فى سبيل الله بالتقدم إلى بلاد

العجم، ومن هناك أرسل سعد بن أبى وقاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تاج كسرى الأكبر « يزدجر » ملفوفاً فى علم دولته مع بساط إيوان كسرى، وهو ستون ذراعاً فى مثلها منظوماً بالجواهر الملونة على ألوان زهر الربيع، وكذلك أرسل إليه منطقته وسوارَيه، وتقدم الأحنف ليستولى على خراسان.

بلغت هذه الأمصار- بكل ما كانت تمثله من حضارات- مساحات شاسعة من سطح الكرة الأرضية، ومع ما ألقته من تبعات جسام على كاهل الإسلام إلا أن ذلك لم يصرف الخليفة عمر رضي الله عنه عن التفكير فيما كان يجرى على أرض مصر من ظلم لشعبها وإضطهاد فأرسل إليها عمرو بن العاص فى جيش من المسلمين حتى وصل إلى مدينة « الفرما » وتم له فتح بلبيس، وكانت بها إبنة المقوقس عظيم أقباط مصر فأرسلها عمرو إلى أبيها محاطة بالرعاية قبل أن يتجه بجيشه صوب مدينة « منف » ومن هناك تحول غرباً إلى مدينة الإسكندرية معقل الرومان، بعد أن وضع أسس مدينة أطلق عليها اسم الفسطاط « مصر القديمة »، وقام ببناء جامع على هيئة الحرم المكى (جامع عمرو بن العاص)، وأنشأ خليجاً على البحر الأحمر ليبسر لجنوده نقل المؤنة من وإلى المدينة ومكة.

ومن على صهوة جواده. أرسل عمرو بن العاص البصر متأملاً- على القرب- مدينة الاسكندرية.. وصل الإسلام إلى إمينيا.. المسلمون فى القوقاز.. المسلمون فى الشام.. حظم الإسلام بيوت النار فى بلاد فارس.. اليوم. خمسة عشر يوماً مضت على حصار جيش المسلمين لمدينة الإسكندرية.

لقد عانى المصريون لأكثر من ٥٠٠ عام تحت نير الإحتلال الفارسى ولتحريرهم من قبضته قصة لعب أهم أدوارها رجال الكنيسة المصرية.

راجوا يبحثون عن المُخلصٍ. من يساعدهم لنيل الحرية.. زرعوا البلاد طولاً وعرضاً بحثاً عن ذلك المنقذ.. عثروا على هرقل فى مواخير الفجور واللهو غارقاً فى المباذل بين العازفات والراقصات على رنات الكؤوس.

أدار هرقل عينيه فى وجوه القساوسة وهو يحلم للحظات بارتداء ملابس البطولة.. لكن من الذى يصرف على المؤنة والعتاد الحربى ومرتبات الجنود؟.

أجاب القسس بأنهم عازمون على تقديم يد المساعدة لتمويل معركة تحرير مصر من الإستعمار الفارسى.

ألمح هرقل بأن الطريق إلى أورشليم وسوريا وفلسطين بحاجة إلى دعم كبير.

تعهدت الكنيسة بتمويل العمليات العسكرية، وتمت الموافقة بأن تقرض هرقل ما يشاء على أن يسدده بالربا من الجباية التى سيحصل عليها من شعوب تلك البلدان عقب تحرير بلادهم من الفرس.

ثم ركب هرقل وجنوده البحر إلى «كليليا» فى آسيا الصغرى فلقيه الفرس فى «إيسوس» وحقق عليهم الإنتصار سنة ٦٢٢م، وهى ذات السنة التى كان المسلمون فيها يعانون الأمرين على أيدى القريشيين.

عند هذه النقطة لا تصلح المقارنة بين جند الفرس والروم وبين العرب..

كان لدى فارس أكثر من ٢٧٠٠٠ مركبة وعمارة بحرية، وكان جنودهم أربع طبقات، الأولى: طبقةالقوام العظام ويسمى واحدهم ميرميران، تحته أربعة قواد يسمى كل واحد منهم أصفهبذ، وتحت كل أصفهبذ أربعة مرازبة، وتحت كل مرزبان أربعة سالارية، وتحت كل سالار عشرة أساورة (وهم الفرسان المفرزة)، وخمسة من الرجال المشاة ويسمونهم البيادة.

على الجانب الآخر كان لدى الروم أكثر من ١٢٠٠٠٠ جندى، ولم

يعرف عن العرب إلا أنهم أهل بداوة لا نظام لجند عندهم إلا ما كان من نظام الجند فى الدول العربية التى تمدنت قبل الإسلام كالتبابعة والمناذرة ملوك الحيرة. فقد كان للمناذرة كتيبتين من الجند تسمى أحدهما الدوسور والأخرى الشهباء، أما المسلمون فلم تقو شوكتهم إلا حين اتحدوا بجامعة الدين، وتشكل من الشباب والشيوخ أول كتيبة عسكرية ظهرت فى الإسلام من المهاجرين وملامح الدولة الإسلامية كانت تأخذ فى التبلور برئاسة النبىﷺ على قاعدة التنظيم الإسلامى السياسى، وازدادت قوة ومنعة باتحاد المهاجرين مع الأنصار إنطلاقاً من قاعدة شريعة: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾[النحل: ٩٠] و﴿ وقاتلوا الذين يصدونكم عن سبيل الله ﴾[سورة]. . ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾[النساء: ٤٨]. . ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[المائدة: ٣٥].

حين ظهرت المسيحية راحت تبشر بالخلاص الشخصى. . اهتمت فعلاً بتحرير الفرد، ولكنها لم تستطع أن تحقق التوازن الإجتماعى لشعبها ولا الخلاص الحقيقى. . من الإنسحاق فى قبضة الفرس إلى الكبت والإضطهاد والإستغلال حين صارت مصر ولاية تابعة لأمبراطورية الروم وخاضعة فى داخل البلاد لهرقل وجنوده الذين كان الأمبراطور «قسطنيطين» يستقطع قادتهم- بين وقت وآخر- مساحات عريضة من أرض مصر.

ومع ذلك كانت روما- بالنسبة لمدينة الإسكندرية- تمثل الإنحدار فى أسوأ حالاته. إذا اتسعت فيها الفجوات بين الأغنياء والفقراء. وظلت نسبة العبيد ترتفع ليس فى روما وحدها وإنما فى داخل المجتمعات التى استولت

عليها فالأنظمة السائدة كانت لا تفرز سوى طبقات من العبيد، وفى روما على وجه التحديد كان الفقراء يتكدسون فى مساكن أشبه ما تكون بالأقبية وفى حفر يسكنونها تحت الأرض، ويلاحظ أنه بعد انتقالها من الوثنية إلى المسيحية على يد بولس لم يكن فيها سوى السادة الذين لم تتجاوز نسبتهم العددية على ربع السكان، وبقية الشعب من الجنود والإجراء والعبيد، وهذه النسبة كانت مرتفعة فى مصر.

لهذه الأسباب روعى عند وضع فسطاط عمرو بن العاص أن تقع على مرمى البصر من الأديرة إستجابة لرغبة أمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب الذى كان حريصاً أن تكون عاصمة مصر الإسلامية متصلة برياً بشبه جزيرة العرب، إذ قد تصلح المساحة التى تقع خلفها كميدان لحرية حركة الجنود إذا اقتضت الظروف بين كروفر، وفى ذات الوقت يمكن الاستفادة من حماية تلال المقطم شرقاً، ونهر النيل- كمانع مائى- غرباً، وكان فى ذلك إشارة لبدء نقل عاصمة البلاد من الإسكندرية.

اتجه جيش المسلمين صوب المدينة التى تألقت فيها مدرسة الإسكندرية اللاهوتية الأرثوذكسية حيث كانت معنية بنشر أجنحة المحبة إنطلاقاً من قاعدة جدلية (التفاعل الإجتماعى والتعددية الواقعية) داخل أسوار تلك المدينة، وأن التفاعل لا يكون إيجابياً عندما يكون هناك فكر جديد يدق على الأبواب، فمن الذى كان هناك يسمح لنفسه أو لغيره بالحديث أو التحاور على ضوء – التعددية الواقعية-- مع المسلمين؟.

******

«كوش».. بدلاً من الأب «بنيامين»:

فى تلك الآونة كانت تسود فى مصر التقاليد والعادات المكتسبة من ميراث الفكر الفرعونى واليونانى والرومانى، ولذلك حاولت الكنيسة الأرثوذكسية بالأسكندرية معالجة الواقع بشكل دفعها لفتح أبوابها أمام الجميع:

«التحق بها أناس من ديانات مختلفة وثقافات متباينة وذوو مراكز اجتماعية وأعمار متفاوتة، وكان التعليم لا يميز بين الطبقات، وساوت بين العبيد والسادة من الناحية العملية (١)».

تلك الثقة الإيمانية تذكرنا بحقيقة كبرى فى حياة المسلمين حينما هاجرت أول مجموعة منهم إلى الحبشة فراراً من بطش القريشيين ويهود مكة فى عهد الرسول ﷺ فكان لهم الأمان والرعاية، ثم أن المسلمين ليسوا بعيدين عن المسيحين فلقد تزوج النبى ﷺ منهم.

والحق أنه كان من المحال ألا تتردد أصداء للمشاحنات لنقائص الروم مع التشكيك فى قدرة المسلمين وبأنهم لن يكونوا أفضل من هؤلاء، بينما كان اضطهاد الملكانيين لطائفة «اليعاقبة» قد بلغ أشده قبيل وصول جيش المسلمين إلى منطقة «الفرما» فى نهاية سنة ١٨ هـ ٦٣٩م، وحاول هرقل إلقاء القبض على أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الإسكندرانية ومن يؤمنون بالتثليث (الآب.. الابن.. الروح القدس)، وقام بخلع بطريك كنيسة الإسكندرية الأب «بنيامين»، ووضع على كرسيه قسا يشايع الكنيسة

(١) الأسقف الأنبا أيسذورس (الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة- طبعة الثانية. ج٢ سنة ١٩٩١.

البيزنطية يدعى « كوش »، واضطهد كل من اختلفوا مع هرقل فى الرأى حول اللاهوت والناسوت، وجعل اهتمامه بالغاً بكل ما يتصل بطبيعة السيد المسيح دعماً لقرارات مجمع « خلقدونيا » معلناً تبرمه بالكنيسة المصرية فى سجودها للثلاثة أقانيم والجوهر الواحد.

فى ١٦ إبريل سنة ٦٤١م، وبعد وفاة هرقل الذى كان رفض شروط عمرو بن العاص، أمر القائد العربى عمرو بن العاص « الزبير بن العوام » أن يحكم الحصار حول حصن (بابليون)، وقبل أن يلقى الجنود الرومان أسلحتهم، قضت الطائفة الملكانية يوماً كاملاً فى تعذيب الأقباط اليعاقبة الذين سجنوا فى الحصن بتقطيع أيديهم وأرجلهم.

أخيـــــراً..

سقطت مدينة الأسكندرية فى يد العرب، وكان حدثاً زلزل أركان العالم القديم فالمدينة كانت محصنة تحصيناً قوياً، وبها من قادة الروم ما يزيد على ٥٠٠٠٠ جندى، وكان الجميع يسلمون بأن هؤلاء الجنود المدربين على استعمال أحدث وسائل القتال يستطيعون بسهولة التصدى لجيش المسلمين قليلى العدد والتغلب عليه.

وكان القساوسة الذين غادروا كنائسهم هرباً من بطش هرقل وأتباعه لا يزالون مختفين فى الصحراء، وفى قلب « القلايات » يصومون، ويصلون.

ومع تراكض الأحداث واندلاع موجات السخط العام قام « سايروس » المقوقس بتولى إدارة المحادثات التى أسفرت عن عقد معاهدة مع عمرو بن العاص، وقد نصت بنودها على ما يلى:

– أن تدفع الجزية للمسلمين.

– أن يعقد لذلك هدنة لمدة ١١ شهر.
– أن تجلو الجيوش الرومية من الإسكندرية.
– أن لا يتدخل المسلمون فى دين المسيح أو يستبيحوا كنائسهم.
– أن يسمح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية.
– أن يسلم الروم ١٥٠ من رجالهم غير المحاربين رهناً وضماناً لما تقدم.

كان يمكن لليهود المقيمين بمصر أن يدفعوا الجزية أو يشهروا إسلامهم، وبالفعل أقبل بعضهم– فى العلن– على اعتناق الدين الإسلامى، وفى السر كانوا يحتفظون بديانتهم؛ وهذه عادة درجوا عليها منذ القدم، والأمثلة على ذلك عديدة:

«فهناك «المرانوس» فى إسبانيا و«الشويتاس» و«جديد والإسلام» هى بعض الحالات ليهود ظلوا على يهوديتهم سراً رغم اعتناق ديانات أخرى. غير أن أحداً من بنى قريظة فى رواية ابن إسحاق لم يحاول أن ينقذ حياته بقبول الإسلام، وليس هناك خطأ جوهرى فى قبول أن يكونوا قد ماتوا ميتة الشهداء.

لكن هذا يبدو تحمل للأمور فوق ما تحتمل، وقصتهم هذه تحمل أصداء من قصة شهداء نجران، فقد أمر امبراطور بيزنطة فى سنة ٧٢٣ ميلادية يهود آسيا الصغرى باعتناق المسيحية وإلا تعرضوا لأشد العقاب وأطاع كثير من اليهود الأمر، وكانوا يرون أن العاصفة لن تلبث أن تهدأ وأنه سيسمح لهم بالعدة إلى اليهودية. وقبل ذلك فى سنة ٦٥٤ قبل يهود طليطلة اعتناق المسيحية فى ظروف مماثلة (٢)».

---

(٢) أنظر: واط (محمد فى المدينة) و (جراتز) ص ١٢٣ و١٠٣.

ومن اللافت للنظر أن المعاهدة التى وقع عليها عظيم القبط لم تمر فى هدوء فقد تلقى أهالى الثغر بنودها بصدمة اشعلت السخط والغضب لدرجة أنهم كادوا يفتكون به.

لكن بفضل بلاغته المعهودة وحنكته استطاع أن يقنعهم بما حصل، ومن بين ما كان يقال:

« إن المقوقس كان أكبر مساعد على تسليم الاسكندرية، وربما كان له فى ذلك مأرب خاص، وهو جعل الكنيسة المصرية بطريقة مستقلة عن « القسطنطينية » فرأى ذلك أسهل فى عهد المسلمين منه فى عهد أمة مسيحية (٣) ».

فى ظل هذه المتغيرات انتهز شخص يدعى « ساتوينوس » تبدل الأحوال فطلب إلى عمرو بن العاص أن يسمح للمبطريرك « بنيامين » بالعودة إلى الثغر ليتولى مهام البطريركية لأن « كوش » هرب وخلف وراءه من الآلام والجروح ما لا يندمل:

« وصفا الجو لبنيامين فرخص عمرو للبطريرك بالعودة وأعطى له الحرية وتمام التصرف فى وظيفته وسياسة كنائسه فى سائر أقطار مصر، وقد اهتم بنوع خصوصى فى ترميم وتصليح أديار الرهبان فى الأسقيط التى كان الفرس دمروها، وبنى الرهبان كنيسة فخمة فى دير أبى مقار على أسم هذا القديس (٤) ».

وابتدأ العمل بدفع الجزية على نفس الشروط المتفق عليها فى أول المحرم

(٣) تاريخ مصر إلى الفتح الإسلامى (غير موجود اسم المؤلف) ص ١٨٣.
(٤) الأسقف الأنبا إيسذروس (مصدر سابق) ص ٧٧.

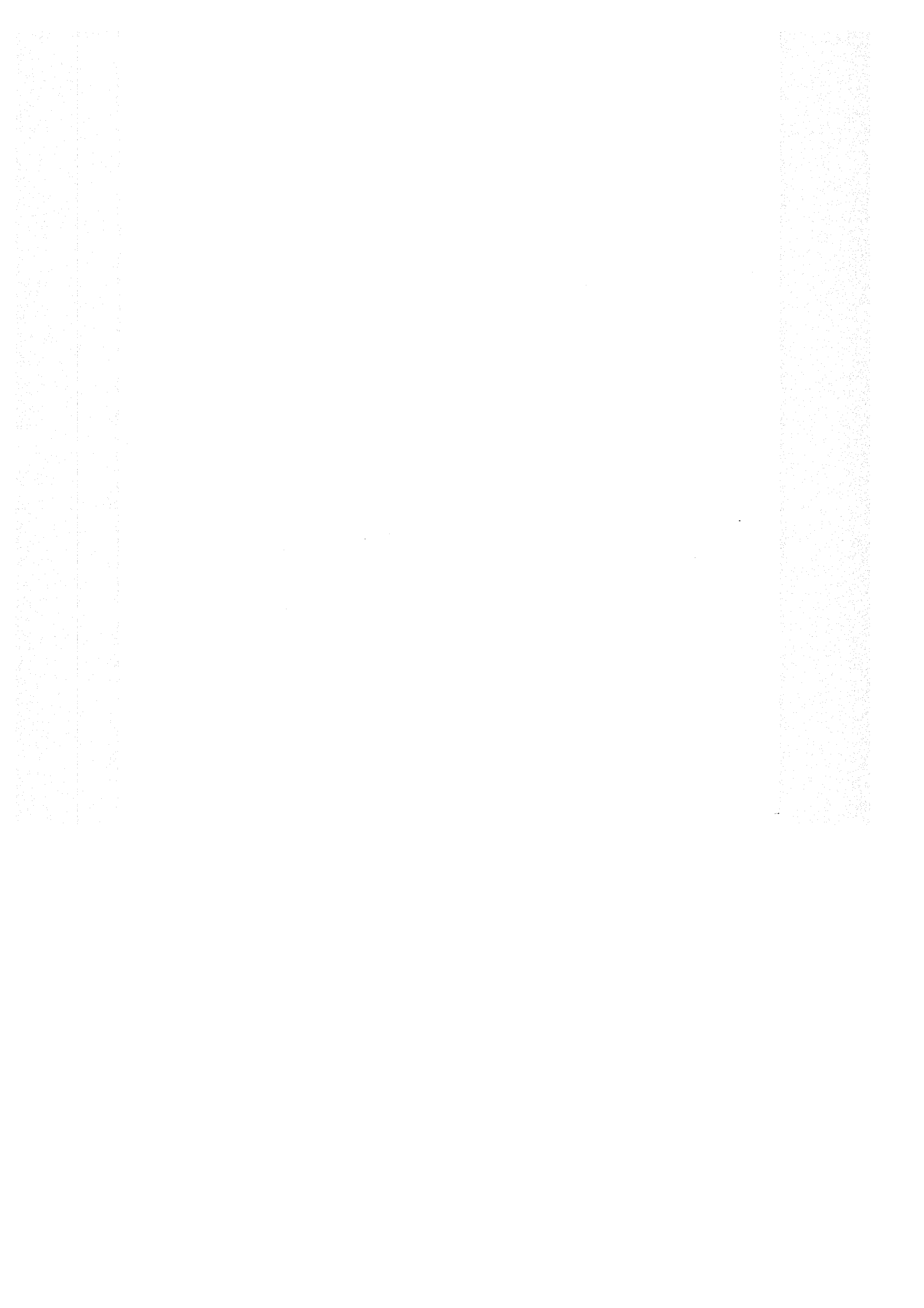
سنة ٢١ هـ – ١٠ ديسمبر ٦٤١م، وصارت مصر محط أنظار الجميع فدخلها مسلمون من أجناس مختلفة، فيهم الفلاحون والعمال والتجار، لتعود مصر إلى ما حدث قبل ذلك من طفرات فى تاريخ التغير الديموغرافى والاثنوغرافى وبين هؤلاء أعداد غفيرة من العرب الذين نزحوا إلى مصر فى عهد ما قبل الميلاد، وقبل قيام الفسطاط سنة ٦٤٠، ثم ظهور العواصم الثلاث: القطايع.. العسكر، ثم القاهرة، وفى اتصال هذه العواصم بعضها ببعض تكونت العاصمة المركزية الأولى لمصر.

تم بحمد الله،،،

فى العاشر من رمضان

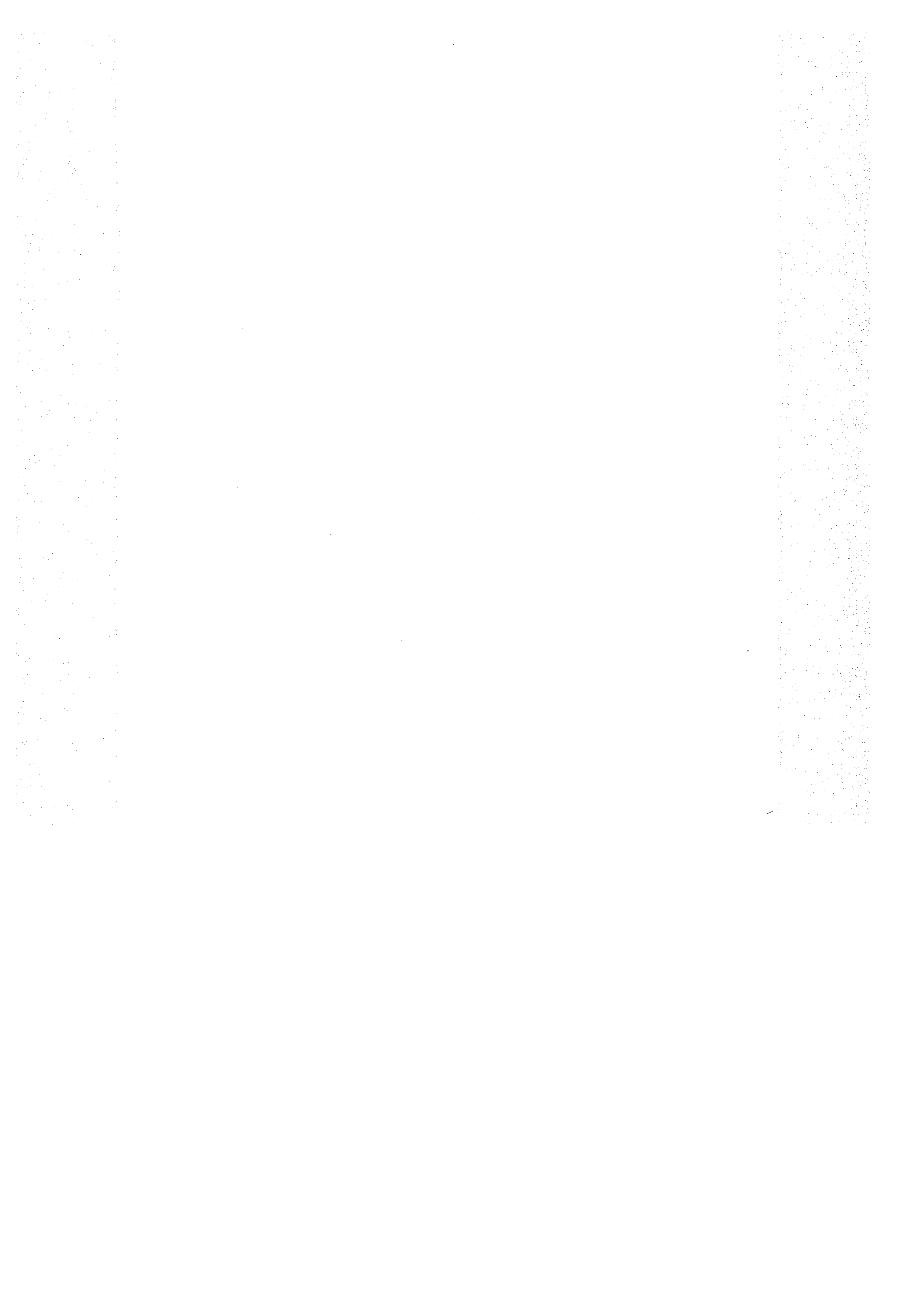
١٤٣٠هـ –٢٠٠٩م

*****





محتويات الكتاب



محتويات الكتاب

*****

المؤلـف فى سطـــور

- **عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل** ولد فى المنصورة عام ١٩٣٨ صدر له :
  ١ـ خمس مجموعات قصصية .
  ٢ـ راويتان .
  ٣ـ مسرحيتان .
- كان عضوا بمؤتمر الأدباء الشبان الذى عقد بالزقازيق عام ١٩٦٩ .
- عمل فى ليبيا بمجلة الثقافة العربية و« الشورى » والأسبوع الثقافى فى عامى ٧٦، ١٩٧٧م .

الجوائــز

- فازت رواية « أولاً المنصورة » بالجائزة الأولى الذى ينظمها نادى القصة .
- فازت مجموعته القصصية « أحلام ترانزستور » بالجائزة الأولى فى المسابقة التى نظمها الأدباء الشبان الأول .
- فازت قصة « النبى يموت فى جحره » بالجائزة الأولى فى المسابقة التى نظمتها جريدة العمال » عام ١٩٧٠ .
- كرمه مؤتمر أدباء مصر فى الأقاليم الذى عقد فى جامعة المنيا منذ عدة سنوات لدوره البارز فى خدمة الأدب والأدباء الشبان .
- أعيد تكريمه فى المؤتمر الأدبى الذى عقد فى مسرح أم كلثوم بالمنصورة عام ٢٠٠٢م .

